

عز الدين شكري فشير

# غرفة العناية المركزة

رواية

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^

دار الشريعة

## غرفة العناية المركزة

"أخذ عز الدين شكري عن أمتي قائم النطل ميزاته. قهرته على صياغة الفرد والنموذج مقاد... أنصعدك بلرامة الرواية كاملة".

فاروق عبد الطاهر - البديل

«رواية كابوسية لا يمكن الإفلات من براثنها، ورواية كاشفة تجعل شهادة كاتبها - الجريمة والمسروبة - على مصر بكامله، ورواية تتأهب على التلخيص أو إعادة إنتاج حكايتها بلغتنا نحن القراء».

فاروق شوشة - الأهرام

"غرفة العناية المركزة نموذجاً لهذا للرواية السياسية، لا لأن أصواتها ترتفع بالنقاش والحوار حول السلطة، فليس فيها شيء من ذلك، ولكن لأن نماذجها الأربعة يمثلون خلاصة ملطمة لتيارات الحياة الفاعلة في المجتمع المصري في العقود الأخيرة".

صلاح فضل - الأهرام

عز الدين شكري، فنان روائي وديبلوماسي مصري، يُدرّس العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية حالياً. صدرت له أربع روايات: «مقتل لعز الدين» (١٩٩٥)، «أسفار الفراعنة» (١٩٩٩)، «غرفة العناية المركزة» (٢٠٠٨) والتي رشحت للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية)، وألبو عز الدين المصري (٢٠١٠).



دار الشروق  
www.shorouk.com

عز الدين شكري فشير

# غرفة العناية المركزة

رواية

الطبعة الأولى ٢٠١١

رقم الإيداع ٢٤٩١٨/٢٠١١

ISBN 978-977-09-2960-9

جميع الحقوق محفوظة لمركز

دار الشروق

٨ شارع سيدي به النصر

مدينة نصر - القاهرة - مصر

الهاتف: ٢٤٠٢٢٢٩٩

فاكس: ٢٤٠٢٧٥١٧ (٢٠٢) +

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

دار الشروق

تقع أحداث هذه الرواية عام ١٩٩٥، وهي تقوم على خيال محض،  
وأي تشابه بين مضمونها وبين أحداث أو أشخاص أو هيئات قائمة  
في الواقع هو من قبيل المصادفة.

(۱)

موت سريري

صمت مفاجئ يغلف المكان. كأن الحياة توقفت، أو كأن أحدًا داس على زر عزل الصوت. أحاول أن أفتح عيني لأرى ما حدث. جفناي ملتصقان. أحاول تحريك يدي لأفرك عيني فلا تتحرك. لا بد وأن ذراعي محشورة في هذا الأسمنت. أركز جهدي كله في جفني أحاول تحريكهما يمينا ويسارا. بدأ يتحركان ثم انفتحا شيئا فشيئا وهما يتحركان لسعة، كأنني ألزع شريطًا لاصقًا من على شعر يدي. أدير مقبلي لأرى أين أنا: لا شيء. الظلام يخيم على المكان. شيء يدعو للقلق يا سيادة العميد. ليس في التدريب شيء عما يجب أن تفعله بعد الانفجار. كل تدريبك كان عن منع الانفجارات لا عن العيش بعدها. أترى سيدخلون برنامجًا تدريبيًا جديدًا بعد عودتي؟ إن عدت؟

ما هذه الأفكار؟ هل هذا وقته؟

كم من الوقت مر؟ وماذا كان هذا الانفجار بالضبط؟ هل انهار المبني كله؟ هل هذا الظلام هو تراكم الانقراض فوق أم ترابي فقدت البصر؟ كيف أخرج من هنا؟ نوبة الصداخ النصفية تهاجمني مرة أخرى: أشعر بديهيها في نصف رأسي الأيمن. ما الذي حدث؟ أين الباقون؟ ولماذا ذهبت كل الأصوات هكذا؟ منذ دقيقة واحدة كانت

الفصلية تمنع بالأصوات والضجيج الذي يعيد إليك ذكرى مجمع التحرير: زعيق في المدخل، بالإضافة للضوضاء المعتادة من حديث السكرتيرات ونداءات الموظفين بعضهم على بعض وعلى الفراشين ورزق الباب المتواصل واحتجاج أحد المواطنين على عدم قضاء مصلحته وعلى الفوضى وعلى المواعيد وعلى الحكومة وعدم احترام المصريين في الخارج. كانت هناك ضوضاء زائدة خللتها غثاقة فقلت وتحت الباب لأرى ما يحدث، ومع فتحي للباب انفجر المكان كله أمام عيني. ثم ظلام، وصمت، وهذا الصداح.

كانه فيلم لجيمس بوند، لماذا أتذكر ذلك الآن؟ كانوا يعرضون علينا أفلاماً لجيمس بوند أثناء التدريب. لماذا كانوا يعرضون علينا هذه الأفلام؟ هل ليحفزونا على أن نسعى لتكون جهازاً أمن لا يمكن قهره؟ «أفوى جهاز مخابرات في المنطقة» مثلما يقول جميل راتب لمديحة كامل في «الصعود إلى الهاوية»؟ أنا الآن في الهاوية، تحت الانقراض في هذه المدينة الغريبة، بلا سبب. أنا هنا الآن لأن أحد الذين أطاردتهم بلا سبب فجر هذه الفصلية بلا سبب. أحاول أن أحرك ساقي أو جسمي، أن أقوم أو أتقلب على جنبي، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. أطرافي لا تستجيب... لا أشعر بجسدي نفسه، اللهم إلا هذا الصداح المتزايد.

كم من الوقت مر منذ الانفجار؟ هل كانت قبيلة في حقبة، أم مخبئة في الأثاث، أم هي سيارة محملة بالمضجرات؟ سيارة مفخخة مثلما تسميها الصحف اللبنانية؟ كانت الساعة العاشرة بالضبط عندما

وقع الانفجار، لأني حين سمعت الضجة عند الباب وغرجت لأرى ما يحدث نظرت في ساعتي. كم الساعة الآن. لا أستطيع حتى النظر في ساعتي، هذا إذا كان ذراعي في مكانه أساساً. هل يمكن أن يكون ذراعي... هل يمكن أن أنزف دون أن أشعر بذلك؟ أنا صحيح لا أشعر بذراعي ولا بساقي ولكني أعرف أنهم موجودون. لا بد وأن من يفقد جزءاً من جسمه يشعر بهذا فقدان. لا بد وأنهم في مكانهم وإلا لكتت شعرت بذلك. كيف يعيش الناس دون سيقان وأذرع؟ وهل هذا وقت هذه الأفكار الممضة؟

كيف سأخرج من هنا؟ وكيف لا أرى شيئاً على الإطلاق هكذا؟ كنت أتوقع أن تعتاد عيني الظلام مع الوقت وأن أبدأ في تمييز الأشياء ولكني لا أرى شيئاً حتى الآن. كيف يمكن ألا أرى لهذه الدرجة؟ غريبة. لا فارق البتة بين أن أغلق عيني أو أفنحهما. نفس درجة الظلام. ولا حتى شبح رؤية أو ضوء، كأنني لا أفتح عيني أساساً. من الذي كان يصرخ «عيني» في أحد الأفلام القديمة؟ هل هو حسين رياض؟ ولماذا تلح الأفلام على ذاكرتي الآن؟

كان عندي موعد مع أشرف فهمي عند الظهيرة. لحظة واحدة... الآن أتذكر أنني رأيت أشرف فهمي في الفصلية عند وقوع الانفجار. عندما فتحت الباب لأرى ما يحدث رأيتة واقفاً عند الباب والتفت عينا في اللحظة التي طار فيها كل شيء! ماذا كان يفعل في الفصلية وقتها والمفروض أنه موجود بقاعة المؤتمرات في الناحية الأخرى من المدينة؟ هل له علاقة بالحادث؟ هل علم بأمر القنبلة وجاء

ليحذرني أم أتى هو نفسه بالقلبنة؟ ولكن ما أهمية ذلك الآن؟ ألا يمكن لرأسي أن تكف عن العمل قليلاً؟ ألا أستطيع أن أنام حتى يأتوا ويأخذوني من هنا؟

• • •

قال لي نشأت إن «المصدر» سيقابلني في الهيلتون بعد صلاة العصر، لطيف أن هذا المحامي القبطي يستخدم مواقيت الصلاة بدل الساعة! مقهى الهيلتون الخاوي. في الخارج شارع مقفر يؤدي إلى جسر أم درمان الخاوي أيضًا. هنا يلتقي النيل الأبيض بالنيل الأزرق، ويمكنك أن ترى النيل الأزرق بمائه النبي الهادر وهو يلتقي بالمياه الهادئة الشفافة للنيل الأبيض ويختلطان ببطء. هذا هو الشيء الوحيد الذي أحبه في الخرطوم: النيل القوي المناسب في جلال غير أبه بخرائب المدينة الممتدة على ضفافه. لا شيء في الشارع أو على الجسر سوى بعض السيارات والحافلات المفككة، وأناس لا تعرف أن كانوا جالسين أم يسكعون أم نسوا ليم أتوا. الزجاج السميك للمقهى يحجب الحرارة الفائقة في الشارع، ويعزل الصوت وهبات الغبار التي لا تنقطع. لا يبقى بالمكان سوى صوت الأحاديث الخافتة للرواد الأوربيين وبعض السودانيين الجالسين معهم. أزيز عجلات عربات الحقائق في مدخل الفندق. صوت إشارة توقف المصاعد. وصوت ماكينة الإسبرسو الوحيدة في الخرطوم. رنت إشارة المصعد مرة أخرى وخرج منه رجل في أواخر الثلاثينيات يحث الخلفى نحوي كأنه

يعرفني من قبل. ملامحه غير مصرية: لحيته كستانية ناعمة، شديدة التهذيب والأناقة، وعيناه خضراوان، شعره وشاربه متسقان مع طول لحيته. تجاهلته ظنًا مني أنه أحد الأوربيين الذين يمثلون المكان في هذه الساعة لتناول الغداء، فاقترب مني وعد يده مصافحًا:

— أحمد بيه كمال؟

جلس وطلب لنفسه قهوة إسبرسو بينما طلبت أنا قهوة سادة. كان يتحدث ببطء وبيعض من التردد وتنخلل الكلمات الإنجليزية حديثه. كنت مستغربيًا هذا المصري الخواجة، وعندما سألته إن كان مقيمًا في الخرطوم ابتسم وصمت لحظة ثم أخبرني أنه يعمل مع شركة بترول أمريكية وأنه أتى إلى الخرطوم للتفاوض حول بدء الشركة لنشاط هنا وسياسفر بعد يومين.

— ماكتش أعرف إن شركات البترول الأمريكية يشتغل في السودان!

— يعني، من الباطن، وفيه مفاوضات للبدء لو العقوبات خفت. حضرتك من الأمن؟

— أنا الفنصل.

— عارف، أنا قصدي إنت من الأمن ولا من الخارجية؟

— هو حضرتك عاوز إيه بالضبط؟

— الحقيقة إني أعرف الدكتور نشأت من زمان، من أيام الجامعة. أنا كنت طالب في كلية الحقوق وهو درس لي أول ما رجعت من



فرنسا. الكلام ده كان سنة ١٩٧٧ وكنت أنا له خارج من المعتقل بعد مظاهرات بنابر.

ثم أردف ضاحكا:

- يعني تقدر تلاقي ملفي عندكم. د. نشأت كان كله آمال وأحلام وأنا كان كلي إحباط. كنت خارج من المعتقل في حالة يرثى لها: كل آمالي اتحطمت. مش بس ثقتي في النظام، ولكن أيضا ثقتي في نفسي وفي المجتمع اللي عايش فيه وفي فائدة الحياة نفسها. إيه الفائدة إنك تعيش إذا كانت حياتك وكرامتك مهددة طول الوقت؟ ده مش كلام مظاهرات، أنا باتكلم بجد. إزاي تعيش وإنت عارف إن في أي لحظة ممكن الباب يفتح عليك وييجي ناس يعمطوا بكرامتك الأرض؟ طبعا حضرتك مش ممكن تحس الإحساس ده باعتبارك من اللي يعمطوا مش اللي يستر مطوا.

- أنا ماباشتشغلش في مباحث أمن الدولة، إذا كان ده الهدف من تلقيح الكلام.

- أنا ما بالقحش كلام، الظاهر حضرتك مش فاهم! إحنا هنا مش في مصر، وما فيش حاجة تجربني أكلمك، ولو عايز أقوم أضربك دلوقة مافيش عساكر حتنده عليهم يحطوني في الحجز ويوضبوني!

قلت في برود:

- أنا عارف.

بدا الأخر منه عشا قليلًا من رد فعلى. تردد لحظة ثم أردف:

- المهم، وقتها كان فاضلي سنة وأخلص الكلية وكنت مرتب أموري على الهجرة لأمريكا. الدكتور نشأت حاول يقنعي أقعد في مصر واشتغل في المكتب اللي كان ناوي يفتحه - مكتب للدفاع عن القضايا السياسية، زي ما انت عارف أكيد، قضايا الحريات وسجناء الرأي وخلافه. اعتذرت وسافرت واشتغلت في الشركة اللي أنا فيها دلوقت. دارت الأيام واتقابلنا صدقه امبارح في مؤتمر حقوق الإنسان اللي منظما الأمم المتحدة هنا. صدقة بحة، أنا كنت رابع أقابل واحد صديقي من أيام زمان. واحد صحفي.

- أشرف فهمي؟

- الله، ده حضرتك فعلا مش أمن دولة، ده انت مخابرات!

ابتسمت ولم أجب. كانت التعليمات أن ننفي دائما، حتى لو كنت على ثقة أن من يكلمني يعرف، وأنه يعرف أنني أعرف أنه يعرف. ولكن مزاجي لم يكن أمينا، فصمت.

- على العموم ده أفضل. أيوه أشرف فهمي، أنا كنت أعرفه من أيام مظاهرات ١٩٧٧، كان قابل مجموعة من المعتقلين ونشر عنا سلسلة تحقيقات عملت ضجة وقتها، وفضلنا على اتصال بعد كده لفترة. المهم، أكمل الحكاية لأن الوقت بيعدي وأنا لازم أمشي. أنا أحوالي استقرت في أمريكا، حتى جواز السفر المصري لما انتهى ما حاولتش تجديده. اتجوزت أمريكية مسلمة من أصل تونسي وجينا طفلين وعشت حياتي في هدوء بعيد عن مصر. مابقتاش أمريكان ١٠٠٪،

إحنا طبعًا لينا تقاليد مختلفة، لكن الحياة في أمريكا رغم اختلافها عن تقاليدنا كانت أنسب لنا عن الحياة في مصر اللي المفروض ان تقاليدنا نابعة منها. لكن بعد ما جينا أول طفل بدأ احتكاكنا يزيد ببقية العرب، أقصد الأمريكيين من أصل عربي يعني.

- إسمعني؟

- لأن نمط الحياة في أمريكا يغلب على كل الناس بغض النظر عن أصلهم، زي ما تكون مكتة ضخمة يتبع الداخل فيها وتفرمه وتخرجه في قالب معين. جوه القالب ده ممكن تكون مسلم أو يهودي أو هندوسي أو أي حاجة، لكن القالب غالب زي ما يقولوا. علشان كده حسينا - بعد الخلفة - باحتياجنا للتعرف على عرب ومسلمين تانيين، علشان الأولاد. كأننا بنستمد القوة من بعض علشان نفضل متشبثين بأخلاقنا وهديتنا.

صمت الأخ ونظر عبر الطاولة لمجموعة من الشباب دخلوا لتوهم:

- غريبة البلد دي!

- بقي لك كتير هنا؟

- شهر. المهم، الموضوع بدأ بزيارات عائلية، دعوات على العشاء أو للشاي حسب الظروف. ويعدين عددنا بدأ يزيد بحيث بقت البيوت تضيق علينا، وده بدأ يعمل مشاكل لأنك بتضطر تعزم ناس وتجاهل ناس. وفي مرة، كان أول رمضان، اكتشف أحد الأصدقاء

«مركز الحي»، وهو مكان ممكن أي حد من سكان المنطقة يستخدمه في المناسبات اللي تهم عدد من السكان، وبما إن عدد كبير منا كان ساكن في نفس المنطقة، طلب الصديق ده من إدارة المركز يسمحوا لنا نعمل إفطار هناك، وطبعًا إخواننا الأمريكيان بحسن نيتهم وافقوا. ومع الوقت تحول المركز إلى مكان للقاءنا، وبدأ المزيد من العرب والمسلمين يعزلوا وييجوا في المنطقة، في نفس الوقت اللي بدأ فيه الأمريكيان غير المسلمين يعزلوا خارج الحي. وفي خلال عشر سنوات تحولت المنطقة إلى حي إسلامي، منطقة محررة على رأي أحد الجيران.

- ماكانش فيه مصريين مسيحيين؟

- كان فيه في الأول، كانوا حتى ييجوا يفطروا معنا في رمضان، ويعدين مع الوقت بدأت الحساسيات تظهر، وبعد الحساسيات جت الخناقات، وبدأوا يقللوا من الزيارات، ويعدين عزلوا من المنطقة واحد ورا الثاني.

جاء السفرجي أخيرًا بالقهوة. تناولت الفنجان ورشفت منه. نظر محدثي بعيدًا، عبر الزجاج. كان الأسى ياديا على وجهه، أكثر قليلًا من الأسى، كان خجلًا مما يحكي. ولكن لماقا يحكي لي كل هذه القصة؟

- الأمور اتغيرت مع الوقت، الناس بقت مش طايقة بعضها، وبدأ الكلام يحتد، وبدأ البعض يقول على الأمريكيان كفر، ويعدين الحكاية شدت أكثر والجو بقى مش ولا بد. أنا طول عمري متدين، لآ أكثر

من متدين شوية، تقدر تقول ان طول عمري شايف ان الإسلام هو الحل، ولما دخلت المعتقل كان ده السبب. لكن تجربة المعتقل خلّنتي حساس قوي من ناحية احترام حرية الناس. كل واحد حر، اللي عايز يأمن واللي عايز ما يأمنش. وجودي في أمريكا كان مريحني من الناحية دي: هنا كل واحد حر. المهم، بدأت الأمور تشد وبقيت مش عاجب الباقين لأنهم شايفيني متأمرك زيادة. أخذت جنب وفضلت أشارك من بعيد: رمضان والعيد وكده، لغاية ما حصل اللي حصل.

رشف الأخ لأول مرة من قهونه ونظر للشارع مرة أخرى وكأنه يراجع نفسه. هل يتكلم أم يترجع؟ هذه هي اللحظة الحاسمة في اللقاء مع أي مصدر: إما كسبه وإما خسره. ولكنني ظللت صامتا، لم تكن لي رغبة في العمل هذا الصباح. ليتحدث إذا شاء وليصمت إذا شاء. حرية.

- الموضوع بدأ السنة اللي فاتت. إبني الكبير - عنده ١٧ سنة - دخل في اللون معاهم. نفس الأعراض المعروفة: بدل ما يصلي في البيت بدأ يروح يصلي في المركز الإسلامي، قاطع البنات اللي معاه في المدرسة، إلخ. يعني بعد ما كان يناقشني ليه ما يناش مع صاحبه زي بقية الولاد بقي يناقشني ليه باشتغل في شركة أمريكية كافرة؟

صمت ثانية وأخذ نفسا عميقا، كأنما ليستجمع شجاعته كلها:

- المهم، علشان أختصر، أنا وصلت الخرطوم من شهر والمشروع اللي أنا باتباعه حايستمر ست شهور، وكان المفروض العائلة تحصّلني

على أساس يقضوا فترة الأجازة الدراسية معايا. هم وصلوا من ثلاثة أيام، وبالصدفة، مراني لقت في شنطة الولد حاجة غريبة. باختصار كده، قوالب من مادة غريبة زي الشمع ملفوفة بعناية وأوراق يبدو أنها دليل لصنع وتشغيل عيوات ناسفة. قالتلى. أنا طبعا اتجننت. المهم مسكت الواد وماستوش غير لما طلّع اللي في بطنه. هم فاكرني إيه؟ حاسبيهم يضيعوه؟ على آخر الليل، وبعد العياط وخلافه، قاللي كل حاجه. دي ياسيدي «أمانة» لازم يسلمها لبعض الإخوة في الخرطوم. هم اللي بيتصلوا بيه، وهو مايعرفش لا كنه الأمانة ولا الغاية من نقلها. قوللي انت أعمل إيه؟

كان ينظر إليّ ويتنظر الرد، وكانت تعبيرات وجهه شديدة الإخلاص. الآن أدركت أنني وقعت في الخطأ الذي أقع فيه عادة: أتعاطف مع مصدري. كم مرة تعاطفت مع المصدر وحاولت مساعدته؟ برغم التدريب وبرغم التعليمات. ولكن لماذا أؤنب نفسي؟ أنا لست جيمس بوند، وليس هناك جيمس بوند. كلنا بشر، بعيرونا وبعض ميزاتنا. الناس تعتقد أننا بلا أخطاء، وأن كل شيء معمول حسابه، ويبدو أن هذا تأثير الأفلام والمسلسلات: محمود ياسين يميل فجأة على فتاة عابرة في بار ويقبلها ليختبر من ضابط المخابرات الإسرائيلي، ثم يتضح أن البنت تعمل معنا! سلوى خطاب تقابل رافت الهيجان في حفلة وفي نفس الليلة تقابله امرأة أخرى في المنزل لتحذره من ليلى فريدمان ويتضح أن الجميع يعمل لحسابنا! الأخ ما زال ينظر إليّ. هزرت كفتي ولم أجب.

بلغ الأخ ريقه ورشف رشقة أخرى من قهوته ثم استطرد في شروء:

- أنا راجل عملي. المدام قعدت تعيط وتؤنب في الولد. وده كان له أثره على نفسيته وخلاّ مستعد يعمل أي حاجة علشان يهديها ويخرج من الورطة دي. أنا حطيت الحاجات المشومة دي قدامي وقعدت أفكر أعمل إيه. أرمي الحاجات دي في النيل وأقلل على الموضوع؟ طيب والناس اللي حايصلوا بيه هنا، نقول لهم إيه؟ الولد قال مش ممكن يرمي الحاجات لأنه أقسم لهم على المصحف بأنه «يسلم الأمانة إلى أهلها» وده بعد ما ماعرفش مين فيهم قال له إن خيانة الأمانة عقوبتها الموت. طيب أبلغ القنصلية الأمريكية؟ العقل والمنطق والواجب يقول إنني أبلغ. دي مش بس حياة ناس أبرياء المهدة، ده ابني نفسه. بس شيء داخلي كان بيمتعني من الإبلاغ، حتى لو أعطوا ابني حصانة مقابل تعاونه. معقولة أبلغ البوليس الأمريكي على أهلي وأبناء ديني؟ أنا أقف مع الأمريكان ضد أهلي؟ طيب وهم مين أهلي: اللي عايش وسطهم في أمان وفي حرية ولا اللي يهددوا حياتي أنا وابني؟ لو كانوا تجار مخدرات كنت بلغت، لكن دول معتقدين إنهم بيدافعوا عن الإسلام، يعني شبه الموقف اللي عشت فيه طول عمري. طيب أبلغ البوليس السوداني؟ بس دول معتدشم لا حقوق إنسان ولا ياتمة ارحميني وممكن يموتونا كلنا فيها. طيب أعمل إيه؟ لقيت إن الحل الوحيد هو إنني أسلم الأمانة بنفسي وأبلغهم إن الولد برة الموضوع وإن ده شيء مش ممكن يتكرر. كوني نقلت الأمانة

علامة على حسن نيتي وبالتالي رد فعلهم سيكون هادي. في نفس الوقت قررت أبلغ القنصلية المصرية. أنا عارف إن السفارات والقنصليات في العالم كله فيها ناس من الأمن، فاتصلت بالدكتور نشأت وسألته إن كان يعرف حد وقال لي عليك. كل اللي أتمناه إنك ما تطلعش من مباحث أمن الدولة، مش عايز أبقي بأعاون مع أمن الدولة على آخر الزمن.

- احشش.

- معضلة مش كده؟ بدأت حياتي.. لا، غيرت مجرى حياتي بسبب الأمن لأنني كنت إسلامي، والنهارده الآتي نفسي مضطر أبلغ الأمن عن جماعة إسلامية!

- طيب وليه مضطر، ما حتا ممكن لسه نلاقي حل؟

- لأن الأمانة وصلت بالفعل للجماعة، من ساعة.

هل هي ضجة الشارع تلك التي تملأ في رأسي أم هو ضغط الدم؟

- حضرتك بتقول إنك وصلت الحاجات؟

- ده كان الحل الوحيد أمامي علشان أحافظ على نفسي وعلى بيتي. إنت مانتكشورش الحالة الهستيرية اللي هم فيها. دول مش مصريين زينا كده واخدين الأمور على الهادي، ده فيه باكستانيين وهند وأفغان من اللي القتل عندهم أسهل من صباح الخير. نامس متريية على الدم وجاين من الحرب مع الروس إحساسهم ميت،

وياويله اللي بيان عليه شبه تسامح، يبقى باع الدين بالدنيا وغرته  
الحضارة المادية المنحلة.

- أيوه أيوه، والبلاوي دي مين اللي استلمها؟

- ده بقى شغلكم انتم، أمال انت هتا بتعمل إيه؟ ولا فالحين بس  
تتسطروا على الغلابة في مصر؟ على رأي عادل إمام، مش انتوا  
الحكومة وعارفين كل حاجة؟

- عادل إمام؟ حضرك بتنهز؟ نقلت متفجرات لإرهابيين وجاي  
تنهز؟

- اسمع ياحضرة الضابط، أنا كان ممكن ما اوركش وشي من أصله  
وأقول لك ده بالتليفون، وكان ممكن ماقولش حاجة خالص وأروح  
من حيث أتيت، قياريت تهذا كده وتخيلنا في المفيد.

- أيوه... وإيه بقى المفيد سيادتك؟

- أنا قررت أوصل الأمانة وفي المقابل أبغلك بالجهة اللي سلمت  
لها الحاجة - بدون ذكر أشخاص بالاسم، وفي المقابل نكتب لي تعهد  
إنه لو حصل حاجة ابني هيكون شاهد في القضية.  
- أكيبك.

- بيني وبينك أنا ماعنديش ثقة في كلام الأمن بتاعنا، ماتأخذنيش  
أنا ماقصدهش حضرك أنا باتكلم عموماً، لكن الورقة ممكن تفيد قدام  
المحاكم الأمريكية لو المسألة وصلت لكده.

- قلت لك حاكيبك الورقة فمافيش داعي للكلام الزيادة  
والغلط.

أمسكت ورقة وكتبته له المضمون بالإنجليزية بسرعة وأعطيتها  
له. قرأها بتمعن ودسها في جيبه وهم واقفاً وهو يقول بصوت  
خفيض:

- التسليم كان لشيوخ الجامع الكبير في أم درمان، الباقي بقه شغلك  
انت.

عندما كان شبحه يتعمد سمعت ضجيجاً آت من الشارع. كانت  
الضجة غير عادية، كأن هناك خناقة في الخارج. ذهبت ناحية الباب  
وفتحته لأرى ما يحدث. في نفس اللحظة التي انفجر فيها كل  
شيء.

• • •

اتصلت أمي من أسبوط هذا الصباح وتبادلنا الحديث لعدة  
نصف ساعة. تبادلنا الحديث ليس وصفاً دقيقاً لما حدث، فباستثناء  
بعض الهمهمات وكلمات التعجب والموافقة - حسب الحالة - من  
جانبي، قامت أمي ببقية المجهود. اشتكت قليلاً من صحتها وتقلب  
الضغط وفشل الأطباء في علاجها وحاجتها للمشي يومياً لعدة  
ساعة وأصررت على أن تدهور صحتها لا يمنعها من القيام بأعمال  
المنزل بنفسها وأنها لن تقبل بأن تدخل خادمة للمنزل على آخر  
الزمن، ثم اشتكت من أخي سليمان ومن زوجته التي هي سبب كل  
المشاكل في أسبوط - بما في ذلك موجة الحر الحالية - وسألني

كيف تكون الأحلام مبصرة والواقع أعمى؟ كيف أرى في الحلم وأشعر، بينما أفقد الرؤية والشعور عندما أستيقظ؟ كم من الوقت مر منذ الانفجار؟ هل بدأ عمال الإنقاذ في البحث تحت الأنقاض؟ لا بد وأنهم بدأوا، فقد مر وقت طويل منذ الانفجار. أتذكر الرجل الصعيدي الذي قضى ثلاثة أيام تحت أنقاض عمارة مصر الجديدة التي انهارت في الزلزال، والشاب المتزوج من إيطالية، كم قضى من الوقت؟ لا أذكر. أحدهما قال إنه كان يشرب من بوله ليقى حياء، كان ذلك هو الإيطالي فيما أذكر. ليس الإيطالي، المتزوج من إيطالية، يجب أن أحاول التركيز. ماذا كنا يفعلان؟ لكنني لا أشعر بالعطش، ولا بالجوع. لقد تناولت إفطاري قبل انفجار القنصلية بساعة واحدة، ربما لم يمر وقت كاف، ولكنني أشعر أن دهرا قد مر. لا أشعر بجسمي على الإطلاق. هل أنا في غيبوبة؟ وهل يكون المرء واعيا هكذا في الغيبوبة؟ ربما، من يدري؟ النائم يعتقد أنه واع حتى يستيقظ، قد يكون ذلك نوع آخر من الأحلام. هاهي الأفكار المعضة تعود من جديد. لا بد وأنني فاقد الوعي، أو على الأقل مصاب لدرجة فقدت معها الإحساس. ربما يترجم كل الجوع والعطش والألم إلى هذا الصداق الرهيب في رأسي. عمري ما شعرت بصداق مماثل. ربما هناك سحابة أيضا تغيم على بصري، رأيت ذلك في فيلم قديم. الله يلعن أيو الأفلام دلوكت، ماذا بوسعي أن أفعل؟ أصرخ مثلا أو أحاول تحريك جسمي.

لا فائدة.

عن عملي، وقالت لي قبل أن تتيح لي فرصة الرد أن سليمان يعمل كثيرا منذ نقله إلى مكتب سكرتير عام المحافظة ويتعرض لمضايقات من أعضاء الحزب لأنه لا يريد مشاركتهم في الفساد، وسألتني إن كنت أستطيع مساعدته والتوسط له، وعندما قلت إنني لا أعرف أحدا في المحافظة سألتني لماذا لا أحصل على شقة في أسبوط مثل بقية البشر، مبدية تعجيبها من عدم استطاعتي الحصول على أي فائدة من عملي المرموق، ثم اشتكت من أن زوجة أخي تبدد أمواله وتاكل الفاكهة من التلاجة قبل أن يتمكن أطفالها من تذوقها، وأنها تخشى من أن يؤدي إصرافها لعدم تمكن سليمان من استكمال بناء المنزل الذي ألقى أساساته في قطعة الأرض التي اشتراها في مدخل أسبوط من مجلس المدينة. كما أوصتني أمي أن أذهب أكثر من ذلك لزيارة أختي وزوجها في المهندسين وأن أهتم بها وبأولادها أكثر من ذلك. وختمت المكالمة بسؤالي عما إذا كان هناك شيئا جديدا في الأفق (تعني مشروع زواج). وصمت لحظة كانت فرصتي الوحيدة للحديث فقلت إنني لا أريد الزواج مرة أخرى، وإنني تعدت الخمسين وهذا الموضوع قد انتهى بالنسبة لي، صمتت أمي لحظة ثم قالت إنني ما زلت أبدا شابا، وإنها تريد أن تري ذريتي قبل أن تموت، وإن سنة الحياة وشرع الله أن يتزوج الناس، وإنها لا تريد أن أنهى أيامي وحيدا، غمغمت بشيء لا أتذكره تحديدا، ووضعت السماعة.

• • •

الظلام يسيطر على المكان كله. وما زلت لا أشعر بأي جزء من جسمي غير رأسي التي يشطرها الصلداق إلى نصفين.

الجو حار هذا الصباح وينذر بقيظ آت لا ريب فيه. فتحت باب الشرفة وخرجت أرقب النيل. ورد النيل يواصل انتشاره على سطح الماء. بعض التسمات تأتي من وقت لآخر من جهة المنيب وتعر أمامي. كل شيء ساكن هذا الصباح. علم السفارة الإسرائيلية يبدو واضحا من الشرفة، وأزواج من العشاق المبكرين احتلوا المصاطب الحجرية على الشاطئ أمام مطعم سويس إير. كنت أعمل في هذه الشقة في الأصل حين كنت أتولى متابعة أنشطة السفارة الإسرائيلية، فلما نقلت لمتابعة النشاط الإسلامي استطعت الاحتفاظ بالشقة خاصة وأنهم خفضوا العدد المخصص للنشاط الإسرائيلي ومن ثم أصبحت الشقتان الأخريان المططتان على كوبري الجامعة كافيتين. طول عمري أحب النيل، وكان نفسي أسكن في شقة تطل عليه لكن تبدد هذا الحلم مع تغير أحوال الدنيا، فاكثفت بالعمل في شقة تطل على النيل. زمان، قبل الحرب، حين كنت أعمل في الاستطلاع، كانت الكتيبة قرب البحيرات المرة وكنت سعيدا بهذا لأنها كانت تذكرني بالنيل. لكن المنظر هنا لم يعد مثلما كان: ورد النيل هذا يفسد عليّ متعتي، ربما لأنه يبعث الحركة على سطح النهر. ولا أفهم لماذا لا يقضون عليه ويريحوننا. كلما أزالوه من بقعة عاد وظهر في أخرى. دهشت عندما أخبرني أحد الإخوة السودانيين أن هذا النبات تتحول جذوره إلى خشب ويعوق الملاحة في أعالي النيل، وأن درجة صلابته تجعل عبور النهر سيرا على الأقدام ممكنا.

في كل صباح، من التاسعة للتاسعة والنصف، وأنا أتناول القهوة والسندوتش في الشرفة، أراقب عمال المسطحات المائية وهم

يزيلون الورد. عندما تراهم منهمكين مع هذا النبات الشيطاني الأخضر، تظن أنهم يعملون بهمة ونشاط. ولكني من متابعي اليومية لعملهم بدأت أشك فيهم. ماذا يفعلون بالضبط؟ في البداية يلقون بكابلات وبراميل حول مساحة من ورد النيل يدعوى حصاره، على أساس أن يزِيلوه من المنطقة المحصورة. الذي يحدث أن البراميل والكابلات لا تعوق انتشار الورد، وبعد أن يفرغوا من جمعه من المنطقة المحصورة، وهي عملية بطيئة جدا، يكون قد انتشر خارجها ومن ثم يبدأون من جديد. يفعلون ذلك كل يوم، وفي كل مرة يصلون لنفس النتيجة دون أن يبدو أن الفشل يؤثر عليهم. كأنهم آلات. في يوم بلغ بي الاستغراب حدا جعلني اتصل بأحد أصدقائي في شرطة المسطحات المائية أسأله عن هذه الظاهرة الغريبة. صديقي دهش من السؤال:

- انت ما تعرفش ولا إيه ياسيادة العميد؟

- لا والله ياسيادة المقدم، نورني!

- دي كلها مناظر، ورد إيه اللي حاشيله؟ هو إحنا قد ورد النيل؟

- اشمعني؟ أنا ماعرفش إن ورد النيل ده مسألة معقدة!

- لا يا فتد، ده مسألة معقدة جدا. ورد النيل ده بيظهر نتيجة عوامل كثيرة بتأثر على مياه النهر، والسيطرة على الورد تتطلب تنسيق بين كمية وهمية من الهيئات، مش إحنا بس، ده هيئة البحث العلمي، وبتوع الري والصرف، واللي ماسكين الخزانات والقناطر،

والملاحة النهرية، والضيافات التي بترمي، وغيره وغيره. ولازم، ده يعني لو عايزين بجدة، تحط خطة يلتزم بها كل اللي يتعاملوا مع مية النيل من السودان لغاية المصب، وطبعاً دعاغك يا باشا: لا فيه خطة ولا حد يقدر على التنسيق ده.

.. ويعدين؟

.. ولا قبلين يا باشا، إحنا بتطلع شوية عساكر، ووزارة الري بتبعت شوية عمال، يقعدوا يعملوا المناظر اللي بتشوفها سيادتكم، ونثبت في الدفاتر إننا صرفنا كذا واشغلنا قد كده، وأهواناسي بتستزق، ونعمل لنا منظر، وأدينا برضه بنلم شوية ورد، وسلامتك.

.. ما شاء الله!

.. آمال يا باشا؟ سعادتك فاكركنا زيكم؟ إحنا على قد حالنا. بس تؤمر سعادتك، لو فيه شوية ورد قدام العمارة مضايقين سيادتكم نبعت حد يشيلهم.

.. لا، ماناخذش في بالك، متشكر قوي.

.. تحت أمرك يا باشا.

في اليوم التالي لاحظت أن العمال تركوا المساحة التي كانوا يعملون فيها عند كازيتو صلاح الدين وجاءوا أمام عمارتنا يلعبوا الورود. كان يسألني «سعادتك فاكركنا زيكم؟» ومن قال لك إننا لسنا مثلكم؟ من قال لك إننا لا نلزم ورد النيل لتغطية المناظر نحن أيضاً؟ وإننا على استعداد أن تأتي أمام بيتك ونلزم الورود إذا شئت؟

لا أدري كيف حدث هذا بالضبط، ولا من المسئول عنه. هناك

أشياء تحدث لك فجأة ولكنك مع ذلك لا تفاجأ بها بل وتشعر أنك كنت تعرف منذ زمن أنها ستحدث. منذ تلك المحادثة التليفونية وأنا متوقف عن العمل، لا أستطيع أن أعمل. أصل في الصباح إلى الشقة، وأخرج إلى الشرفة لأشرب القهوة وأتناول الإفطار ثم أظل أرقب ورد النيل حتى الثانية ظهراً دون أن أفعل شيئاً. في الحقيقة أنني توقفت عن فعل أي شيء ذي معنى منذ فترة طويلة، طويلة جداً، ولكن الأمور تطورت هذه المرة وصرت لا أعبأ حتى بالتظاهر بالعمل، أو بالعمل من أجل تغطية المناظر وسد الخانات. توقفت. كان كلمة صديقي المقدم جاءت على الجرح، كأنه نكأ في نفسي جرحاً كنت أظنه قد انقلم منذ زمن بعيد، ويبدو أنه لم يتدمل. عند أول تذكيرة، انداح الدم من جديد وارتفع ضغط دمي وعاد الصداق يشطر رأسي.



كنتا في الفراش، في ليلة رأس السنة. وأنا معك المزاج كعادتي منذ عودتي من الجبهة الشهر الماضي. أشعر بما تشعر به سلمى وأخشى اللحظة التي ستحدثني فيها عن ذلك. كنتا في الفراش وكنت أرى تلك اللحظة قادمة. التفتت بي سلمى فتعلمت وابتعدت عنها بوحدة أو أقل قليلاً، فقط ما يكفي لإنهاء التلامس بين جسدنا. اقتربت هي ووضعت رأسها فوق صدري فداعبت شعرها بيدي ورَبَّت على ظهرها، اقتربت أكثر ووضعت ساقها اليسرى فوق ساقَي الممددة فتشجعت ساقَي وتخشب في مكانها. لم أحرك ساقَي تحرجاً منها ولكنها شعرت بالموت الذي حل بالمشاعر فيها، تريتْ هنيهة ثم



سحبَت ساقها في مزيج من اليأس والحرص. احتفظت برأسها فوق صدري ولكن يدي كانت قد كفت عن مداعبة شعرها وسرحت هي بعيداً للحظات طالت كثيراً. حل جمود علينا وكانت الحركة المنطقية الباقية هي أن تسحب سلمي رأسها من فوق صدري وتبتعد قليلاً ثم تنقلب على جانبها الآخر وتسلم إلى نوم قلبي. لكنها ظلت هناك، على صدري، وبعيدة، وأنا متحجر في انتظار أن تبتعد وهي لا تبتعد.

- هو في إيه يا احمد؟

- مايفيش.

- من يوم ما رجعت من الجيش وانت بعيد كده ليه؟

....

- هو حصل حاجة انت مخيها عليه؟

- أبدا.

- انت خلاص مش عايزني؟

....

- فيه إيه يا حبيبي؟

.....

- انت حتى ما بتكلمش معايا، ولا مع حد من أصحابك، ولا حتى

مع أهلك، كل ده من ايه؟

....

- انت زعلان مني في حاجة؟

- أبدا.

- انت حصللك حاجة في الحرب؟ انت قلنلي إنك كنت في مركز

العمليات. الجرح بتاع ركبتيك مضايقتك؟

- لا مش مضايقتي ولا حاجة.

- تحب تشوف دكتور؟

- الدكتور قال إني سليم.

- آمال مالك مش طابقتي ليه؟ ده انت ما قربتيلش من يوم ما

رجعت؟

صمت، وظلت سلمي ملقبة برأسها على صدري وهي صامته وساهمة، تمسح بيدها على رأسي في رثابة:

- فاكّر قبل الحرب؟ فاكّر كلامك عن الأطفال وضحكك ومشروعات تغيير السكن ومامتك؟ ده حتى بعد المرحوم والدك ماكتش كده.

- الله يرحمه.

- احكي لي يا احمد، أنا مراتك، فيه إيه مضايقتك؟

- أنا راجع الجيش يوم السبت.

رفعت سلمي رأسها ونظرت إليّ في لوم:

- بسرعة كده؟

- أنا حارجع الوحدة تاني.

- الوحدة؟

- أيوه.

- إنت مش كنت في مركز القيادة في مصر؟

لم أرد، أبعدت يديها عن رأسي وقمت من جانبها. وإن صمت ثم انسحبت سلمي بجسمها وتقلبت على الجانب الآخر وسمعت صوتها المختوق يتمني لي نومًا هانئًا. أغلقت عيني وظللت جالسًا في الفراش يقظًا أنظر داخل مقبلي في الظلام.

• • •

هذا الصداق اللعين! أحقا ما أرى؟ وميض من النور يلوح من بعيد، أو كأن الظلمة تخفت فإظنها نورًا. لا، بل نور يدخل، ليس فتحة من الضوء بل نور كأنه ينسكب بعيدا ويسل في بطن بين أشياء مصمتة فيقلل الظلمة ثم تبدأ الأشياء تتخذ شكلًا. هل يزيحون الأنقاض من فوق؟ لا بد وأنهم يزيحون الأنقاض. النور يزيد وتبدأ أذني في سماع أصوات آتية من بعيد، لا أستطيع تمييز أي منها لكنها مهمة مهمة بعيدة. وأحاول أن أصرخ، لا فائدة، أحاول أن أحرك جسمي، لا شيء يتحرك سوى الألم في رأسي، أحاول مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، لا، لا أريد الموت هنا.

• • •

فتحت عيني وأنا انتفض من الفزع فوجدت وجه سارة لصق وجهي، مستسلمة لنوم عميق، وجمالها يملأ الغرفة. أحبها وهي نائمة، بعد أن تكون نوازع الشر فيها قد همدت. بريئة هي حين تنام، حين تتوقف المناقشات والمناورات وحين أستطيع أن أغفر لها علاقاتها العربية وأنايتها المفرطة وطموحها الذي لا يعرف الحدود، وحين أستطيع أن أغفر لنفسي حيي لها مع إدراكي لكل شرها. عندما أقول لها هذا تبسم في مكر وتقول ببساطة: ما انت عارف من الأول إني شريرة! معها حق، بل إن شرها هو سبب تعرفنا! فسارة خطأ آخر من أخطائي المهنية العديدة. فالمفروض أننا لا ندخل في علاقات حميمة مع الأفراد الذين نتابعهم، ولكن سارة كانت أقوى من ضميري الوظيفي، كما أنني والحق يقال لم أبذل أي مقاومة إزاءها. كان ذلك في الصيف، حيث كنت قد تسلمت لثوي مهام نائب مدير الإدارة وحدد لي رئيسي مهمة محددة وهي متابعة النشاط الإسلامي الأصولي في الأوساط الثقافية. ومن ضمن الشخصيات التي بدأت أتابعها الصحفي المشهور أشرف فهمي. كان أشرف في نفس عمري تقريبا، وكانت مكانته كصحفي مناهض للجماعات الإسلامية قد توطدت، والبعض يرشحه لوزارة الإعلام والبعض الآخر لرئاسة تحرير الأهرام. وأعرف من موقعي أن هذا مجرد كلام وأنه ليس مرشحًا لأي منصب. ولكن كان هناك كلام آخر عن صلات أشرف بالخارج، وهذا هو مبعث اهتمام الإدارة بنشاطه. دار الكلام عن علاقات بأجهزة حكومية أمريكية وفرنسية وإيرانية، بالإضافة لأحاديث عن تبادل معلومات مع جماعات للدفاع

عن حقوق الإنسان تعمل في السودان وباكستان وتمده بمعلومات عن النشاط الإسلامي هناك وعن الجماعات الإسلامية في مصر. وكان التوجيه الذي تلقينته محددا: (١) التحقق من صحة وجود هذه الاتصالات. (٢) معرفة كيف تمت. (٣) التعرف على مضمون هذه الاتصالات والاتجاه الذي تسير فيه.

لم أشعر بأي مودة تجاه أشرف، ربما بسبب نفوري من الصحفيين عامة، وربما حذري من الشخصيات المشهورة بنيلها، والتي يتضح عادة أنها تستغل شهرتها لتحقيق أهداف شخصية بعيدة كل البعد عن هذا النيل المصطنع. أشرف فهمي من عمري بالضبط. وقد بدأت المتابعة بتقصي ما كان يفعله هو في اللحظات الهامة من حياتي. عند وقوع النكسة كان أشرف طالبا في السنة الثانية بكلية الإعلام، وذلك حين كنت أنا في السنة الأولى بالفنية العسكرية. في فترة ما بين الحربين، حين كنت أنا أعرض حياتي للموت يوميا على خطوط التماس مع العدو، كان هو يتلصق في الدراسة لكي يتفادى التخرج والتجنيد، وكان قد بدأ يكتب في إحدى المجلات الأسبوعية، وتقدم بسرعة واحتل مكانة مرموقة فيها وفي نفس الوقت كان يرسل مرة أو مرتين كل عام دراسي حتى يؤجل تخرجه لحين «إزالة آثار العدوان». في الوقت الذي كنت أقوم فيه أنا بدوريات استطلاع خلف خطوط العدو بشكل شبه يومي، وكنت أرى الموت فيه حتى اعتدت على وقوعه وأصبح جزءا من حياتي، كان هو يتمشى مع حييته على الكورنيش ويكتب في المجلة الأسبوعية، ثم تخرج في مايو ١٩٧٢، ويبدو أنهم قرروا إنجازه بالعافية وتم تجنيده في أكتوبر من نفس

العام، في إدارة الشؤون المعنوية، أي في القاهرة حيث استمر يواصل حياته العادية. في الوقت الذي كان قد تم نقلي - بعد إصابتي برصاصة في رجلي - لهيئة العمليات للمشاركة في وضع الخطة التي طلبت من الهيئة آنذاك. وفي حين كنت ملازمًا صغيرًا عليه الالتزام بالأقدمية واحترام الرتب العالية مهما كان كلامها غريبًا، كان أشرف يفتح فاه على وسعه في المجلة. في الحرب كنا في مكان واحد: في القاهرة، أنا في مركز العمليات ١٠ وهو في إدارة الشؤون المعنوية. الطريف أن دخوله القوات المسلحة، حتى وإن كان رغم إرادته، حتى وإن تم متأخرًا جدًا عن دفعته، حتى وإن كان في إدارة الشؤون المعنوية، قد فتح له آفاقًا جديدة، وصارت أيام الحرب وذكراياتها إحدى أحداثه الأثيرة بعد ذلك.

ثم انطلق. كان صغيرًا في السن، ولكنه كان من المهارة بحيث انتزع منصب مدير التحرير في مجلته الأسبوعية. التقينا مرة عام ١٩٧٧، بعد نقلي للمخابرات العامة بعامين تقريبًا. كنت أعمل بإدارة إسرائيل حين أعلن الرئيس السادات استعداده للذهاب للقدس. عندئذ أقبل أشرف فهمي من منصبه بالمجلة بعد نشره مقالًا يتدد فيه بمبادرة السادات، أذكر ذلك جيدًا لأنني وقتها أعددت تقريرًا عن ردود الفعل الشعبية للمبادرة - كان الرئيس قد طلبه - ووضعت فيه هذه المقالة ولكن رئيسي حذفها على أساس أنه «ما شتمك إلا من بلفك». ولكن بعدها علم الرئيس بالمقال وغضب لشرها وتمت إقالة أشرف فهمي، ولكن أشاع أشرف أنه استقال احتجاجًا على زيارة الرئيس للقدس. ثم عاد أشرف فهمي رئيسًا لتحرير نفس

المجلة بعد خمسة أعوام قضى معظمها يعمل في صحيفة عربية في لندن. وحين نقلت أنا من إدارة إسرائيل لمتابعة النشاط الإسلامي، عدنا سوياً وأنا وهو لتعمل في نفس الموضوع: أنا أعمل في صمت وتحت القيود الإدارية والوظيفية والرئاسية، وهو يعمل الدنيا كلاماً ويفرق الابتسامات ويعلق الأوسمة على صدره. له علاقات بمعظم الصحف ووسائل الإعلام العالمية، يعتقد أنه قد بدأها أثناء عمله في لندن. ظل نفوذه يتسع بعد عودته، ومع نجاح المجلة المتزايد أصبح ينظر إليه على أنه من أهم الكتاب ورجال الإعلام في مصر، ورشحته الشائعات لكل المناصب المرموقة. كان على وشك ترشيح نفسه نقيباً للصحفيين ثم تراجع، لكنه صديق مقرب للنقيب الحالي، ويعتقد أن له نفوذاً واسعاً في مجلس النقابة.

كانت نتيجة المتابعة المبدئية سالبة، أي أنه لا توجد مؤشرات على صحة ما يشاع عن اتصالات مشبوهة بالخارج. ومن ثم كان أمامي اختيار: إما أن أنهي المتابعة باعتبار أن الأمر لا يستحق، وإما أن أكتشفها بحثاً وراء اتصالات ممنوعة في السرية. وقد اخترت الحل الثاني، لا شيء إلا لأنني كنت أريد أن أتأكد من إحساسي تجاهه، أن أصغه: إما أنه مدعي أو مخلص فعلاً. رفعت إذاً درجة المتابعة، وتم اختراق منزله ومكتبه وكل تليفوناته وبريده وفاكساته إلى آخره. وهنا دخلت سارة في الصورة، وكان ذلك حدثاً ساراً لي أنا. اختلجت عضلات وجهها برهة، فتحت عينيها ونظرت إليّ. ابتسمت وأغلقت عينيها مرة أخرى واستدارت فلم أعد أرى وجهها.

سارة في أول الأربعينيات وتعمل صحفية في المجلة، وكان السيد أشرف فهمي رئيس التحرير قد نولها بالرعاية بعد أن تلقى توصية عليها من شخص مهم. ولم يقصر الأستاذ أشرف في حق الصحفية، بل ربما توصى بها زيادة. ظهرت سارة لأول مرة في الصورة على التليفون في حديث خاص مع أشرف، ثم رصدها رجالي وأجهزة التنصت في شقته بالمنيل عدة مرات خلال شهر أكتوبر من العام الماضي. ومع دخول الشتاء صارت زياراتها له منتظمة. تحررت قليلاً عن سارة وبدأت أتابعها بنفسي. لم تكن مجرد امرأة طموحة، وإنما كانت مجنونة، جنوناً فعلياً. فهي تبدو قادرة على فعل أي شيء في أي وقت وفي أي مكان، ولا تخلو من روح شريرة تكاد تدفعها دفئاً إلى إحراج الناس أو صدمهم. فهي قادرة على البذاءة لدرجة مخجلة، ولكنها لم تكن بذينة، بل تلجأ إلى ذلك عندما تشعر بأن الذي يحدثها يبالغ في اصطناع الأدب فتعاقبه بإغراقه في أسفل الأنفاظ. قادرة على حياكة أشر المؤامرات دون أن تكون بالضرورة شريرة، بل كرد فعل، أو لأن شخصاً لا يعجبها، أو لأنها ملت من الرتبة دون أن تجني فائدة محددة. أليس ذلك هو الشر بعينه؟ وكانت سارة تعيش مع أهلها في الكويت حيث استقروا هناك منذ زمن، وفي يوم من الأيام أخذت جواز سفرها وعادت إلى مصر، هكذا.

لفتت سارة نظري منذ ظهرت في تقارير المتابعة اليومية. كانت تجسد كل ما ليس فيّ، كل الممنوع والمستحيل والمجنون، وكانت لعمري عينها ومشتبها بصيغاتي بالتوتر. وبدأت أركز على متابعتها هي أكثر من تركيزي على أشرف. وبالرغم من إدراكي منذ البداية

أني أنخطئ حدود مهام الوظيفة فإني لم أتوقف. لم يكن في نيتي أي شيء من قبيل الاتهامات الموجهة لصالح نصر، فقد فقدت اهتمامي بالنساء منذ الحرب، ولا كانت طبيعة سلطاتي أو نظام العمل في الجهاز تسمح لي بذلك حتى إن أردت. كل ما كنت أفعله كان في إطار النظام والقانون والعرف، بل ويبدو منطقياً لأي شخص قد يخطر له مراجعة عملي. فقد اتخذت من متابعة سارة حجر الأساس في متابعة أشرف فهمي واتصالاته المزعومة بالخارج، لكن نيتي لم تكن متابعة هذه الاتصالات، بل متابعة سارة نفسها.

كانت سارة تقطن في شقة في الحي السابع بمدينة نصر. تأتي بسيارتها الـ ١٢٨ البيضاء للمجلة كل صباح وتظل تعمل في المجلة وتجري بعض المكالمات التليفونية حتى الظهيرة ثم تبدأ في الحركة بعد ذلك. تخرج في مقابلات ومواعيد، أكثرها غامض، ولا تنتهي من ذلك قبل السادسة مساءً. بعد ذلك إما تعود لمنزلها - وهذا نادر الحدوث - أو تذهب للنقابة أو لمنزل أشرف. لم يكن يبدو عليه أنه يحبها، هذا إذا اعتبرنا الإخلاص معياراً للحب. الأستاذ أشرف كانت له علاقات نسائية أخرى عديدة. كانت هناك امرأتان على الأقل تظهران طوال الوقت: أستاذة بالجامعة الأمريكية وطبيبة أطفال - متزوجة. وكانت هناك سيدات أخريات تظهرن من وقت لآخر. في نفس الوقت، كانت سارة صديقة مقربة لإحدى قيادات العمل الإسلامي، داليا الشناوي، ويدت لي هذه الصداقة غريبة جداً، فلا شيء يجمع هاتين المرأتين اللتين تجسدان تقيضين كامليين، ولا مصلحة مشتركة بينهما أو فائدة ترجوها أي منهما من وراء هذه

الصداقة. ولكني لم أتمكن من وضع يدي على أي بعد سياسي لها، فتركت الأمور عند هذا الحد.

لم تكن كتابات سارة ذات اتجاه سياسي محدد، ولم تكن تعرض لموضوع الجماعات الأصولية أو ما شابه ذلك. بل تكتب في موضوعات اجتماعية عامة: قضايا الفساد، التقصير الإداري من جانب أجهزة الدولة، المشاكل القانونية الخاصة بالمرأة والزواج والطلاق... إلخ. ولكن الذي يميزها عن بقية الصحفيات هو شخصيتها: ذلك المزيج من الثورة والشر، من الإخلاص الطيب التلقائي والانتهازية المطلقة. كانت سارة تثير المتاعب في النقابة وفي المجلة وفي الأماكن التي ترتادها، بما فيها الأماكن العامة والفنادق. وكانت شبكة علاقاتها تنسج، ويوماً بعد يوم وجدت أن تقارير المتابعة تضم أسماء جديدة وكبيرة: كانت تلتقي مع رجال أعمال وأساتذة جامعة كبار ورؤساء مجالس إدارات وقضاة ومستولين بالأمن ومحافظين ووزراء وسفراء أجانب... إلخ. ومع هذا الاتساع بدأت سارة تدخل في دائرة لا أستطيع متابعتها فيها دون تصريح رسمي مباشر من قبل رؤسائي، ولم يكن ذلك مبرراً، فالمتابعة تخص أشرف بالأساس ومتابعة سارة لا تشكل سوى أحد جوانبها. وكنت أعلم ذلك جيداً فلم أحاول طلب مثل هذا التصريح. وهكذا، في صباح يوم من الأيام قررت أن أشرف فهمي بريء من التهم المنسوبة إليه وأنه لا علاقة له لا بالسودان ولا بباكستان، وأن اتصالاته مع بعض مواطني ومنظمات البلدان الأجنبية هي اتصالات عادية لصحفي كبير، ومن ثم أنهيت المتابعة وأغلقت الموضوع على ذلك.

بعد أسبوع من وقف المتابعة جاءت سارة. كنت جالسًا أتناول طعام الغداء في فندق شبرد حين انفتح الباب ودخلت منه سارة. جالت بعينها في المطعم حتى التقت بعيني ثم توجهت ناحيتي وهي تنظر إليّ، صحبت مقعدًا وجلست دون كلمة واحدة. نظرت إليها واستمررت في تناول طعامي دون أن أتكلم أنا أيضًا. قالت في هدوء:

..ويعدين؟

نظرت إليها في استفهام ولم أرد، واصلت تناول طعامي.

..يقالك أسبوع مختفي يعني؟

..أفندم؟

نظرت إليّ طويلًا ثم ابتسمت. أشارت للجرسون فجاء. قالت ببساطة:

..هات الغدا بتاعي هنا.

وكان هذا أول لقاء بيننا.

خرجت من الفندق ورأسي تغلي. لم يكن «الأخ الأمريكي» قد ترك لي أي خيط مفيد للعثور على المجموعة التي تخطط للتفجير أو التفجيرات، ولم أكن أعلم كم من الوقت سيمر قبل أن يقع مثل هذا التفجير. وهل سيقع في الخرطوم أم في مكان آخر؟ وما هي نوعية هذه المتفجرات؟ وكيف ستستخدم في عبوة، سيارة، أم ماذا؟ ذهبت إلى ما أسماه «المصدر» الجامع الكبير في أم درمان، فوجدت أن هناك

مسجدين بهذا الاسم، وليس هناك شيخ واحد لأي من المسجدين بل يتناوب عليه مجموعة من المشايخ. وحاولت من خلال الاتصال ببعض «المصادر» أن أتقصي ما إذا كان هناك نشاط غير عادي في أي من جوامع أم درمان فلم أصل إلى شيء. في الأفلام الأمريكية، تحدث صدقة ما وتعطي البطل مفتاحًا للعثور على المتفجرات في الوقت المناسب: رقم تليفون في ورقة مكروشة، رقم سيارة مدون على كارت يعثر عليه في جيب القبتيل، أي شيء. لكنني لست في فيلم أمريكي، ولا أتوقع أن يحدث أي شيء من هذا القبيل لي. عدت إلى القنصلية وأغلقت على نفسي باب المكتب وجلست أفكر في خطة للعمل. أرسلت برقية عاجلة للقاهرة أطلب معلومات وتعليمات، ولكنني لم أتلق ردًا في هذا اليوم، وفي اليوم التالي تلقيت ردًا بأنهم يتحرون دقة هذه المعلومة. أين يتحرون بالضبط؟

بدأت في تنشيط شبكة مصادري وأعلنت حالة الطوارئ. ينبغي العثور على هذه المتفجرات. لم أخطر جهات الأمن السودانية المختصة لأنني لا أثق في ولانها، هل أنقل المعلومة إذا لضابط المخابرات بالسفارة الأمريكية لينقلها لواشنطن ويحرى الأمر؟ ولكنني أعلم علم اليقين أنه لن يعير كلامي اهتمامًا وإذا فعل فإن واشنطن لن تفعل. لو جاءتهم المعلومة من المستول عن المخابرات الإسرائيلية لتحركوا على الفور. كنت أعرف أن هناك مندوبًا للجهاز الإسرائيلي بالخرطوم يعمل من خلال قنصلية أوروبية، وقد حاول التعرف إلي من قبل ولم أعره اهتمامًا. هل أنقل له المعلومة لينقلها بدوره للأمريكان؟ صدمت عندما مر ذلك الخاطر برأسي. هل جئت

يا أحمد يا كمال؟ هل ينتهي بي الأمر إلى التعاون مع المخابرات الإسرائيلية؟ أنا؟ الذي ما زلت أحمل رصاصة إسرائيلية داخل ركبتي؟ هل تغيرت الأمور للدرجة التي تجعل مصالحنا تلتقي لهذا الحد؟ تذكرت الأخ الذي قابلته هذا الصباح والذي كان حزينا لتعامله مع جهاز أمني بعد هذه السنوات من معاداة أجهزة الأمن. زمن غريب ولا ريب. لكنني لن أتعاون مع المخابرات الإسرائيلية حتى لو انفجرت الخرطوم بأسرها.

السباق مع الزمن، مع المجهول برعته، والخطر غير محدد ومن ثم أكبر. ولكن ماذا لو كان هذا الرجل كاذبا أو مجنوناً؟ اتصلت بالذكور نشأت فأكد لي أنه شخص مخلص وعاقِل ويعتمد عليه. وأنه غادر الخرطوم. اتصلت بعدد من الشخصيات المصرية المشاركة في مؤتمر حقوق الإنسان والمعروفين بصلاتهم بأوساط الإسلاميين وذكرت لهم أن هناك معلومات تفيد احتمال وقوع "شيء ما" في الأيام القليلة القادمة وأن ذلك سيضر بمكانة مصر وبسمعها... إلخ، ولكنهم كانوا واسعي الابتسامات طويلي اللحي ولا شيء أكثر من ذلك.

ولا كلمة واحدة.

أخطرت السفير، وقام هو من جانبه برفع حالة الطوارئ في مباني السفارة كلها، ولكنني كنت أعلم أكثر من أي شخص عدم جدوى ذلك. كانت مباني السفارة -بما فيها القنصلية- واقعة في أكبر شوارع الخرطوم، وبرغم حواجز الأمن السودانية فإنها كانت معرضة من كل

جانب، ولو شئت قطرة أن تفجرها لعلت دون عناء يذكر. ولكن ليس هناك دليل على أن المتفجرات موجهة لنا بالتحديد: قد يكون الهدف هو السفارة الأمريكية، أو مبنى للحكومة السودانية، أو تهريبها عبر الحدود. أبلغت السلطات السودانية بشكل عام أن لدينا ما يشير لقيام مجموعة مجهولة بتهريب متفجرات إلى داخل الخرطوم، وطلبت تشديد الحراسة على مباني السفارة وعلى الحدود مع مصر، وقد ابتسم ضابط الاتصال بالمخابرات السودانية وأنا أتحدث معه، وقال ساخراً: الحدود؟ كلها؟

طوال المساء، والليل، واليوم التالي، لم تجب أي معلومة أو إشارة ذات قيمة، ولم تجب أي معلومة من أي من مصادري المزعومة. وفي اليوم الثالث كنت جالسا في مكتبي منذ الصباح الباكر في انتظار ورود أي معلومة من القاهرة عندما سمعت ضجة غير عادية في الخارج، فتحت الباب فاتفجرت الأشياء في وجهي.

وجهي ينشطر ببطء. يفرق أحدهما في الألم كأن مطارق تدق في كل خلية منه. لا أعرف بالتحديد أن كان رأسي ما زال هناك أم أنه ذهب وترك هذا الألم الفادح مكانه. أين أقرص الأميجران؟ وأين النوم ينقلني من هذا الصداق اللعين!

وميض من النور يلوح من بعيد، أو كأن الظلمة تخفت فأظننها نوراً. لا، بل نور يدخل، ليس فتحة من الضوء بل نور كأنه ينسكب بعيدا ويتسلل في بطن بين أشياء مصمتة فيقلل الظلمة ثم تبدأ الأشياء تتخذ شكلا. هل يزيحون الأنقاض من فوق؟ لا بد وأنهم يزيحون

الأنقاض. النور يزيد وتبدأ أذني في سماع أصوات آتية من بعيد، لا أستطيع تمييز أي منها لكنها مهمة مهمة وبعيدة. أحاول أن أصرخ، لا فائدة، أحاول أن أحرك جسمي، لا شيء يتحرك سوى الألم في رأسي، أحاول مرة ثانية، وثالثة، وعاشرة، لا، لا أريد الموت هنا.

\* \* \*

منذ حادثتي صديقي المقدم في شرطة المسطحات المائية وأنا متوقف عن العمل. أتوجه لمكتبي كل صباح، أخرج للشرطة لتناول إفطاري والقهوة ثم أبدأ في قراءة الصحف. أدخل أحيانا لغرفة المكتب لكنني لا أعمل. أوصل قراءة الصحف والمجلات ثم أتحدث في التلفون، ثم أنام، ثم أصحو، ثم أعود للمنزل وأنتظر سارة. أنظف الشقة، أعد الطعام، وأحيانا أنزل لشراء بعض مستلزمات المنزل. أخرج على التلفزيون أو أقرأ في الروايات التي كدست سارة مكتبي بها، وأنتظر عودتها، وهي دائما تعود مبكرا أو متأخرا لا يهم، كانت دائما تعود. أحيانا تجدني نائما وتوقفني وأحيانا تنام هي الأخرى. كانت تقول إنها تحبني لأنني أذكرها بنيل الحلفاوي في مسلسل رافت الهجان، بسررتي ونظرة عيني وحدة صوتي، وكنت أبسم ولا أعلم أن كان ذلك مديحا أم ذما. ولم لا تذهيب لرؤية الأصل؟، أسأل متكهنا، «ومين قال لك إني ماعملتش كده؟»، ترد في شر. لم تكن علاقتنا جنسية: تبادلنا بعض القيل، وغالبا ما نحتضن بعضنا بعضا حتى نغفو، ولا شيء أكثر من ذلك. أحيانا كنا نتكلم وأحيانا لا نتكلم. لم يكن ذلك مهما. لم أكن أسألها من أين تأتي ولا

متى تأتي ولا متى أو أين تذهب، ولم تكن تسألني عن أي شيء. لا أدري كيف تطورت علاقتنا بهذا الشكل، ولكن هذا ما حدث. كل شيء حدث بينما من تلقاء نفسه، دون اتفاق. كان ما يحدث يحدث وهذا كل ما في الأمر. علاقتي بسارة هي الشيء الوحيد الذي لا يسبب لي إزعاجا، لا يتطلب مني الظاهر، كنت نفسي، دون إضافات، ولم تكن تطلب مني شيئا. من وقت لآخر كانت تجتاحني نوبات غير، نوبات امتلاك، ونوبات حب. كنت أحيانا أفكر في الزواج منها وفي الاستقرار، ولكن تلك النوبات كانت تمر بسلام، وكانت هي تساعدني على تمريرها.

امتد توقفي عن العمل ليشمل الأمور الشكلية من قبيل الرد على البريد والمذكرات وإرسال التقارير الدورية وخلافه، ومن ثم صار الأمر حديثا عاما في الجهاز. وبعد مرور شهر على هذا الوضع استدعاني أحد رؤساء رؤسائي وكان موضوع المقابلة هو توقفي عن العمل. أعطاني جزءا من تقرير كتبه أحد رؤسائي عن أدائي في العمل، ورد فيه أنني غير منضبط، لا أؤدي المهام الموكلة إلي، وليس لدي حافز للعمل، وسلوكي الاجتماعي معيب، ويوصي بإنهاء خدمتي بالجهاز. قرأته وأعدته لمحدثي ولم أعلق. سألتني عن سبب توقفي عن العمل فكانت ردودي غامضة ومقتضية. لم أقل له - وكنت أتوق لذلك - إن عملي لا فائدة منه، وإني مثل عمال المسطحات المائية الذين يتظاهرون بجمع ورد النيل، وإني مللت من التظاهر بالعمل ولا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. لم أقل شيئا من ذلك كله لأنني تربيت على روح الانضباط واحترام الرتب الأقدم، أو على الأقل



التظاهر بذلك. ومن ثم لم أقل شيئاً مما كان يدور برأسي - ويعلم الله ماذا كانت النتيجة لو كنت قد قلته - وبدلاً من ذلك كنت صموتاً ومقتضباً. وفي نهاية اللقاء ربت السيد رئيس رئيسي على كتفي وقال إنه يعرف تاريخي جيداً ويقدره، وأني تعبت وبحاجة لتغيير جو كامل ليخرجني من الحالة التي وصلت إليها. انصرفت، وبعدها بعشرة أيام صدر قرار بنقلي للعمل في الخرطوم.

- يا عيني على الأجازات مدفوعة الأجر!

كان هذا هو تعليقها الوحيد على خبر نقلي عندما قلته لها في التليفون، لكنها في ذات المساء عادت مبكرة للبيت وكانت حنونة أكثر من أي مرة رأيتها فيها، احتضنتني ووضعت رأسي في حجرها وظلت تربت على شعري. كنت أبكي في داخلي، كانت الدموع تنهمر داخلي لكن وجهي كان جافاً إلا من دموع تسربت من عيني سارة ووجهها ملتصق بوجهي. قضيت الليلة كلها ورأسي في حضنها، وعندما فتحت عيني في الصباح كان وجهها لصق وجهي وكانت نائمة ومغمضة العينين في هدوء يقيني. كانت نائمة وقد غابت نوازع الشر منها منذ الأس. نظرت إليها ولأول مرة اشتيتها، لأول مرة منذ اثنين وعشرين عاماً أشتي امرأة. لحظة واحدة من الشهوة، ثم خمدت.

نظرت في وجهها الصافي وتساءلت عما إذا كانت تريد أن تأتي معي، وكنت أعرف الإجابة مقدماً، وكنت أعرف أنها تسأل نفسها خلصة، وأنها تعرف الإجابة هي أيضاً، وأنا كلينا نعرف أننا نعرف.

عندما أغمضت عيني مرة أخرى كانت ملامح سارة لا تزال عالقة في أعلى جفني وعرفت أن ملامحها باقية معي.

عندما فتحت عيني كان الظلام قد عاد مرة أخرى واحتل كل شيء. هل كنت نائماً أم إني أنام الآن؟ وأين ذهب عمال الإنقاذ؟ هل من المعقول أن يمر كل هذا الوقت دون أن يرفعوا ركام هذه القنصلية اللعينة ويجدونني؟ هل يحتاج الأمر كل هذا الوقت؟ أم إن السلطات السودانية ما زالت غير واثقة من انفجارنا؟ ولماذا لا أسمع أي صوت، ولا حتى صوت سيارات الشرطة والإسعاف؟ أين ذهب الجميع؟ أو أين ذهبت أنا؟ أحاول تحريك أطرافتي مرة أخرى ولكن لا فائدة. كأن جسمي غير موجود، كأنني روح بلا بدن. لا شيء غير الظلام وهذا الصناع القاتل.



اتصل بي صديقي عمر فارس هذا الصباح لتأكيد موعدنا الأسبوعي لتناول العشاء. مرتت عليه في مكتبه في الثامنة مساء للذهاب إلى كبايجي أبو رامي بالمديح. لكنه لم يكن موجوداً. قالوا لي إنه ذهب لمقابلة النائب العام في اجتماع مهم. غريبة، لم يذكر لي عمر شيئاً عن ذلك هذا الصباح وليس من عادته التخلف عن المواعيد دون سابق إنذار. ثم أي اجتماع ذلك الذي يعقده النائب العام مع في المساء وهو يعمل في مكتبه طول اليوم؟ انتظرت حوالي نصف ساعة ثم ذهبت وحدي لأبي رامي. لم يحضر عمر ذلك المساء، ولم يظهر طيلة الأيام الثلاثة التالية، وقالوا لي إنه ذهب في مهمة خارج

القاهرة، واشغلت في بعض المسائل الروتينية بالمكتب فلم أبحث عنه في انتظار موعدنا الأسبوعي التالي. لكنه لم يأت في الأسبوع الذي تلاه، اتصلت به في المنزل فلم يرد، وفي المكتب قالوا لي إنه في مهمة. أين ذهب عمر فارس هكذا دون سابق إنذار؟



الصداع يكاد يفتك بي، أشعر أن رأسي تغلي وأن نصفها الأيمن سينشط. الجو في مركز القيادة مشحون. الخرائط معلقة على جدران متحركة، وأجهزة التليفون لا ينقطع رنينها. كبار الضباط وقادة الأسلحة خلعلوا طواقمهم وحلوا الأزرار العليا من السترات الميري، وبقينا نحن الضباط الصغار نحمل عبء النظام والالتزام والطواقي. لا أحد منا يعلم بالضبط ما الذي يحدث، لا على الجبهة ولا في مركز القيادة بالقاهرة، لكننا موقنون من أن هناك خطأ ما. خطأ ما في مكان ما يحدث ويكاد أن يودي بالحرب ويمصر كلها من خلقتنا. أين ذلك الخطأ بالضبط؟ هنا في الغرفة أم هناك على الجبهة أم في مكان آخر؟ أم في كل هذه الأماكن معا؟

أنظر لوجوه القادة المجتمعين حول الخرائط وإلى إشاراتهم العصبية واحتداد ملامح وجوههم. أحد القادة ينقر بأصابعه على المنضدة، قام وأشاح بيده وصاح وجمع أوراقه ومضى غاضبا إلى مكتبه مغادرا الاجتماع. ظل مساعد - النقيب رافت - جالسا لا يعرف ماذا يفعل: هل يمضي خلف قائده أم يواصل الاجتماع. لحظات ثم جاءه نداء القائد يستدعيه فجمع أوراقه ومضى وهو ينظر إليّ فيما

يشبه الاعتذار. توتر الجو أكثر برحيل النقيب رافت واشتدت حدة المناقشات بين القادة. بعد نصف ساعة كان اثنان آخران قد غادرا الاجتماع يلحقهما مساعدهما من صغار الضباط، وبعد ساعة أخرى كنت أجمع أوراقى أنا أيضا وأمضى خلف قائدى إلى مكتبنا. الصداع النصفي يهاجمني يوميا منذ بدأ القتال. خمسة أيام متتالية من الصداع النصفي، ولا الميجر أنيل ولا الأميجران ولا أكوام الأسيرين أفلحت في إزالته. ويعلم الله أن هذا الصداع يقعدني عن العمل في الأيام العادية، لكن لم تكن تلك أياما عادية، وكنت أعمل طوال اليوم وطوال الليل. في أول يومين كان كل شيء يسير على ما يرام، وكان تنفيذ العمليات يفوق المعدلات الموضوعة في المخطط، ولكن التوتر بين القادة بدأ في اليوم الثالث، وبلغ أشده بالأمس، ثم توقف القادة اليوم عن تبادل السلام وبدأ كل منهم يقود الحرب بمفرده. كان ما يحدث كارثة بكل المقاييس، وكان لي كل الحق في أن أصاب بصداع نصفي، بل بشلل نصفي.

كنا نحن - صغار الضباط - ما زلنا نتبادل الكلام، وأحيانا كان القادة يطلبون منا تبادل المعلومات بينما ليتفادوا الحديث المباشر، وكنا مستعدين لذلك، كنا مستعدين لأي شيء. فليس الأمر مجرد خطة عمليات أنفقنا في وضعها كل جهدنا ودننا وحياة البعض منا طوال سنوات الاستنزاف، وليس الأمر مجرد الانتقام لكرامة ضربت في حرب ١٩٦٧ ونحن ما زلنا طلبة بالفنية العسكرية، وليس الأمر مجرد استعادة لأرضنا وشرقنا ومكانتنا، ليس الأمر مجرد حرب تتعرض فيها أرواحنا وأرواح زملائنا وأهلنا للهلاك، ليس الأمر ذلك كله -

وذلك كثير- بل إن الحرب، هذه الحرب، هي تحدي لوجودنا كأمة، لقدرتنا أن نفعل شيئاً. هذه الحرب هي الاختبار الأخير لقدرتنا على أن نحلم بغد أفضل وأن نأمل وأن نواصل الحياة ونحن مقتنعون بقدرتنا على تحويل الحلم إلى حقيقة. الحرب - هذه الحرب، هذه الأيام، هذه الساعات، هذه الدقائق - ستحدد ما إذا كنا نستطيع أن نفعل شيئاً ذا قيمة، ما إذا كنا نستطيع أن نبني لنفسنا عالماً أفضل، ووطناً يكون لنا وليس علينا. إن كسبنا الحرب كسبنا حياتنا معها وعرفنا أن كل شيء ممكن مع العمل والتنظيم والأمل والصبر، وإن خسرتها علمنا ألا قائدة: أن هذا الوطن ليس وطيناً، ليس وطيناً. لم يكن ذلك كلاماً نقوله، فهو كلام أكبر من أن يقال، بل كان يمثل في نفوسنا في صمت ونحن واقفون نرغب قاداتنا يتشاجرون على خطوات تنفيذ الخطة التي وضعناها بدمنا. ولم تكن قادرين على الكلام، لم تكن قادرين على أن نفعل شيئاً ولا أن نغير شيئاً. كنا ضباطاً ملتزمين ومنضبطين ولدينا روح النظام واحترام الرؤساء. ومع ذلك فقد كانت تلك الحرب حربنا، حرب مستقبلنا نحن، وليست حرب الماضي.

اليوم ١٠ أكتوبر، والأمور على الجبهة بدأت في التعتد نتيجة الإشارات المتضاربة من القيادة. لم يكن هناك وقت نضيمه: كل دقيقة تمر تعرض المعركة كلها للخطر وهذه حرب حقيقية يموت فيها ناس وتطلق فيها المدافع وتداس فيها أجساد بالمدرعات وتنسف المواقع كل ثانية. كان يجب أن نفعل شيئاً أكثر من احتمال الصداق النصفى، قمصير البلد في أيدينا. ١٠ أكتوبر وقواتنا على الجبهة

جائزة وتحمل مواقعها طبقاً للخطة، ومعدلات تدمير قوات العدو تفوق أهداف الخطة بمراحل، والطريق مفتوح إلى قلب سيناء، وقواتنا تنتظر، ولا شيء يحدث. لا أوامر تخرج من مركز العمليات رقم ١٠، وأنا لا أفهم، والصداق يمزقني، والقوات الواقفة على الجبهة وحدها بلا عدو لا تفهم لماذا لا تصدر لها أوامر بالتحرك، وقائدي أنا لا يفهم. قبل لنا قرار سياسي، ثم قبل لنا قرار عسكري، ثم قبل لنا ما ينفعش، ثم قبل لنا مخاطرة. وكنا نحن الصغار الذين قضينا زهرة عمرنا تنمرغ في رمال الصحراء خلف خطوط العدو وتحت النار ومع الموت، نحن الذين حملنا روحنا فوق أيدينا، كنا نرى الخطأ بأعيننا. الخطأ ليس في القرار بأن نحرك القوات أو أن نقيها، فقد كانت هناك اعتبارات لا بد من أخذها في الحسبان في الحاليتين. لكن الخطأ الحقيقي يكمن في التضارب والعشوائية وعدم وجود طريقة عقلانية ومنظمة تقرر وفقاً لها. هناك شخص ما يقرر، ونحن لا نعرف بالتحديد كيف يتخذ قراره ولا بناء على أية معلومات ولا وفقاً لأي هدف. تحولت حياتنا فجأة إلى أداة تستخدم لغبر ما أخبرونا أنها تستخدم له. وكنا حائزين وخائفين وثائرين، لكننا لم نفعل شيئاً. كان الصداق يفتت رأسي وغطاً ما يحوم من حولي ويهدد حياتي كلها لكنني لم أفعل شيئاً لأنني كنت متضبطاً ولدي روح النظام.

• • •

مالت علي سارة وهمست:

- مسافر بكرة؟

نظرت إليها ولم أزد. هذه هي المرة الأولى التي نتحدث فيها عن رجولي منذ أخبرتها بقرار قلبي. نظرت إليها واجتاحني رغبة عارمة في البكاء. لكنني أعلم أنني لن أبكي، لأنني لا أبكي، لأن قنوات الدمع في عيني جفرت منذ أيام القنّاة والرمل اليومي، هذا ما قاله الطبيب على أية حال. شعرت بنفسني تخشع داخلي ولم أنبس. أمسكت بوجهها وضممتها إليّ وقبلتها. ظللنا متعانقين لفترة. انسحبت من بين ذراعي وبقيت أنا واقفاً أنظر إلى باب الشرفة الزجاجي والستارة المسدلة عليه ولا أفكر في أي شيء. ذهبت للمطبخ وبدأت تعد الشاي. صوت الماء المشاب من الصنبور يأتي إليّ، البراد يوضع على النار، وقرعة الأكواب الزجاجية وهي ترتطم بالأطباق وسارة تأخذها لتعد صينية الشاي. أستمع لهذه الأصوات وعيناي مبيتان على نقوش الستارة التي تغطي باب الشرفة: الضوء يأتي خافتاً من خلفها وأنا لا أفكر في شيء.

غدا سأرحل، سأذهب إلى الخرطوم وأغادر هذه البلاد التي عشت فيها وبها. غداً سأرحل إلى هذه البلاد الغريبة متظاهراً بالعمل من أجل الوطن. سأكتب تقارير وأرسلها، سأقابل أناشاً وأتابع مصادر وأبحث عن مصادر جديدة، سأجمع معلومات وأعد تقديرات للمواقف وأرسلها، وفي كل هذا لن أعبأ بالمعلومات ولا بالمصادر ولا بتقدير المواقف، كل ما سيعنيني هو استكمال الإجراءات، تسديد الخانات، تماماً مثل عمال المسطحات المائية: سألقي بالبراميل وأنظاها بجمع ورد النيل، ولنيمو الورد مثلما شأته له جذوره، وليتكاثر مثلما شاء له سرطانه، سأذهب غداً إلى السودان.

أنت سارة بالشاي وجلست أمامي، صامتة. لم أتخيل وداعاً في مثل هذا الصمت. لم يكن لدينا شيء نقوله. ماذا نقول: أنقول لماذا الرحيل، لماذا أرحل أنا ولماذا ترحل هي ولماذا العالم بهذه القسوة ولماذا الأشياء بهذا السود؟ لا، لا داعي لأسئلة تعرف إجاباتها، ونعرف ألا فائدة منها، وألا فائدة من المحاولة مرة أخرى، وألا فائدة من نوبات العاطفة والإخلاص والأمل.

- آدي حال الدنيا يا سارة.

ألم أجد شيئاً أفضل من ذلك لأقوله؟ قلتها وصمتت. رفعت رأسها إليّ مستفسرة ثم صمتت وهبطت عينها إلى صينية الشاي. ليتني أستطيع أن أبكي. ليتني أستطيع أن أشهق بالبكاء كطفل: أخرج ما في قلبي من حزن ومن حق، ولكنني لا أبكي. الضوء يخفت أكثر في الحجرة والصمت يثقل أكثر ويكاد يخنقنا. قامت، وسحبت حقيبة يدها الصغيرة التي تحوي بقية متعلقاتها. قبلتني على خدي وربت على كتفها ويدها. سحبت نفسها بسرعة من الشقة. خرجت وهي تبكي في صمت.



كنت جالساً على مكتبي أنظر للصحيفة عندما جاءني تقرير متابعة نشاط الدكتور داليا الشناوي عضو مجلس نقابة المحامين. وداليا الشناوي هذه من أنشط أقطاب الجماعات الأصولية في الأوساط القضائية، وقضايا الاحتساب التي ترفعها يومياً على خلق الله هي حديث الصحافة ومثار حقن المناوئين لهذه الجماعات. آخر هذه

القضايا تلك التي رفعتها على أشرف فهمي بعد أن كتب مقالاً يقول فيه إن الإسلام دين وليس دولة. وداليا الشناوي في أول الخمسينيات، جلابة، قصيرة، ليست ممثلة ولكنها ليست نحيفة، سوداء الشعر، محببة - طبعاً - وقوية الصوت والشخصية. من أصول اجتماعية عريقة، والدها طبيب شهير متوفى، ووالدتها تعيش وحدها في منزلها بجوار حديقة الأسماك بالزمالك. داليا متزوجة من جراح شهير، هادئ الطباع، من أصول ريفية بمسورة الحال، ليس له نشاط سياسي أو اجتماعي ملحوظ لكن عائلته كانت لها علاقات بالإخوان وغادرت مصر إلى السعودية في الستينيات، ليس له أصدقاء غير بعض الزملاء من الجراحين، حسن السلوك ودمت الأخلاق لكنه منطوي، يقضي معظم وقته في عيادته أو منتقلاً بين غرف العمليات في المستشفيات الكبرى، لديهما ولد وبنت ويعيشان في شقة كبيرة على النيل في العجوزة.

تقارير المتابعة الدورية توضح أنها تعيش في نظام صارم: تتوجه إلى مكتبها في تمام التاسعة صباحاً بعد أن تكون قد أوصلت الطفلين إلى المدرسة بنفسها، تظل تعمل في المكتب حتى الرابعة بعد الظهر بما قد يتخلله ذلك من ذهاب للمحكمة، تغادر المكتب في تمام الرابعة إلى المدرسة حيث تأخذ الطفلين إلى البيت وتظل هناك حتى السادسة. تترك الطفلين مع العريية وتوجه لرقابة المحامين - حيث تشغل منصباً هاماً في مجلس النقابة - وتظل هناك حتى الثامنة والنصف ثم تعود للمنزل في التاسعة ولا ترحه بعد ذلك أبداً. هذا النظام يتكرر يومياً فيما عدا الجمع والإجازات الرسمية حيث

تذهب مع زوجها والطفلين لزيارة أمها ثم يذهبون لنادي الجزيرة. أنتعجب من هذه الدقة وأتذكر أيام الجيش. حتى في الجيش كنا نأخذ إجازات نكسر فيها الروتين: كنا نذهب للسينما أحياناً، كنا نبرطع مع أصدقائنا أحياناً، كنا نخرج مع عائلاتنا في نزهة غير محددة المواعيد أحياناً، نجلس على المقاهي أو نذهب للنوادي بلا هدف، حياة يعني، لكن داليا الشناوي كانت كالساعة السويسرية، لا تحيد قيد أنملة عن مسارها.

وأهمية داليا الشناوي تكمن في نشاطها القضائي المكثف والمنظم. هذا الدور لا يقتصر على قضايا الاحتساب التي قلبت بها الدنيا، وإنما يمتد ليشمل شبكة واسعة من الحماية القانونية والإعلامية توفرها داليا لكوادر الجماعات الأصولية. كانت تنسق مع مجموعة مترابطة من المحامين الشباب في القاهرة والأقاليم لتقديم المساندة القانونية للمقبوض عليهم من الجماعات منذ لحظة القبض وحتى نهاية المحاكمة. كما كانت تشرف على متابعة الإجراءات القانونية للقبض والتحقيق للتأكد من التزام الشرطة بالقواعد الخاصة بمدة الحبس الاحتياطي والتقديم للمحاكمة والتحقيق والمعاملة إلى آخره. من ناحية أخرى أنشأت شبكة ثانية من المحامين ترفع تقاريرها حول المخالفات التي ترصدها مجموعات المساندة القانونية إلى السلطات الحكومية وجمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان المصرية والأجنبية.

وداليا الشناوي تتقن بحكم تعليمها ليس فقط اللغتين الفرنسية

والإنجليزية وإنما لغة الحديث مع الغرب ومؤسساته الإعلامية، وقد كونت لنفسها شبكة قوية من العلاقات بمراسلي الصحف ووكالات الأنباء وشبكات التلفزيون الأجنبية بما شكل حماية شخصية لها من أي أذى. ومن أين يأتي المال اللازم لكل ذلك؟ من «أهل الخير». في الحالات الأخرى كان «أهل الخير» هؤلاء أغنياء من دول الخليج ومن مصادر أخرى مربية. ولكن داليا الشناوي كانت أذكى من أن توقع نفسها في هذه الشراك، فلم تكن تثقل مليئاً إلا من «أهل الخير» المصريين من المشايخ ورجال الأعمال وخلافه ممن يقدمون تبرعات رسمية وموثقة للمساعدة القانونية للفقراء، وبالطبع يقوم مكتبها بإعداد ميزانية دقيقة بأوجه صرف هذه الأموال. لقد وجدت نفسي في مواجهة مؤسسة وليست امرأة.

كانت مهمتي أن أضعها تحت السيطرة، لا أن أقضي عليها. وهناك فارق رئيسي بين الأمرين. السيطرة تعني القدرة على ضبط نشاطها ووضع حدود له، ومن ثم يمكن كبحه عند اللزوم والاستفادة منه عند اللزوم. إيقاف نشاطها تماماً لا يفيد، لأنه لا بد من وجود حلقة وصل نستطيع من خلالها التعامل مع عناصر الجماعات المتطرفة، ووجود أناس مثل داليا الشناوي يمكننا من ذلك بدلاً من أن ينفرد عقدهم تماماً ونجد أنفسنا في مواجهة عنف طائش وعشوائي ومبشر لا نعلم من أين يأتي ولا متى ولا الحدود التي يمكن الوقوف عندها. وجود أشخاص مثل الدكتور يجمع لهذه الجماعات «أصحاب» يمكننا التفاهم معهم أو حتى ضربهم إذا تجاوزوا الحدود. أخطر شيء أن نجد أنفسنا في مواجهة ناس ليس لهم أصحاب. من مصلحتنا إذا

أن نترك مثل هذه الشخصيات تعمل وتتمو وتتوسع وتسيطر على العناصر التي نرصدها. ولكن في نفس الوقت يجب وضعهم تحت السيطرة وإلا أفلتت الأمور. وهذا هو معنى التعليمات الواردة لي: وضع داليا الشناوي تحت السيطرة. كيف أفعل ذلك؟

يجب العثور لها على ضعف ما، خطأ، شيء تخفيه ولا تستطيع مواجهة الناس به، فضيحة شخصية في الماضي أو الحاضر، شيء تريد ولا تستطيع تحقيقه دون معونة، إجراء أو معاملة خارج إطار القانون أساومها بها، أي شيء يوقعها تحت التهديد. لكن يجب ألا الاقترب منها بود وبحذر، وإنشاء علاقة عادية وبريئة في البداية. يمكن مثلاً تقديم بعض المساعدات العابرة والعادية لها، ابتداء من تسهيل الوصول لمعاملتها المقبوض عليهم والمرحّلين من سجن لآخر وانتهاء بالخدمات الشخصية البسيطة كتجديد رخصة السيارة، المساعدة في نقل ابنتها للمدرسة الفرنسية، تعطيل الهاتف وإصلاحه، ألف باء علاقات التعاون والخدمات. كل ذلك يهدف لخلق اتصال شخصي بريء ومحور صورة البيع اللصيقة بضابط المخابرات.

حاولت الاتصال بها إلا أن رد فعلها كان سلبياً. أنا بالقطع لم أتصل بها لأقول شيئاً من قبيل: ما رأيك في أن عملي كمخبرة في الأمن القومي. كل ما فعلته هو إظهار حسن النية في بعض المواقف، بعض المجاملات البسيطة والتي تخبرها بأن هناك من يهتم بها ويحسن العلاقات معها. ومعظم الناس تستجيب لهذه الإشارات

البسيطة خاصة وأنها بعيدة عن السياسة. جددت لها رخصة السيارة قبل موعدها وأرسلتها لها مع بطاقة تحية تحمل اسم العميد أحمد كمال، لا شيء أكثر من ذلك، ولكنها أعادت لي الرخصة في اليوم التالي ممزقة نصفين! محاولاتي التالية والهادفة لكسر الجمود وخلق تفاهم شخصي أو حتى اتصال إنساني كان نصيبها الفشل. صعدت المستوى وبدأت أحاول أن أسدي لها خدمات في المحاكم وفي مصلحة السجون لتسهيل عمل محاميها دون الإخلال بقواعد الأمن، لكن رد فعلها كان أعنف. كانت صلبة لا تلين.

جئت بتاريخ حياتها محاولاً العثور على ثغرة أنفذ منها: أي شيء في حياتها السابقة، في حياة والديها أو أي من أقرانها، أي شيء، لا فائدة. داليا الشناوي كانت دائماً كالساعة. وحيدة أبويها، ولدت عام ١٩٤٩ والتحقّت بمدرسة فرنسية للبنات بالقاهرة وظلت بها حتى حصلت على الثانوية العامة والتحقّت بكلية الحقوق وتخرجت من الكلية عام ١٩٧٠ بتفوق باهر. رفضت التعيين كمعيدة وسافرت إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراه في القانون المدني وحصلت عليها في زمن قياسي وعادت لمصر عام ١٩٧٧ بعد أن تزوجت بطبيب مصري كان يعد الدكتوراه في باريس في نفس الفترة. تقارير الأمن تشير إلى سلوك اجتماعي محافظ منذ أيام الجامعة وبعض النشاط السياسي في اتحاد الطلاب وقتها، ولكنها لم تتحجب إلا في باريس، أمها غير محببة. زوجها متدين لكنه غير متخبط في العمل السياسي، على الرغم من أن بعض أفراد عائلته من الإخوان الذين تركوا مصر في الستينيات. بدأت العمل في مكتب أحد كبار المحامين الذي قدمها

للأوساط السياسية الإسلامية. أثبتت قدراتها كمحامية سريعاً في قضايا صعبة، وبعد ثلاث سنوات فقط فتحت مكتبها الخاص لكن علاقتها باستاذها استمرت. زاد انخراطها في العمل السياسي باضطراب بعد ذلك. أنجبت بنتاً ثم ولد بعد عدة سنوات من عودتها. حياتها مع زوجها وأطفالها تبدو رتيبة ومحترمة وطبيعية. كنت أبحث عن ثغرة، ثغرة واحدة فقط، ولكن لا شيء.

كان الحل المتبقي هو أن أخلق الثغرة خلقاً أو أن أسلم وأعلن فشلي. ولسب أجهله ليومنا هذا قررت أن أعمل بجذ وأن أخلق هذه الثغرة. لا أدري لماذا تحمست فجأة للعمل، أنا الذي كنت قد قررت منذ زمن أنه لا فائدة ترجى من العمل وأن العمل المجاد غير ممكن أساساً وألا أمل هناك. لماذا عاودني الأمل مرة أخرى والإيمان بأنني أؤدي مهمة وطنية وأنا أخدم بلدي وأحميها؟ من أين أتى هذا الأمل أو هذا الوهم؟ هل هي طبيعتي الحالمة سرا والتي لا تريد أن تستسلم لليأس؟ أم هو غيظي من هذه السيدة التي تسيطر على نفسها وحياتها هذه السيطرة الكاملة والتي تكاد تفوق قدرة البشر؟ أم هي حمية ضابط الأمن وضميري المهني استيقظا فجأة ورفضاً للإهانة والفشل؟ أيا كانت الأسباب فقد وجدته مدفوعاً بحمية لم أعدها منذ زمن بعيد. قضيت أسبوعاً كاملاً أفكر في الخطة، وشهراً أجمع المعلومات المبدئية - منها تكليف مكتبتي في باريس بجمع معلومات تفصيلية عن حياة مجموعة الطلبة المصريين المبعوثين لباريس عام ١٩٧٠، وبعد قرابة الشهرين من ذلك اليوم صارت الخطة جاهزة للتنفيذ.

لقد وجدت الثغرة، واسمها د. نشأت غالب. وأصبحت جاهزاً  
للاتقاضي على داليا ووضعها تحت السيطرة. النجاح مضمون مائة  
في المائة. ضابط مخابرات حقيقي وليس ضابط من ورق. لكن لم  
تواتني الشجاعة أو القسوة اللازمة للاتقاضي.



ذهبت أمس لزيارة أختي بعد المكاملة الثالثة من أمي التي حشني  
على ذلك كيلا يظن زوج أختي أنها بلا أهل. جلست قليلاً أتصاحك  
مع أبنائها الأربعة الذين خرجوا بعد عشر دقائق للحاق بتدريب  
التنس والجودو والجمباز والسباحة بالنادي، ثم تناولنا الغداء وأنا  
صامت وحديث زوج أختي لا ينقطع عن الأحوال والبنك الذي  
يعمل فيه والقرارات الاقتصادية الأخيرة والحاجة لقانون بنوك جديد  
ثم التلميح لأن السياسة الحكومية تحكمها اعتبارات الأمن بدلا  
من الاعتبارات الاقتصادية والتأكيد على «احترام الأمن والقيادات  
الأمنية» ولكن هناك ضرورة لترك القرارات الاقتصادية والاستثمارية  
في يد الاقتصاديين»، وتدخلات أختي التي تحثنا على تناول الطعام  
بدلاً من تضييع الوقت في المناقشات. لم أكن أتناقش، كنت صامتاً.  
سردت أختي بعض أخبار العائلة وأسيوط وماما وصحتها وأخونا  
الكبير سليمان ومشاكله مع المحافظة ونواب الحزب والفساد الذي  
يقاومه، ثم تدخل زوج أختي مرة أخرى متحدثاً عن المشروع الذي  
يقم به في أسيوط بالاشتراك مع سليمان لتربية الأسماك بقرض من  
فرع البنك في أسيوط: «يا ريتك كنت تقدر تدخل شريك معانا يا  
أستاذ أحمد»، هزأت رأسي وأكملت الغداء في صمت.



كان الصيف يشتد حراً وورد النيل يتشر بكل قواه بطول المجرى،  
وأصبحت جهود عمال المسطحات المائية بينة الغيث. ويبدو أن  
شخصاً ما رأى أن الأمر تجاوز حده فأرسل قوة من شرطة المسطحات  
المائية للقيام بعملية تمشيط واسعة النطاق للنهر. وأنا جالس في  
الشرقة أقرب هذه العملية الكبيرة: قوارب ولشعات ومعدات تحدث  
ضجيجاً هائلاً وتتحرك بعرض النهر كله، تلقي بأشياء وتجمع أشياء  
أخرى. استمرت هذه العملية طوال الأسبوع، واستطاعت القوة  
المغيرة أن تقضي على الورد الطافي على سطح النيل، لكن الورد عاد  
لظهور مرة أخرى غداً رحيل القوة، وبعد عشرة أيام كان ورد النيل  
يملا المجرى مرة أخرى. وعاد عمال المسطحات المائية بيراميلهم  
للعمل اليومي المعتاد.

أمامي شهر ونصف على موعد السفر إلى الخرطوم، وبدأت  
أقرأ عن السودان بتمعن وعن هذه المدينة التي سأذهب لأقضي  
أربع سنوات من عمري فيها، وجعلت من هذه القراءة ومن كمية  
الإجراءات التي ينبغي على اتخاذها استعداداً للسفر ذريعة للتوقف  
النهائي عن التظاهر بالعمل. كان قرار نقلي مصحوباً بقرار تعيين زميل  
آخر للحلول محلي، منقولاً من إدارة مكافحة النشاط الشيوعي التي  
تقلص حجمها كثيراً في السنوات الأخيرة. ظهر زميلي في الشقة  
ولكنه اتخذ المكتب المجاور مقرّاً له انتظاراً لرحيلي. وبدأت أسلمه  
العمل شيئاً فشيئاً: الملفات، المصادر، التقارير، تقديرات المواقف،  
البود المعلقة، المتابعات، كل شيء عدا داليا الشناوي. وكنت أعلم  
أنه ستأتي لحظة وأعطيه الملف، وسيأتي لسانتي لماذا لم تكمل تنفيذ



الخطه عند مرحلتها الأخيرة، كانت هذه اللحظة آتية لا ريب فيها، وكنت أخشاهما وتتفصل معدتي من التفكير فيها، ولكن ما باليد حيلة. سيقوم هو بما كنت أؤجل القيام به لأسابيع طويلة.

• • •

أتى صديقي القديم «الغيب» وأفت لرؤيتي في القاهرة، وكانت لفحة شمس سيناء بادية على وجهه. جلسنا في مطعم صغير بأحد المراكب التي تم تثبيتها على شاطئ النيل. ابتسم وأفت وهو يحكي لي عن القرية السياحية التي أنشأها على الساحل الشرقي لسيناء بالقرب من دهب، ومركز الغطس الذي أضافه هذا العام، وتقلبات السياحة.

– والمصريين؟

– قليلين، يعني في الأعياد وأجازة نص السنة، وبينك وبينك أحسن لو ما يجوش. يبيجوا في الإجمال شهر في السنة، لكن السابح المصري معاه في المتوسط ثلاث أطفال، ويستهلك ضعف السابح الأجنبي ويهدم القرية بعد رحيله، كل حاجة بتتدمر: الغرف، المطعم، حتى الكراسي ياراجل، معرفش ازاي!

– والألمان؟

– الألمان دول هابيلين. يبيجوا أساسًا للغطس، لكن للأسف السياحة الألمانية متقلبة، يعني سنين آه وسنين لا، بس يبيجوا كأنهم مير مجين: الوصول، الأكل، الغطس، العودة للقرية، العشاء، سهرة

ودرنك، صحيان بدري، الغطس، وهكذا لغاية ما يمشوا، ولا عسكار الجيش.

– وأولاد العم؟

– أولاد العم دول قشقة، من غيرهم كنا قفلنا القرية من سنين.

– أنا مش عارف إزاي يارأفت بتعامل معاهم بالعادية دي!

– ليه لا؟ هو فيه إيه يا أحمد؟ حاربنا بعض كام مرة، كسبوا شوية وكسبنا شوية وخلص الموضوع، هو اخنا حانحطهم قدامنا ونقعد نعيط عليهم؟ ما هم بشر زينا.

– ما انا عارف إنهم بشر، بس ازاي قادر تنسى وتتجاوز النار اللي بينا وتعامل معاهم على إنهم سياح؟ لأوفين، فوق الأرض اللي كنا بنموت بعض عليها!

– أولًا مسألة النار دي مألش فيها، إنت راجل صعيدي وممكن تكمل في النار طول عمرك وعمر أولادك وأحفادك. أنا راجل بحراوي، خالتي وخالتك واتفرقوا الخالات. حانفضل نموت بعض عشان شوية رمل وصحرا لغاية ما نخلص اخنا وهم؟ طيب ما طلعوا من عندنا. يصطقلوا بقى هم والفلسطينيين، يتسموها ولا يولعوها هم أحرار. إيه يا أخي؟ إحتنا مش عندنا عيال نربيها وعيشة نعيشها؟

...

– وبعدين دول بشر برضه. إنت أصل احتكاكك بيهم كان في الحرب وبعد كده في المخابرات، يعني بتعامل مع نوعيه معينه

وفي سياق عدائي. أنا باتعامل مع الكل: العربي واليهودي، النبات والولاد، الشباب والعواجيز، اللي من أصل مصري وبيتكلم وبياكل ويتصرف زئي وزيك، واللي من أصل عراقي ولقى نفسه مترحل لإسرائيل غصب عنه، واللي من أصل لبناني وبيترجم على أيام بيروت، واللي عتصري ومش طايقتك، واللي فاكتر نفسه أوربي، واللي مولود في القدس وأجداده مولودين في القدس، واللي جاي امبارح من أمريكا ومتعصب أكثر من المولود في البلد، وهكذا. ده مولد ياعم وناس عندها مشاكل لا تقل عن المشاكل اللي عندنا، شعب كامل ومجتمع كامل.

- ما شاء الله يارافت، ماكتش أعرف اتك فاتح مركز دراسات اجتماعيه في دهب!

- أهو انت لما تترشق في الكلام تترق.

- يعني عايزني أقولك إيه، هو حد قالك إني فاكترهم مخلوقات فضائية؟ هو انا قتللك إنهم كلهم أعضاء في الكنيسة اللي ضربتي بالنار؟ ما انا عارف إنهم مجتمع وفيهم كل شكل وكل نوع وفيهم أطفال ورضع ونسوان! أنا مالي ومالهم؟ أنا باتتكلم علينا إحنا مش عليهم هم. هو احنا كنا بتحاربهم علشان فاكترين إن ماعندهم مش أطفال؟ هو احنا اللي رحنا لهم ولا هم اللي جم لنا؟ ما كنا قاعدين في حالنا! ده احنا علنا حياتنا كلها نعاني بسبب الناس دي وبسبب اللي عملوه! وبعدين بغض النظر عن السياسة والتاريخ، إنت شخصياً حياتك اتشككت بالحرب، كل شيء حصل فيها كان بسبب الحرب

مع إسرائيل، أنا بصراحة مش عارف ازاي انت قادر تتجاوز المسألة بالبساطة دي!

- طب اسمع، تعال اقعد لك عشرة أيام في القرية وقوللي رأيك إيه.

- والنبي بلاش تسخف موقفني للدرجة دي، أصل أنا عمري ماشفتهم ولما حقايلهم حافهم، مش كده؟

- ماقلتاش كده يا سيدى. بقولك إيه، مفيش داعي نمكنز على بعض، خلاص، أنا قادر أتجاوز العاصي وانت مش قادر، Fine، خليفها على كده.

- طيب اشرب الشاي يا خويا خليفنا نقوم نشوف أشغالنا.



بدأت الجلسة الافتتاحية لمؤتمر «الأمم المتحدة وحقوق الإنسان في العالم العربي» بكلمة ممثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية المنظم للمؤتمر، أعقبها كلمة مندوب الحكومة السودانية المضيفة، ثم الموافقة على جدول الأعمال، انتخاب سكرتارية المؤتمر ومكتبه التنفيذي، تكوين لجنة الصياغة إلى آخر ذلك من الإجراءات التي لا تعني في شيء. غادرت مقعدي في قاعة المؤتمر وذهبت لمواصلة الاتصال بأعضاء الوفود وبخاصة ممثلو النقابات والهيئات والجمعيات العاملة في مجال حقوق الإنسان، وكانت فرصة للقاء وجوه وأسماء قديمة. لكن سارة لم تأت. لم تقل إنها ستأتي ولكني

كنت أنتظرها. كان أشرف فهمي هناك، والدكتور نشأت غالب، والدكتورة داليا الشناوي (التي تجنبت النظر إليّ) وعدد آخر من الصحفيين والكتاب والمحامين والفقائيين من كافة الاتجاهات. كان المفروض أن أتابع تحركاتهم وأرصد اتصالاتهم بأعضاء بقية الوفود خصوصا وفود السودان والسعودية والجزائر وتونس وإيران وفود الدول الآسيوية. ولكن ذلك كان مستحيلا عمليا: كان يلزمني لتحقيقه جيش من معاونين ومن المعدات الفنية والمال، ولم يكن الجهاز قد أرسل أحدا ولم يكن لدي هنا الإمكانيات اللازمة. وليس من حل أمامي سوى التسكع في ردهات المؤتمر والعمل بالقطعة، زهرات. أرصد هذا بعض الوقت، أتحدث مع هذه بعض الوقت، أتحدث مع أقراني من ضباط الأجهزة الصديقة، ثم أكتب كل ذلك في ورقة وأرسله للقاهرة وكل عام وأنتم بخير، سدد الخانات يا سيادة العميد سدد.

أشرف أهم مصادري داخل المؤتمر، وكانت علاقتنا قد توطدت منذ الفترة التي كنت أتابع فيها نشاطه بالقاهرة. فبرغم نفوري منه إلا أنني تعاونت معه بشكل مكثف خلال العام الأخير من إقامتي بالقاهرة. أشرف حر الحركة واللسان، يملك من القوة ما يسمح له بقول ما يريد، ويستطيع بكل تأكيد أن يقول في الجرائد ما لا أستطيع أنا البوح به لصديق على الفهوة. ولكن كان عندنا أرضية مشتركة للتعاون، أسرب له بعض المعلومات التي تهمة، ويستغل بعضها في شن حملاته الصحفية وفي حماية نفسه، وفي المقابل كان يوافيني بالمعلومات المفيدة التي تصله. كنا نلتقي في أماكن

عامة. ووفقا للتعليمات، لم أكن أسلمه أبدا أوراقا مكتوبة اللهم إلا صورًا لوثائق تخص أحد الأهداف، ولم يكن يسلمني أبدا أوراقا مكتوبة. بالإضافة لذلك كنت أوفر له الحماية الأمنية، وبالفعل أحبطت محاولة لاغتياله ذات يوم، محاولة حقيقية لاغتياله اكتشفناها بالصدفة بعد القبض على مجموعة إرهابية في الصعيد تبين بالبحث في أوراقها أنها كانت تخطط لاغتيال عدد من الشخصيات من بينهم أشرف فهمي، ثم حاولت مجموعة أخرى اغتياله وقمت بالتدخل للقبض على المجموعة (ولكن تم قتلهم في تبادل لإطلاق النار وقع عند محاولة القبض عليهم من قبل الشرطة). تلك كانت علاقتنا: تعاون مهني دون مودة شخصية من أي من الجانبين. بل كنت أشعر أحيانا بنفوره مني ومن التعامل معي، وكأنه ينأى بنفسه عن التعاون مع الجهاز، وكأنه يأتي إليّ مكرها.

التقيت بأشرف على الغداء في قصر المؤتمرات، وتحدثنا في البداية على قبح قصر المؤتمرات وتصميمه ومفروشات، وعلى الناموس والذباب الذي يطير داخل القاعات، ثم انتقلنا للحديث عن المؤتمر والمشاركين فيه، ثم عن الحياة في الخرطوم: التراب والحر والمطر والرطوبة والصحف والحريات والمخابرات والسفارات والأمن، ثم كليتون ونيناهو وعرفات وغزة وحماس. ثم من حماس انتقلنا للتيار الإسلامي عامة، ثم شرح لي بالضغط خريطة التحالفات والصراعات بين المشاركين في المؤتمر من مصر وبين الوفود الهامة الأخرى. كان تحليله مقننا وثاقفا وعزمت على مقارنة معلوماته بمعلومات زملائي من السفارات الأخرى، ثم سأته:

- إنت ناوي تكتب الكلام ده؟

- طبعا لا.

ثم أردف مبتسما:

- تقدر تكتبه انت يا سيادة العميد.

نظرت إليه دون ابتسام ولم أعقب. وفي نهاية الغداء أصر على دفع الحساب.

- أصل فلوس المخايرات ولا مؤاخذه بتعمل لي حموضة.

قالها بنصف ابتسامة ثم ذهب. نظرت إليه وهو خارج من القاعة. بتعملك حموضة! لعنة الله عليك يا حضرة الصحفي الشريف! كان الدم يصعد إلى رأسي وبدأت نوبة الصداع النصفي في الهجوم. كانت هناك ضوضاء تأتي من الخارج. قمت وفتحت الباب لأرى ما يحدث، فانفجر كل شيء في وجهي.

• • •

سلمى تريد الإنجاب، وأنا لا أستطيع بعد الآن. قلت لها إنني لا أريد أطفالاً. ولم ترد. نظرت إلي وكأنها كانت تنتظر هذا الرد.

- أنا ماقدرش أخلف.

- ما انا لاحظت الحكاية دي.

- أفندم؟

- أنا آسفة.

- مافيش داعي للأسف، انتي معاكى حق.

- أحمد أرجوك، كفايه، اصحى بقى، فوق، ارجع أحمد جوزي

وحبيبي وصاحبى.

- عايزاني أعمل إيه؟

- أحمد، من فضلك، بص لي في عينيا وانت بتكلمني. أنا عايزاك،

مش مهم أي حاجة ثانية، لو فيه مشكلة نحاول نحلها، نشوف دكتور، فيه أدوية كتير واحنا مش أول زوجين نواجه مشاكل من النوع ده.

- قتلتك الدكتور قاللي إن ماعدنيش مشكلة عضوية.

- خلاص، مش مشكلة، أنا مش مهتمة بالموضوع ده، مش لازم.

خليلها كده لغاية ما تتحل لوحدها، أو إنشالله ما اتحلّت. أنا عايزاك إنت ترجع لي، إنت قافل على نفسك وباعدني عنك ليه؟ أنا عملت

إيه؟ ليه راميني كده؟

....

- رد عليّ، لو مش عايزتي قوللي.

....

- طيب حاول تقرب مني، فضفض شويه، افتح لي قلبك.

- مامنوش فائدة.

..ليه؟

....

..أحمد!

..سيبني دلو قتي من فضلك.

• • •

١٤ أكتوبر. اليوم هو الرابع من أيام الانتظار الطويل ومن الأوامر المتضاربة والتكهنات والتساؤلات والتوترات والضغط. صدرت الأوامر إلينا بتحريك القوات على الجبهة في اتجاه المضائق. كانت هذه الأوامر كارثة محققة، فات الوقت. ونحن تعلم ذلك، والتقارير الواردة من الجبهة تقول ذلك: العدو أعاد تنظيم قواته واتخذ قرارًا إستراتيجيًا بالدفاع عن المضائق وبنى قواته وتشكيلاته على هذا الأساس. أكدت التقارير الواردة من الجبهة أن عملية إعادة تنظيم قوات العدو تمت بالفعل .. أثناء انتظارنا الطويل على مدى الأيام الأربعة الماضية - وتقارير قادة الأسلحة تؤكد نفس المعنى، كما كان معظم القادة الموجودين في مركز العمليات مقتنعون بأن الوقت قد فات لمثل هذا التحرك. ولكن الخطأ، ذلك الخطأ المجهول الهوية الذي يسبح في مكان ما، ذلك الفيروس الغامض الذي ينخر في عظامنا، لا يزال نشطًا. وصدر الأمر بالفعل بالرغم من كل المعلومات التي لدينا، وصمتنا مرة أخرى، وابتلعنا غصة الحلق واحتملنا ضغط الدم الذي يرتفع في رؤوسنا ونفدنا الأوامر.

١٤ أكتوبر، أصدرنا الأوامر والتعليمات الخاصة بتحريك القوات شرقًا، وظللنا طول اليوم واجمين في غرفة العمليات نلقى الأنباء الكارثية الآتية من الجبهة. ظللنا نحصي قتلاتنا وجرحانا وأسرانا وخسائرنا في المعدات. كنا نقطع في لحمتنا بأيدينا ونزن اللحم المقطوع ودما ينزف على الميزان. الطائرات الإسرائيلية تحصدها باتنا الملتحمة في قتال مباشر مع الدبابات الإسرائيلية مدفع بمدفع ووجها لوجه دون غطاء جوي كافٍ. استمرت هذه المأساة حتى بعد الظهر عندما صدر الأمر الجديد بوقف التحرك وإنهاء العملية.

ما الذي يحدث بالضبط؟ من الذي يأخذ القرارات وبناء على ماذا؟ وماذا نفعل نحن هنا إذا كانت القرارات لا تحتاجنا ولا تحتاج إلى معلوماتنا ولا تقديرنا؟ لم يسألني أحد مجرد سؤال عن المعلومات التي لدي، أنا متاوب الاستطلاع الذي تصب لديه المعلومات الآتية من الجبهة ومن خلف خطوط العدو، تلك المعلومات التي يموت زملائي للحصول عليها، كيف لا يسأل عليها أحد؟ كيف يمكنني أن أبطل هذا وأظل حيًا؟ وأظل ضابطًا حقيقيًا؟ وأظل مستعدًا للتعرض حياتي للخطر على الجبهة من أجل معلومة أعلم مسبقًا أن أحدًا لا يكثر بها؟ كيف يمكنني بعد ذلك أن أعطي نفسي لهذا العمل؟

كانت نظراتنا كلنا تحمل هذه التساؤلات، وكان التوتر يزداد ويعلو في مركز العمليات وأصبحت العلاقات بين القادة أسوأ وكان كلاً منهم يريد أن يلقي بالتيعة على الآخر. جميعنا ضحايا ومذنبون، ولا نعرف ماذا نفعل. كان التقيب رأفت هو أول من اقترح أن نذهب

ونقابل الرئيس ونخبره بما يحدث. أليس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة؟ ومن أكثر منه تأهلاً لكي نخبره بهذه التفاصيل ولينحمل المسؤولية في هذه الأيام العصيبة؟ فكرة جذابة، لكن مخاطرها رهبة. كان ذلك في الحقيقة ضرباً من الجنون، وخرجاً على القانون العسكري ونحن في قلب المعركة. كيف ستخرج من مركز العمليات بدون تصريح؟ وأين نجد الرئيس؟ ثم ماذا لو اقضض أمرنا ولم نستطع مقابلته؟ ماذا لو أوقفنا الشرطة العسكرية في الطريق وليس معنا أوامر تحرك؟ سيتم القبض علينا فوراً ومحاكمتنا. لا، ليس بوسعنا المخاطرة بذلك.

في اليوم التالي كانت أنباء ثغرة الدفرسوار قد بدأت في الوصول للمركز، ومع بداية قصة الثغرة بدأت نهايتي كضابط، وربما نهايتي بشكل عام. كانت المعلومات ترد إليّ عن الثغرة وحدودها ونوعية وأعداد المعدات والأفراد الذين يتقنون للضفة الغربية للقناة وطبيعة العمليات التي تدور وتوقيتاتها، وكنا ننقل هذه المعلومات ليكية الأسلحة والقادة، ومرة أخرى بدأ أن الحرب تدور وحدها، دون أن يتحكم أحد في مسارها. برغم الثغرة واتساعها المتزايد، وبرغم الخطر المحدق بالجيش الثالث كله وبالبحر نفسها، بدت حركتنا بعيدة عن التخطيط العقلاني المدروس، وبدت القرارات متضاربة، وكأننا لا ننتج إستراتيجية موحدة. واستمعت إلى مناقشات أفجعتني: الآن؟ الآن نتناقش حول إستراتيجية الحرب؟ أليس الوقت متأخراً قليلاً على هذه المناقشات؟ ألم يتفق كبار القادة حول إستراتيجية الحرب قبل أن تبدأ؟ ثم ظهر الخلاف حول كيفية مواجهة الثغرة،

وكان هذا الخلاف في الرأي متأخراً أيضاً، بعد أن تحولت الثغرة إلى جرح يتزف.

١٧ أكتوبر، والتوتر يبلغ أقصاه في مركز العمليات وعلى الجبهة. على الإفطار همس في أذني أحد زملائي من صغار الضباط بأننا ستقابل بعد الإفطار لتفاهم سويًا. وبالفعل اجتمعنا كلنا وبدأ كل منا يطرح أفكاره حول سبل مواجهة الموقف المتدهور داخل المركز، وعادت فكرة الذهاب لمقابلة الرئيس مرة أخرى، كما طرحت أفكار أخرى أشد جتوتاً، وفي النهاية اتفقتنا على أن نفعل المستحيل: سوف نتخطى قادتنا والقوانين العسكرية ونذهب لمقابلة الرئيس شخصياً، وليكن ما يكون.

تحركنا ليلاً بعد هدوء المركز. غلد القادة للنوم وتولى صغار الضباط المناوبة. بقي من بقي لتسيير أمر المركز وخرجنا أربعة عشر ضابطاً في ثلاث سيارات جيب وتوجهنا لقصر الطاهرة حيث علم أحدنا من قريب له بالرئاسة أن الرئيس متواجد هناك. كنا معرضين للخطر طوال الطريق، فليس لدينا تعليمات تسمح بهذا التحرك وقد يتطور الأمر لو أوقفنا إحدى دوريات الشرطة العسكرية. لكننا وصلنا. وبعد التفاهم مع الحرس الجمهوري والبوابة قابلنا سكرتير الرئيس لكننا أصغرنا على إيقاظ الرئيس والحديث إليه. بعد حوالي نصف الساعة من الانتظار المتوتر دخل علينا الرئيس. كان بشوشاً واستقبلنا بملابس النوم. ظللنا نتحدث إليه ونقلنا له الصورة كاملة، كل التفاصيل، الوضع على الجبهة، التوترات في مركز القيادة،

المخاطر التي تحيق بمصير الحرب، التخطئ في القرارات، كل شيء. استمع الرئيس إلينا في هدوء وتركيز وهو يدخن غليونه ويستفسر عن بعض النقاط من وقت لآخر، وبعد حوالي الساعة شكرنا وطماننا وريت على أكتافنا وقال لنا ألا نكرر مثل هذه التصرفات الجنونية، وودعنا وعدنا لمركز العمليات. نجحت العملية. ومكثنا في المركز نترقب تدخل الرئيس.

لم أستطع النوم من شدة الإثارة، وفي الصباح ظللت أرقب وجوه القادة وأجهزة التليفون والأبواب بحثاً عن أثر لما تم، لكنني لم أرصد شيئاً غير عادي. مر النهار والمساء ولم ألاحظ شيئاً. ثم مر اليوم التالي والذي بعده ولم يحدث شيء، بل استمرت الأحوال في التدهور. ثم أتى الرئيس بنفسه.

أتى الرئيس لمركز العمليات، والتقى بالقادة مطولاً وعلى انفراد، وحسم الخلاف بينهم. لكن لم يتغير شيء. صحيح أن النزاع حول كيفية مواجهة الثغرة قد تم حسمه، لكن طريقة العمل التي أدت لحدوث الثغرة واستفحالها استمرت كما هي. ما زلنا في التوتر وغياب التنسيق والقرارات الارتجالية التي تعتمد على أشياء لم ولن أفهمها. كأن القرارات تأتي من القمر وليس من الخرائط والإشارات والمعلومات الواردة من الجبهة. كأن شخصاً ما يغمض عينه ثم يأخذ القرار وهو يدعو أن يكون القرار موفقاً وأن يمر بسلام. أحياناً يمر بسلام، وأحياناً تنكسر السماء على رؤوسنا، وهذه المرة، انكسرت السماء على رؤوسنا.

أنا الذي مت في الدفوسوار.

بعدها لم يعد أي شيء مثلاً كان. كل شيء فقد طعمه. مات الحلم وماتت القدرة وانتهت المعركة بالنسبة لي. يكتبون ما يكتبون، يقولون انتصرنا ويقولون انهزمتم، يفرحون ويستأذون ويستعدون ويعلقون ويحللون، كل ذلك أصبح غير ذي معنى، لم يعد يهمني. فقدت القدرة على الانفعال، على الحزن وعلى الفرح سواء. انفجر قلبي داخلي، ثم سكن الغبار، وانتهى الأمر.



مات عمر فارس في حادث سيارة. هذا ما نشرته الصحف وما ذكره لي زملاؤه في مكتب النائب العام. كان قد عاد للمكتب بعد إجازة بدون مرتب لمدة عام كامل. وكان مسافراً للمنصورة لسبب أجهله. سألتني زميله بالمكتب إن كان قد أعطاني أي أوراق قبل وفاته ووجدت السؤال غريباً. لماذا يعطيني أوراقاً؟ أي أوراق؟ قال الزميل إن هناك ملفاً كان يعمل عليه وإنه لم يجد الملف في المكتب أو في مكان الحادث. وجدت كلامه سخيفاً فحججته بنظرة أسكتته.

مات عمر فارس، الباقي من البقية القليلة. وحل علي صمت غريب منذ علمت الخبر وفي الجنازة وعند الدفن وفي العزاء. شددت على يد والده وأخيه وريت على كتف أخته ولم أنطق بكلمة. كان عمر أحد القليلين الذين كنت ما زلت قادراً على الحديث معهم، ويموته المبني تقلص عدد الكلمات التي أنطقها أكثر.



جلسة المؤتمر على وشك الانتهاء. كنت جالساً في القاعة أدون بعض الملاحظات في الورقة المفرودة أمامي كي أمتنع نفسي من النوم. وعندما انتهى المتحدث الأخير من خطبته الطويلة جمعت أوراقي وانطلقت خارجاً من القاعة. قابلت الدكتور نشأت وأشرف فهمي متهمكين في مناقشة حامية عند الباب قطعاًها عند ظهوري وأوماً إلي بتحية مجاملة فرددت التحية مسرعاً وأنا أمرق باتجاه جراج السيارات. السيارة واقفة بجوار باب الجراج. وضعت المفتاح في الباب وأدترته مرتين لمنع جرس الإنذار من الانطلاق ثم فتحت الباب ودلفت. انطلقت بها خارجاً من مبنى الفندق. مررت عبر الإشارة وانحرفت بالسيارة يساراً بلا هدف. ظللت أقود السيارة في ليل الخرطوم الصيفي الحار، بقايا قمامة متناثرة بجوار الأرصفة تعبت فيها فقطض ضائعة. مجموعات صغيرة من الرجال واقفة على جانب الطريق تحملق في المارة دون سبب واضح. لا امرأة واحدة في الشارع. متسولون يتسكعون في الشوارع أمام البنوك والمحلات الكبرى. الخرطوم ليلاً ولا شيء يوقظني سوى إشارات المرور. الصمت قابع على المباني الحكومية وكأنها أغلقت أبوابها للمرة الأخيرة. مقر الرئاسة المتهالك قابعا أمام النيل في صمت، يطل على الشوارع القفر المظلمة بنوافذه البريكانية التصميم وجندي الحرس الجمهوري الوحيد عند المدخل. اتجهت بالسيارة لشارع القنصلية وأنا أتذكر شارع الجامعة بالجيزة. فتح لي البوابة حارس الأمن وهو شبه نائم. أوقفت السيارة أمام سلم القنصلية ودخلت بسرعة من الباب. حارس الأمن الآخر نائم ولا ريب. دخلت مكثي، لا شيء.

ذهبت إلى غرفة الشفرة: لا شيء على الماكينة. القاهرة لم ترد على استفساراتي. لا معلومات لدي ولا شيء أستطيع فعله لإيقاف هذه المتفجرات التي تتجول في مكان ما في هذه المدينة.

في الصباح جاءني رد من السلطات السودانية: «ستقوم بتشديد إجراءات الأمن في المدينة، ونرجو من أعضاء البعثة الدبلوماسية المصرية اتباع أقصى درجات الحذر». ثم أرسلوا سيارة نصف نقل بها أربعة جنود وقفت أمام مبنى القنصلية (أين هم الآن؟ ماذا جرى لهم؟ هل أصيبوا أيضاً في الانفجار؟). هذا هو؟ هذا هو تشديد إجراءات الأمن؟ وما المقصود بالضبط باتباع أقصى درجات الحذر؟ ماذا يعني ذلك عملياً؟ هل أطلب مثلاً من حارس الأمن أن يفتش الداخلين؟ وهل سيوقف هذا اقتحام القنصلية مثلاً بسيارة محملة بالمتفجرات؟ هل سيوقف الجنود الأربعة هجوماً على مقر الرئاسة في آخر الشارع؟ أو على المطار أو على تفتيش الري المصري أو على سد الخرطوم الذي نسيب اسمه؟

أقراني في السفارات الأخرى والذين قد تتوفر لديهم معلومات أعلنوا إلا معلومات لديهم. لا خط، لا شيء. الأمن السوداني قال ألا معلومات لديه عن خطر، وابتسم المستول الأمني إبتسامة واسعة وربت على كتفي وقال «اطمئن يا أخي نحن نسيطر على الموقف تماماً». مصادري لا أعلم لها بشيء. مساجد أم درمان مساجد، وشيوخها شيوخ، ولا أعلم لي شيء عنهم أو مدخل لهم يفتح باباً. صليت في كل المساجد، وقابلت شيوخها كلهم، وحاولت البحث



عن أي غيبط أو عن مدخل بلا فائدة. ماذا يمكن أن أفعله وحدي؟  
أسك الشيوخ كلهم وأوجه إليهم مسدسي وأقول لهم أين تخبثون  
المتفجرات مثلاً؟

جالساً في مكتبي في ليل الخرطوم المطبق أفكر أين يمكن أن  
تكون المتفجرات الآن؟ وفيهم مستخدم وأين ومتى؟ ولماذا أصدق  
هذا المصدر؟ لماذا لا يكون قد اختلق هذه القصة؟ رغبة في الانتقام  
من جهاز أمني أذاه وهو صغير. أو لتوجيه انتباهنا بعيداً عن شيء آخر.  
أو حتى نوع من الدعاية السمجة. وما الدليل على صحة حديثه؟ لا  
شيء سوى أنني تعاطفت معه وصدقته، وهذا كلام غير مهني. الضوء  
المنبعث من الأباجرة قوي ويلقي ببقية المكتب في الظلام والظلال.  
أغصان الشجر اليابسة التي سقطت أوراقها من شهور وتحطبت من  
جفاف هذا الجو القاسي تخبيط في الهواء وتحدث خشخشة مضطربة  
خارج المكتب. ظللت أحدق في ضوء الأباجرة وعقلي يعمل في  
كل الاتجاهات. ثم حل الظلام ولم أعد أرى شيئاً.

• • •

سلمى قررت أخيراً أن ترحل وتركني. أخبرتني بقرارها في  
إجازتي الأخيرة. قالت إن المشكلة ليست البعد والفقر أو العجز  
الجنسي، «ولكنه الموت يا أحمد». قالت إن الحق معي وإنه لا  
معنى لإنتاج أطفال لأنني شخص ميت. وكان ردي الصمت. وكان  
ردّها دمماً غزيراً بلا كلام. قالت لي بعد ذلك إنها كانت مستعدة  
لاحتمال أي مشكلة لو كان لدي الرغبة في المقاومة، ولكنها يشت

يسبب استسلامي الكامل. قالت لي إن عجزتي الحقيقي ليس جسدي  
ولكنه انعدام رغبتني في الحياة، وظللت صامتاً حتى حملت حقيبتها  
وخرجت. وأنهينا الإجراءات قبل عودتي للجبهة. لماذا ظللتنا نسميها  
الجبهة؟

• • •

كم من الوقت مر منذ وقع الانفجار؟ ساعة؟ ساعتين؟ أم عشر  
ساعات؟ ولماذا لم يأت أحد من رجال الإنقاذ والإسعاف والشرطة  
وخلافه؟ أحاول أن أحرك أي من أجزاء جسمي لكن لا شيء هناك.  
لا شيء سوى هذه الظلمة وعقلي الذي لا يكف عن العمل. لماذا  
لا تكف عن العمل وتركني أستريح أخيراً وإلى الأبد؟ وميض من  
النور يلوح من بعيد، أو كأن الظلمة تخفت فأظنها نوراً. لا، بل نور  
يدخل، ليس فتحة من الضوء بل نور كأنه ينسكب بعيداً ويتسلل في  
بطء بين أشياء مصمتة فيقلل الظلمة ثم تبدأ الأشياء تتخذ شكلاً. هل  
يزيحون الأنقاض من فوقني؟ لا بد وأنهم يزحجون الأنقاض. النور  
يزيد وتبدأ أذني في سماع أصوات آتية من بعيد، لا أستطيع تمييز أي  
منها لكنها مهمة مبهمة وبعيدة. أحاول أن أصرخ، لا فائدة.

أحاول أن أحرك جسمي، لا شيء يتحرك سوى الألم في رأسي،  
أحاول مرة ثانية، وثالثة، وعاشرة. لا، لن أمسك للموت هنا.

• • •

زميلي العميد جالس في الغرفة الأخرى يقرأ الملفات، وأنا جالس  
على مكتبي أرقب النبل كما دنيتي وأقرأ الصحيفة. اليوم هو آخر أيام العمل

لي في الإدارة. بقية متعلقاتي الشخصية تقع في هذه الحقيقة الجدلدية الصغيرة الموضوعة بجوار باب الشرفة. عندما تصبح الساعة الثالثة ساعلمها وأذهب، وبعد أسبوع واحد سأكون في الخرطوم لأتسلم عملي الجديد الذي هو استراحة من العمل. خسارة أن ورد النيل لا ينمو في الخرطوم أيضاً، من الذي سيذكرني بحدودي هناك؟ زميلي يقرأ في الملفات الأخيرة وأنا جالس أنتظر أن يدخل علي بالكارتة التي كنت أختبئها منذ بدأت أسلمه العمل. والآن حانت الساعة، وهو يقرأ في الملف الآن وسيدخل عليّ ويسألني كل الأسئلة ولا بد أن أقدم له إجابات شكلها معقول. لا يهم أن تكون إجابات معقولة، فقط أن يكون شكلها معقول. براميل براميل. افتتح الباب وظهر زميلي:

- سيد أحمد.

- أفندم.

- أنا عندي كام سؤال بخصوص ملف داليا الشناوي.

قضي الأمر. لا بد من إتمام تنفيذ الخطة ووضع داليا الشناوي تحت السيطرة. هذا ما قاله لي رئيسي بعد أن رفض زميلي الذي سيحل محلي إتمام العملية. حاولت التملص لكن رئيسي حسم الأمر وقرر أنه يتعين عليّ أنا أن أنهى ما بدايته. وبدون إحساس، وكأنني تحت تأثير المخدر، في صباح يوم من أيام صيف ١٩٩٥، قبل سفري للخرطوم بأسابيع قليلة، عدت مرة أخرى لأكون ضابطاً حقيقياً. رفعت سماعة التليفون وبدأت في تنفيذ المرحلة الأخيرة من الخطة.

• • •

كان اليوم هو يوم الوساطات. أغني - التي قضت الصيف العاصي تحاول نقل ابنها إلى المدرسة الفرنسية التابعة للسفارة رغم رفض المدرسة لعدم وجود أماكن، وجعلتني أ تدخل لدى السفارة الفرنسية لإتمام النقل رغم عدم وجود أماكن - تريد الآن أن أ تدخل لأن المدرسة تفتقر للضبط والربط وابننا يتعرض لمضايقات مستمرة من قبل أولاد سيني الثرية في حين تقف إدارة المدرسة الليبرالية دون تحريك ساكن. العميد رأت - كما أحب أن أتأديه - اتصل من أجل تدخلني لإصدار تصريح وزارة السياحة اللازم لتشغيل مركز الغطس الجديد بالقرية. ضحك عندما سأله لماذا لا يتصل بالسياحة مباشرة: «خلاص يا أحمد يا أخويا، هو اللي في الخدمة برضه زي اللي خرج؟». أما أخي الكبير سليمان فقد اتصل من أسبوط طالباً تدخلني لدى مدير الأمن لحل النزاع المستحکم بينه وبين أحد أعضاء الحزب في أسبوط.

تعبت والله النهارده في الشغل يا سيادة العميد.

• • •

جالساً، أشرب الشاي في حديقة نقابة المحامين في انتظار وصول الدكتورة داليا. مكالمتنا التليفونية كانت مقتضبة وحادة كالسيف. اتصلت بها وقلت بلا مقدمات أنا العميد أحمد كمال من الأمن القومي، ولدي معلومات موثقة تدّينها أخلاقياً وقانونياً، ومن ضمن هذه الوثائق بيان صادر من أحد مستشفيات باريس عام ١٩٧١، وإنها ما لم تتعاون معي فسأقوم بنشر هذه البيانات. هكذا. هذه هي طريقة

الصددمات الكهربائية التي تسببها بعض الأجهزة عندما لا يكون لديها الوقت. ولم يكن لدي وقت. ومن ثم، انضقت معها، بعد محادثة عاصفة من ناحيتها وباردة كالتلج من ناحيتي، أن نلتقي لأؤكد لها أنني ضابط حقيقي وأن لدي بيانات حقيقية وأني جاد في تهديدي.

وصلت داليا الشناوي. شاحبة الوجه، مرتبكة وغاضبة وتحاول جاهدة السيطرة على نفسها. جلست في مواجهةي ونظرت إليّ مع إيماءة مقتضبة. نسمات تهب علينا لا أدري من أين ونحن جالسان تحت تende من القماش تحجب الشمس عنّا. جلسنا صامتين لحظة ثم جاء الجرّسون فأبعده داليا دون أن تسألني إن كنت سأشرب شيئاً.

- إنتم ما بتقدموش حاجة لضيفوكم؟

نظرت إليّ في ضخينة لا تحتمل التأويل ومددت يدها نحوي:

- تحقيق شخصيتك لو سمحت.

مددت يدي لحافظتي وأخرجت بطاقتي المهنية وأريتها إياها بوضوح ولمدة كافية. رفعت رأسها نحو وجهي فسحبت يدي بالبطاقة وأعدتها للجيب.

- فين البيانات اللي بتكلم عليها؟

أخرجت مظلوفاً من الحقية ووضعت على المنضدة بيننا. نظرت إليه ولم تمد يدها. نظرت إليها وإلى المظلوف بيننا ثم قلت:

- أنا آسف، حضرتك اللي اضطررنا لكده.

اضطرم وجهها بتعبيرات قوية ومكبوتة. لم تعد تنظر إلي بل للمظلوف الملقى على المنضدة. قمت واقفاً وتاركاً المظلوف أمامها.

- خلدي وقتك، حاتصل بيكي بعد يومين.

ثم انصرفت.

• • •

كان أشرف فهمي هو الذي أخبرني بالأزمة القلبية التي أصابت داليا الشناوي. اتصل بي وقال إنها نقلت لغرفة العناية المركزة بالقصر العيني بين الحياة والموت بعد أن وجدتتها الخادمة ملقاة في مكتبها فاقدة للوعي وأن قلبها توقف ثلاث مرات وأعادوه للتنفس بالصددمات الكهربائية ثم دخلت في غيبوبة وما زالت فيها. كانت المكالمات قصيرة، وضعت سماعة التليفون وظلّت كفي مستندة إلى جهاز التليفون وأنا أنظر أمامي بلا هدف. لم أكن أفكر في شيء محدد، لم أكن أفكر في أي شيء. لقد تحطمت الساعة الحديديّة، وأرى يدي من خلف الحطام، وأنا وهذا الجهاز الذي صرت رغم كل شيء جزءاً منه. أنا وهذا المقعد الذي أجلس عليه، هذا التليفون، هذه الملفات، هذه الأدراج وهذه الشقة. أنا الذي صرت جزءاً من هذا الموت البطيء، صرت جزءاً من الماكينة يا أحمد يا كمال، يرغم الماضي والأحلام وموت الأحلام. أصبحت جزءاً من هذه الماكينة العملاقة اليراثن والبطش. ألف ميروك يا سيد أحمد: نجحت العملية وتم تحطيم الهدف. تم احترام أصول الشغل، وملفاتك الآن سليمة وموقفتك لا غبار عليه. تستطيع أن تسافر الآن. لقد أدبت واجبك بالكامل.

دق التليفون مرة أخرى. سارة:

- عرفت اللي حصل؟

- خير؟

- داليا الشناوي؟

- أيوه أيوه.

- أحمد، هو إيه اللي حصل؟

- أنا إيش عرّفتي يا سارة، قالولك عتي شيخ حارة؟

- أحمد يا كمال! أنا شامة ريحة وحشة في الموضوع.

- روحي حطّي كولونيا وهدي نفسك، مغيث حاجة.

أغلقت الخط. يدي لا تزال ممسكة بالسماعة، والدم يصعد إلى رأسي ونوبة الصداق التصفي تجتاحني. دق التليفون، كان صوته عاليًا جدًا، ضجيج لا يحتمل يأتي من بقية غرف المكتب. وقلت وفتحت الباب لأرى ما يحدث فأنفجر كل شيء في وجهي.

• • •

هذا الصداق اللعين! وأين ذهب عمال الإنقاذ؟ سمعت أصواتهم من ساعة أو بعض ساعة، ورأيت نورًا يقترب، أين ذهبوا إذا؟ لماذا عاد الظلام مرة أخرى كحلّاب هكذا؟ هل هو أنا الذي يصحو ويغفو؟ أم إني قد سقطت سقطتي الأخيرة؟ أليكون هذا هو الموت؟ صداق وظلام وانعدام الإحساس بالجسم وانتظار؟ أم تلك غيبوبة ما قبل

الموت؟ أهذه هي النهاية؟ أنكون تلك نهايتي، مدفونا في أنقاض انفجار في مدينة غريبة؟ مقتولًا بالخطأ؟ بالصدفة؟ أبعد كل هذا القتال، كل هذا الرمل وكل هذه القتال والطلعات الجسورة والقضاء وحمل الروح على اليد من أجل الوطن، كل هذا الصبر والسيطرة على النفس والمحاولة، وسارة، وقلبي الذي يموت ويحيا في موته دليلًا يتيما على بقائي حيًا، أبعد كل هذا القتال أموت صدفة؟

ما الذي أبقاني حيًا طيلة هذه الأعوام؟ لماذا لم أمت خلف خطوط العدو في سيناء؟ ولماذا لم أمت في مركز العمليات؟ ولماذا لم أمت في دهايز جهاز المخابرات؟ ولماذا لم أمت على ضفة النيل؟ لماذا انتظرت؟ ما الذي أبقاني حيًا كل هذا الوقت؟ لماذا لم تنطق هذه الشعلة رغم كل شيء؟ ولماذا لا تنطق الآن؟ لماذا لا يهدم عقلي ولماذا لا أغمض عيني وأستريح إلى الأبد؟ لماذا أحاول الصراخ مجددًا وأنا أعلم أن الصراخ بلا فائدة؟ ولماذا أحاول للمرة الألف أن أحرك جسمي وأنا أعلم أن شيئًا لن يتحرك سوى الألم في رأسي؟ لماذا لا أستسلم للموت هنا وأستريح؟

أحاول مرة ثانية، وثالثة، وألف، الألم يغمر رأسي.

لا ضوء، لا شيء سوى الظلام.

(٢)

أسمنت السقف

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^

رأيت كل شيء من البداية.

وصرخت، فلم يسمعي أحد. لوحت بذراعي ولم يرني أحد. قفزت في وجوه الناس أقول لهم، وشددتهم من شعرهم ومن أيديهم، ولكنهم غلغولوني من عيونهم ومن شعرهم ومن أيديهم وانصرفوا عني وتركوني هنا واقفاً أشاهد الدمار يتقدم خطوة خطوة ويأخذنا في جوف الحفرة التي تتسع لتبتلعنا جميعاً.

رأيت كل شيء من البداية، أنا الشاهد الذي شاف كل حاجة ولكن أحداً لم يتبه لي ولم يطلب شهادتي ولم يسألني، والذي سألني لم يسمع إجابتي والذي سمعني لم يفهمني والذي فهمني لم يصدقني والذي صدقني تركني وترك البلد كلها وهاجر.

رأيت كل شيء من البداية، وتحول كل شيء إلى وجع في قلبي، وجدار على صدري، وبغضاً مقيماً عالفاً في الهواء أنحت فيه طريقي كل يوم من بيني إلى المجلة ويظل قابلاً خلف الشيايك وخلف الأبواب في انتظار خروجي ليكبس مرة أخرى على نفسي.

رأيت كل شيء من البداية وفتحت فمي لأنكلم فهجموا عليّ ليخرسوني، فقلت ليس أنتم من أعني بل هم، فقالوا نحن هم وأنت

تخرس فلم أحرص وتكلمت، فأرسلوا لي من يخرسني إلى الأبد  
وكانوا كلهم واقفين ينفرون على إعداد جثتي ويقسمون تركتي  
والوصاص ما زال في فوهة المسلس لم يطلق.

رأيت كل شيء من البداية، وتعبت من الحزن ومن الدمع  
المنسكب في قلبي، دمع كأنه نار تعبت القلب وهو لا يموت. تعبت  
يدي من الكتابة ومن الإشارة ومن التلويع ومن التشويح ومن الدق  
على المناضد، وتعب حلقي من الصراخ ومن النقاش ومن الكلمات  
التي صارت كالصابون من تكرارها، وتعب أذناي مما أسمع، مما  
أكره ومما أحب ولا يتحقق، وتعب صدري من الحزن القابع عليه  
كالصخر الأزلي، وتعبت عيوني من النظر ومن هول ما أرى.



رأيت كل شيء من البداية. كنت واقفاً بالباب لأن المقاعد كانت  
مشغولة. كنت أنتظر أن يسلمني الموظف أوراقي بعد اعتمادها  
وغتمها بالنسر الذي لا يطير، النسر الذي لا ينكسر قيده محبوساً في  
خاتم الدولة. كنت أنتظر من هذا الموظف المتعالي، والذي يلعق  
أحذية رؤسائه، الذين يلعقون أحذية رؤسائهم، الذين يلعقون أحذية  
رؤسائهم حتى يوم الدين، أنتظر أن يعطيني تلك الورقة وعليها الخاتم  
الرسمي كي أقدمها للمركز الصحفي للمؤتمر ليعلموا أنني صحفي.  
ذهبت لأحضر المؤتمر فقالوا لي إنني يجب أن أذهب للقتلية وأنهم  
بخطاب اعتماد كي أتمكن من المشاركة. أنا أصفر وأشهر رئيس  
تحرير في مصر والعالم العربي أنتظر من هذا الموظف الذي لا قيمة

له أن يثبت لهم أنني صحفي لأن كل ما كتبت وكل ما أكتب وكل ما  
هانيت وأعانيه لا قيمة له عندهم حتى يوقع ذلك الباشكاتب بخاتم  
الدولة على ورقة. كنت أنتظر، حين رأيت ذلك الرجل الجالس في  
الصالون، عرفته حين رأيته، هو هو بمنظره الغريب وهيبته المضطربة.  
كان يحمل حقيبة منظرها من منظره وكان شاحب اللون وينظر للساعة  
في قلق. رأيته وعندما رأيته هب واقفاً وتقدم إلى منتصف صالة  
الانتظار وشرع في الصلاة. كنت أعرفه وأدركت فوراً أن كارثة على  
وشك الحدوث. فتحت فمي لأتكلم ولكن أحداً لم يسمعي ومن  
سمعي لم يفهمني ومن فهمني لم يصدقني ومن صدقتني تركني  
وترك البلد كلها وهاجر.

رأيت قاتلي، لكن رجل الأمن الجالس بجوار الباب قال لي ماذا  
أفعل إنه يصلي. قال إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لأن القاتل يصلي.  
لكنه عندما ينتهي من الصلاة ستكون جميعاً قد ذهبت للأبد، واحتد  
النقاش وعلت الأصوات وجاء موظفون وعمال البوفيه والحراسة  
وكانوا جميعاً يصرخون في وجهي ويسحبونني من ذراعي وينعتونني  
بقلة الإيمان والأدب والصبر لأنني أشرت إلى هذا الباكستاني الذي  
بدأ يصلي فجأة في العاشرة صباحاً في صالة انتظار القنصلية. قلت  
لهم إنه إرهابي وإنني أعرفه. الرجل يصلي ورجل الأمن واقف بينه  
وبيني ينظر إلي أنا بالبرية ويعطي الإرهابي ظهره بحميه. طلب رجل  
الأمن مني أنا الهدوء والصمت لأننا في مكان محترم، وكان الرجل  
ساجداً على الأرض وجسده يتنفض من التأثر وأنا أصرخ في وجه  
رجل الأمن عندما أكمل عقرب الدقائق دورته وتمت الساعة العاشرة.

تخلخل الهواء قليلاً وماعت الأشياء في وقتها ثم تبعثرت وتطايرت  
وارتطمت وتخلمت وانهارت وانفجرت وملا الغبار الهواء. كان  
رجل الأمن ما زال يشير إلي بإصبعه مهبطاً وكان الباكستاني ما زال  
ساجداً عندما رأيتهما ينفجران معاً وجسدتهما يتبعثران قطعاً في هواء  
مصطليح بالدم. رأيت رأس رجل الأمن تشرع في الاستدارة للخلف  
في اللحظة الأخيرة قبل أن تختفي مع بقية الأشياء المتناثرة. ورأيت  
الأرض وهي تهوي وتبتلع المكاتب والسجاد والصالون والجالسين  
الذين كانوا ينظرون إلينا في أدب. رأيت الجدران وهي تهوي وقطع  
الخرسانة المنخلقة من السقف تسقط فوق الجميع وتردهم في  
هوة الأرض والتراب يصعد ويحتل الهواء كله. رأيت باب العميد  
أحمد كمال يفتح ووجهه يظهر لوهلة قبل أن يطير مع بقية الجدران  
في كل الاتجاهات وجدران حجرته تنهار والباب يتفجر في الهواء.  
رأيت جدران القنصلية وهي تنفوس وضوء الشارع الباهر يدخل  
ويتعكس على الغبار العالق في الهواء فيعشي العيون أكثر. ورأيت  
قطعة السفن هذه تهوي عليّ بما فوقها وتحجب الرؤية عني. رأيت  
أسمنت السقف قابلاً أمام وجهي وممتداً من حولي لا يتزحزح ولا  
يهتز. رأيت أسمنت السفن يحشر ذراعي في الجدار من تحتي ومن  
حولني ويهصرني. رأيت التراب وهو يملأ عيني.

رأيت كل شيء، ووجعتني عينايا مما رأيت.

• • •

لا شيء يزحزح هذا الحزن البغيض عني. ثلاثون عاماً وأنا أفر منه  
وهو يلاحقني أينما كنت. ثلاثون عاماً وهو يحتل صدري ويختفني

من رقبتي. نجحت وتألقت وابتسمت وأحببت وتزوجت وطلقت.  
نحت وخانوني، حاربت وانتصرت وانهزمت وانكسرت وعدت  
وانتصرت وسافرت ورجعت وصعدت وهبطت واغتنيت وأفلس  
ورأيت الناس والدنيا من كل زاوية وركن، وفي كل ذلك لم يفارقني  
الحزن يوماً واحداً.

منذ دخل القطار بي القاهرة، منذ تركت أمي وأعر حقول بلدنا  
الصغيرة وعبرت النيل على كوبري بنها الحديد البارد وجئت لعش  
الصفيح والزواية الحمراء وشبرا الخيمة ومحطة رمسيس. منذ  
وضعت قدمي لأول مرة على رصيف محطة هذه المدينة المفترسة  
وحملت حقبي على كتفي وواجهت ضوء الشمس الساطع وأنا  
خارج من باب المحطة أبحث عن الأتوبيس. منذ انحشرت في  
أتوبيس ١٥ إلى بين السرايات وانحشر الزحام والتراب والدخان  
والعرق في نفسي. منذ خطوت خطواتي الأولى المترددة في ساحة  
كلية الإعلام. منذ وطأت قدمي المدينة الجامعية الصفراء القلب  
والجدران، وصارت عينايا بلا فائدة في ظلمة العمر الطويل المؤدي  
لغرفتي والمودي بشجاعتي وثباتي. منذ تعثرت وأنا أبحث يائساً عن  
فردة الشيب وعن النظارة وأنا أتنفض من الفرائش في نصف الليل  
من الكابوس الذي يهزني. منذ أدركت وأنا جالس في دورة المياه  
أن الصبور انكسر وأن المياه قد ذهبت من المعنى بغير رجعة. منذ  
انقطع نفسي وأنا أجري على رصيف المحطة محاولاً عبثاً للحاق  
بآخر عربات قطار الليل الأخير للمتنورة. منذ بكيت بحرقة في ليل  
غرفتي الموحش بعد عودتي من المطار مودعاً أبي المسافر اليمعن



السعيد الذي أتعس أمي وأبكاها ليالي لم أعد أعددتها. منذ نشب اليأس أظافره في قلبي ومعنى تجمع أشياءها من على المنضدة الممتدة بيني وبينها وتمضي وفي يديها ابنتي. منذ ذهولي الأول أمام مدير التحرير وهو يبيع ضميره لرئيس التحرير كي يظل مديرًا. منذ شعرت بالغرقة لأول مرة وأنا جالس مع إخوتي. منذ مات يحيى إبراهيم من التعذيب في أمن الدولة. منذ قال لي ناصر الخضري إنه مسافر إلى غير رجعة وإنه لا فائدة. منذ زمن طويل، أطول مما ينبغي وهذا الحزن البغيض يطبق على صدري ويتزع طعم الأشياء من الأشياء.

صار الحزن جدًّا من الزجاج السميك بين قلبي والدنيا، أرى من خلاله وأسمع لكنني لا أشعر، لا بالفرح ولا بالألم ولا بالغم ولا بالنصر ولا بالكسر. صار قلبي مغلقًا بالزجاج، لا يشعر. لكن كلما رماه أحد بحجر انكسر الزجاج وانغمر في قلبي أكثر. قالوا اكتب أكثر، أخرج ما في نفسك كيلا تسقط فريسة للاكتئاب، فكتب. كم من الكتب كتبت؟ ومن المقالات والأعمدة والقصاص؟ لم أعد أذكر، كتبت كل ما في نفسي وأكثر. وحين سألتني صحفي شاب لماذا تكتب، قلت أكتب كيلا أذهب للطبيب النفسي، ثم ذهبت. وحين حكيت للطبيب كل ما رأيت طلب مني ألا أعود إليه لأنني أصيبه بالاكتئاب.

صعدت. حين صار قلبي من زجاج، وحين أدركت أن الحزن لن يذوب وأن الزهق لن يرحل، حين فهمت وجروث، صعدت، بلا هدف غير أن أرى آخر الدرب. صرت أكثر من صحفي وكاتب،

صرت مؤسسة كاملة، وزارة إعلام مستقلة. رأيت كل شيء من البداية، ووجعتني عيناها مما رأيت.



ما الذي أخرجني أنا من مدينتي الصغيرة الساكنة؟ ما الذي أخرجني من حديقة منزلنا الصغيرة وأبعد أشجار يرتقها عن مرآي؟ من الذي أبعدني عن أبي وأمي وإخوتي وأعمامي واجتماع العائلة على مائدة الإفطار أول أيام رمضان؟ لم تركت شوارع مدينتي ونيلها الهادئ وبناتها الناعسات وطرقها الصغيرة وترباها الحاني؟ لم هجرت شوارع أول أيام العيد المرشوشة بماء خفيف وأنا أمضي حذرًا بملابس العيد لمنزل خالتي كي تعطيني العييدة وأنا أتمتع كاذبًا؟ ما الذي انتزعني من بهجة فتح أول صفحة من لغز المغامرين الخمسة الذي اشتريته من المكتبة الوحيدة في شارعنا؟ لم تركت سطح منزلنا عند العصر؟ وماذا جئت من هذا السفر؟ أين ذهب تختنخ وعاطف ومحب ولوزة والمفتش سامي، ووزنجر؟ وماذا كان اسمها تلك الفتاة الأخرى؟ صفاء أو سناء؟ نسيت.

ومساء بيتنا، بخار الماء الساخن يملأ الحمام ويدفئه قبل أن أدخل ملابسي، شوربة العدس التي تعدها أمي في الشتاء، المدفأة الصغيرة ذات الشمعتين المحاطتين بسلك أبيض متعرج يتوهج، كوب الشاي باللبن الذي ينتظر أن أنهى إفطاري لأشربه قبل الجري للمدرسة، قبلة أمي على خدي في الصباح بعد أن تنتهي الصلاة وهي تحتني على المضي سريعًا كيلا أتاخر على الطابور، دعاء الصباح في إنذاعة

الشرق الأوسط وأنا أهبط الدرج. أمي، حبيتي يا أمي. لم تركت هذه  
الطمانينة وألقيت بنفسي في هذه الصحراء الفاحلة على اتساعها؟  
لأي مجد؟ لأي منفى؟

لم يروا في غير أشرف فهمي ورئيس التحرير والكاتب اللامع، لم  
يروا خلف نظرتي أن مقالي أصبحتا زجاجيتين كظنارتي، وأن قلبي  
صار وجعاً ينيض. كانوا يهددونني بالقتل لأنني أسد عليهم الطريق،  
لأنني الوحيد من أعدائهم الذي يمتلك ما يمتلكون: القدرة على  
جذب انتباه الناس وكسب ثقتهم واستمالتهم لما أقول ودفعهم للبعد  
عما كانوا يرونه صواباً، القدرة على غسل المخ عن بعد وبالتدريج  
وفي هدوء. أرادوا أن يقتلوني لأنني الوحيد من أعدائهم الذي يثق  
الناس به وبكلمته ويشترون جرائده ويقرؤونه ويتفقون معه حتى  
وإن قال ريان يا فجل. أرسلوا لي من يحذرنني بأن مصيري إلى النار  
كالساحرات. وقال لي العميد أحمد كمال إنهم قبضوا على مجموعة  
من الإرهابيين وعثروا في أوراقهم على خطة لقتلي. وكنت لا أرد،  
ليس ترفعا ولكن من اليأس. فلو صبروا على لمت وحدي، من قبضة  
هذا الحزن على قلبي ومن زهقي من نفسي ومن شكواي، غير أسفاً  
على ما تركت خلفي.

لو صبروا عليّ لمت وحدي من هذا الوجع الذي يعتصرني في  
الصباح حين أصحو فأجد اليوم هو هو اليوم الذي سبقه. أغسل  
نفس الوجه الذي غسلته بالأمس، أرندي ملابسي الملقاة على الكتبة  
المجاورة لسريري وأفر سريعاً من هذا البيت الأجرد. أهبط إلى

الشارع وألقي بنفسي فيه لعلي أخفي. ولا أعر عليّ ثانية، ألقى بنفسي  
في زحام المرور ثم في طابور السيارات الطويل بشارع الجلاء.  
ألقي بتحية الصباح المقررة على أمن المجلة وعامل المصعد، نفس  
الرائحة بالمصعد هي هي. الساعي على باب مكتبي والسكرتيرة  
والمكتب والأوراق، كل شيء بقية الأمس وإعادة له، ودخول الزملاء  
وحديث الصباح والإفطار والقهوة وسكرتير التحرير والمؤامرات  
الرخيصة والمؤامرات الثمينة، والمقالات المؤجلة والمقالات  
الجديدة (والله العظيم إنها هي ولا فرق بينها). ثم تبدأ المعجزة  
اليومية من خناق (لا يهم فعلاً) وهزار (لا يضحك فعلاً) وصدعات  
(شبه متوقعة) وخيبات أمل (غير حقيقية تمامًا) وعشرات من أكواب  
القهوة والشاي تنسي الفرق بين طعمها، وصباح وتليفونات تدق  
وحوارات وصراعات مكتومة وعلنية وتعليقات ساخرة أو سخيفة أو  
ظريفة أو مشينة أو غير مفهومة، وعشرات من الزيارات والمجاملات  
والإيمان المغلفة والدعوات والابتناسات واللقاءات حول موائد  
الطعام والأحاديث في البارات والمقاهي، والعودة السريعة للمنزل  
الفارغ للقاء عاطفي الاسم مزدوج الوحدة، ثم الرقص للمقهى أو  
البار أو المطعم أو الندوة أو الاجتماع أو النقابة، ثم تهدأ الضجة شيئاً  
فشيئاً بعد منتصف الليل، وعند الفجر أعود للشقة مجرّراً ساقي  
وسيارتي في ظلمة شارع الجيزة وأمام حرم الجامعة الخاوي.

كل ذلك من خلف زجاج قلبي. كل ذلك أراه ولا أحسه. وقلبي  
ينيض بأقل ما يستطيع، أبطأ ما يستطيع، وأهدأ ما يستطيع، كيلا تنفذ  
فيه قطع الزجاج المحطمة فوقه. يود لو يتوقف تمامًا، ليس لأنه

لا يحب الحياة، لكن ليوقف الألم ويستريح. لكنه لا يتوقف، ولا  
يستريح.

• • •

عندما استيقظت استغربت أنني قد نمت فعلاً. كانت منى تنظر  
لي بحنان بالغ ورأسي مستند لساقها وأصوات عصافير تأتي من  
الأشجار المحيطة بنا. ابتسمت غير مصدق. أنا أحب، ونائم على  
حجر حبيبي في القناطر الخيرية، كأنني أحقق أمنية خفية، كأنني أشهد  
العالم أنني كبيرت، أنني صرت رجلاً وصرت أفعل ما يفعله الرجال  
في الأفلام وفي حكايات الأصدقاء. غلبني شعوري بالتحقق والتصر  
حتى طغى على شعوري بساقها تحت رأسي أو بنظرها الحانية على  
وجهي. أنا القادم من المنصورة غزوت القاهرة واستقرت في قلبها.  
حفرت لنفسي مكاناً وفزت به. أليكون هذا هو الحب؟ هذا التحق  
الجميل والشعور بالامتلاء؟ شعورك أن لك أحداً، لك أنت، وحدك.  
حضن يفيض حنانه ويغمرك، يبرك ويشبعك، كأنها ماء يروي أرضاً  
تجحرت من شدة عطشها. وضعت يدها على جيني فابتسمت.

- إنك رحت فين؟

- فيكي.

- يا بكاش!

- والله فيكي.

- فيه في إيه؟

- في إن ده أجمل شعور في الدنيا.  
- ربنا يخليك ليه.

ما الذي ذكرني بمنى الآن؟ في هذه الحفرة؟ ربنا يخليك ليه،  
كانت هذه هي كلمتها المعتادة، ولكن ربنا لم يستجب لها، برغم  
تكرار الدعاء لدرجة الملل. لك الله يا منى، ترى كيف أصبحت  
الآن، من داخلك؟ وهل ما زلت نائمة علي؟ خمس سنوات كل  
ما قضيناه سوياً، خمس سنوات فقط منذ ابتسمت لي ووافقت على  
الخروج معي حتى جذبت حقيبتها من على المنضدة وغادرت البيت  
قبل طلاقنا. خمس سنوات فقط وزواج وطفلة وطلاق، كم مر على  
ذلك؟ عشرون سنة؟ تزوجتها عندما كنت سكرتيراً للتحرير، ورزقنا  
بطفلة - آية - بعد عشرة أشهر بالتمام والكمال من الزواج (كانت أُمي  
شديدة الفخر بذلك بين أقاربنا في البلد). ثم بدأت الأمور في التدهور  
سريعاً بعد مولد آية. كان زواجنا خائفاً، كنت أموت تحت وطأة  
تفاصيلها التي لا تنتهي. وعندما بلغت ابنتنا الثالثة من عمرها، ثم  
الطلاق، ويومها جاء هذا الحزن الغامض وحط على قلبي.

• • •

وأين ذهب أبي؟ أين يده الواثقة لترفع هذا الجدار الخرساني  
عن صدري؟ حزن الخرسانة المسلحة بالحديد وتفاصيل الأسمنت  
المطعم بالزلط والرمل يسدان الأفق أمامي ويمنعان ذراعي من  
الحركة. لم أعد أشعر بذراعي. ولكنني أرى وميض إشارات  
سيارات الإسعاف والشرطة التي لا بد وأنها تحيط بالقنصلية.

أين أنت لتنفض هذا الجدار وهذا المكتب الضخم عني وتمد يدك لتشملني وتأخذني في حضنك الهادئ؟ أين أنت لتربت على كتفي بإبتسامتك الوقورة دائماً وشاربك المهدب دائماً ونظارتك المثبتة دائماً على عيني؟ لماذا لم تأت لتعبدني للبيت كي أستحم سريعاً قبل موعد الصلاة؟ تأخذني من عند الحلاق وتمضي بي في الشارع الطويل للبيت وأنت تقص علي قصة سيدنا يوسف وإخوته، ثم أذهب معك بعد الحمام للجامع الكبير لنسمع الخطبة وأنا لا أفهم منها شيئاً، وأظّل أرقب النقوش على سقف المسجد في انتظار أن ينتهي كل ذلك ونذهب للغداء، وأتوه في النقوش والزخارف والسجاد والمنبر وألوان جبة وقطان الخطيب ذي الرهبة. نفث في صف واحد ويدك ترحزحني كي أدخل في الصف وهم طوال القامة من حولي وصوت الخطيب يذكرنا بشوية الصفوف التي هي من تمام الصلاة وأن الله لا ينظر للصف الأعوج فأبذل جهداً مضاعفاً في محاذاة نفسي كي ينظر الله لصفنا فتوقفت يدك عن الحركة إذ بدأت الصلاة. ونظّل نقوم ونقعد ونحتي ونقوم وأنا أعطى دائماً وأقوم فأجد نفسي وحيداً وقامات كل الرجال منحنية ناحية الأرض فأعجل من نفسي والجا إليك أحتمي بكتفك من الخطأ، وأظّل أناخر قليلاً لأتبع حركاتك فلا أعطى ثانية. ثم فجأة أرى وجهك في وجهي واستكانة تسوده وإبتسامة حانية تطل من عيني وتلمس ثنايا قلبي، وتقول لي حرماً.

أتبع خطاك. أنا ابنك يا أبي أتبع خطاك في الزحام وأبحث عن حذائي في الأحذية التي يعثرها المصلون على سلم الجامع

ونحنه عند أول السلم وأنت تهز رأسك مبتسماً ومتعجباً من عجلة المتعجلين. ونمر على بائع الفاكهة أمام الجامع تحت العمارة التي تسكن بها البيت ذات العيون الزرقاء التي أراها كل يوم في طريقها للمدرسة والتي لم أكن أعرف اسمها ولكني قررت أنني أحبها وأني لن أعيش بدونها. وأظّل أنظر للعمارة لعلي أراها، أنظر للشبابيك الخضراء الحديثة الطلاء، وتشدني ونحمل الأكياس للبيت سوياً وأشعر أنني رجل وأنا كبير وأنا أدخل البيت بالكيس وأنت تحكي لأمي ولأخواتي البنات عن الجامع والخطبة وأشياء أخرى لا أدري أين حدثت وأخواتي ينظرون إلي بحسد وإجلال لأنني شاركت في هذه المغامرات الكبيرة.

أين أنت بحتلك العسكرية الصوف، وأنا أسرق الكتاب العبري وأضعه على رأسي ثم تقبض عليّ ضاحكاً وتقول لا تتعجل قدرك! أين أنت الآن وأنا هنا مصلوب بين جدار هذا المبنى وسفحه المنهار! أين سقطت وبأي طلفة؟ وأين وُوريت جثتك؟ أخذت صلاتك ويزامتك وبنديتكت وطاقتك الصوف وذهبت لهذا البلد البعيد وظللت أنتظرك. ظللت أنتظرك طيلة هذه السنين وأتظاهر بأنني لا أنتظر، أتظاهر بأنني كبير وأعرف وأنا كبير وأقدر وأفهم. لكنني كنت دائماً أنتظر. أيها الغائب دوماً: ألم تستطع أن تعود ولو مرة؟ أكان الموت واجباً عليك أنت في هذا الزحام؟ ألم تستطع أن تختبئ؟ أو أن تصوب بندقيتك إليهم قبلهم؟ لعلك أخطأت التصويب، لعلك كنت نائماً، أو كنت تنظر للجهة الأخرى، أو لعلك كنت تقاتل ولكن هاجمكت الطائرات. ولعلك اقتحمت النار وسعيت للموت طلباً

للشهادة. وفيما فكرت يا أيها - إن كنت قد فكرت - ساعتها؟ هل  
خطرت على بالك، ولو للحظة؟



رأيت كل شيء، وشئت مما رأيت ومن الشكوى.

سئمت من نفسي ومن مللي ومن شكواي ومن مثاليتي الزائدة.  
سئمت دور الضحية الذي تقمصني. صحت ذات يوم وأنا أشعر  
بهذا الملل يجتاحني، ارتديت ملابس في عجلة وخرجت وأنا  
مصر على التقدم للأمام. تملكنتي الرغبة في التنفيذ، في عمل  
شيء بدلاً من الشكوى. يومها قررت أنني سأصبح رئيساً للتحرير،  
لنفس المجلة التي تمنعوني من النشر فيها. لن أصبح الرجل الثاني  
ولا الثالث بعد اليوم. لقد جربت من قبل، وكنت أصغر سكرتير  
تحرير ثم أصغر مدير تحرير في تاريخ المجلة، ولكن هذا العمل  
جعلني أكثر تعاسة بما فتحه عليّ من رؤى: القيود الحقيقية والنفاق  
وتدني المستوى. وتوالت مشاعر الصدمة ثم التعاسة ثم غرقت في  
اليأس. ثم وقفت يوماً في غرفة نومي وصرخت من الملل من كل  
هذا الطين: كفاية.

بدلاً من الشكوى من غياب الحرية، سأذهب لأخر الطريق لأوسع  
هامش الحرية. بدلاً من الشكوى من سوء المستوى وغياب الخيال  
وتدني الحرية، سأصنع الجريدة بنفسى وأرفع المستوى. وبدلاً من  
التفرز من وضاعة المتملقين حولي، سأكون الرجل الأول وأتخلص  
من كل ذلك. بعد اليوم سأغيرها بيدي ليس يقلبي. وسأصبح الرجل

الأول في المؤسسة وأعيد بناءها، أو سأرحل منها وأبني مؤسسة  
جديدة.

سأصعد، سأحمل حقيتي على ظهري وأصعد إلى أعلى الجبال  
ولن أنظر خلفي ولا تحتي ولا بجواري: سأنظر للأمام فقط وأواصل  
الصعود إلى ما هو حق لي، إلى قمة المملكة التي أستحق أن أقودها  
أنا بدلاً من هؤلاء القصر الأغنياء، وسنرى أنها ستكون أعظم وأعدل  
وأجمل، سنرى ساعتها.

بلا كلمة شكوى واحدة، بدأت مشروع الكبير، متجاهلاً  
إحساسي بفقدان المعنى وبالحزن. سأذهب لأخر الدرب، بالتخطيط  
والعمل والذكاء والهدف الواضح. أخطاء؟ بلا شك، ولكن كما يقول  
فرانك سيناترا، أقل من أن نتوقف عندها. لم تتغير طبيعة العمل،  
ولم تتغير نفوس الناس، ولم تخف القيود على حرية النشر، ولكني  
غيرت من نظرتي: راحت نظرة الحالم الشاعر الذي يرى الفصح  
والقيد ويتألم له، وحلت محلها نظرة القناص الذي يرى الفرص  
من بين القيود، يرى الفتحات في الجدران، ويرى نصف أو ربع أو  
عشر الكوب الممتلئ. صعود مثل القنص، في صمت وإتسام وقوة  
وبلا مشاعر.

قالت منى (عندما التقينا مرة وأنا أعيد آية لبيتها) إني تغيرت،  
واعترفت ذلك وسأنا على صدري وعلامة النجاح. قالت ليلى  
(عندما التقينا صدفة في افتتاح أحد المعارض) إني أصبحت في  
سلام داخلي أكبر. وعرفت أن هذا هو المفتاح: وتعلمت أن أبتلع

القصة في حلقي وأكتب الألم في صدري، فصار أصدقائي يحبونني أكثر، وصارت النساء تتجذب لي أسرع، وقالت لي واحدة (في تبرم) إن لي سلطاناً غير مربر على من حولي. وصار هذا السلطان مفتاحاً لأبواب كثيرة. لم أبع مبادتي يوماً، ولم أراجع في موقف، ولم أناق (وإن استخدمت قدراتي اللغظية لإعادة صياغة الموقف) بل وأخذت مواقف شديدة في أحيان كثيرة، لكن كل خطواتي كانت محسوبة، وكان الهدف دائماً الواضح.

صرت رئيساً لتحرير نفس المجلة التي طردت منها. عدت متحصراً لنفس الباب الذي خرجت منه. آخر مرة مررت فيها من هذا الباب كنت أحمل صناديقي المليئة بأوراقتي وكتبي، وحينئذ لا يجسر على توديعي أحد من زملائي. عدت بعد أربع سنوات، وصفت حساباتي كلها.... كلها. لم أرفق أحداً، ولم أنقل أحداً، ولم أمنع أحداً من الكتابة، ولكني أزهيت الجميع بقدرتي على فعل كل ذلك وبقدرتي على التسامح والبداية من جديد. المزج بين الترهيب والاحتواء دفع الجميع للاستسلام: لم يبق أحد خارج دائرة الطاعة، وصارت المؤسسة خائناً حول إصبعي، وبدأت الثورة الثقافية العظيمة.

\*\*\*

ذراعي تؤلمني عند كتفي. لماذا تأخر رجال الإسعاف كل هذا الوقت مع أنني سمعت أصواتهم عقب الانفجار بحوالي عشرة دقائق فقط؟ وما زالت أضواء إشارات سياراتهم تضفي حمرة على المتقطعة على المكان. هل يمنهم الجدار من رؤيتي؟ متى يزحون هذا

الجدار؟ ماذا يفعلون؟ أنا من يترك هكذا تحت الجدار؟ أوجب أن ينفذوا الآخرين أولاً دائماً؟ هل قدرتي أن يهملني الناس ويغفطوني حقاً؟ أشعر بنفسي أضعف الآن، وأخشى أن يكون كتفي يتزف. المشكلة أنني لا أستطيع حتى الانفعال لأرى ما حدث للذراعي، كل ما أراه هو نهاية كتفي داخل الأسمنت وألم هادئ وخدر. هل أنزف؟ وإلى متى؟ وهل يرفعون هذا الجدار قبل أن أفقد الوعي؟ أو أموت؟ هل أموت؟ هل يمكن حقاً أن أموت هنا؟ أيمكن أن تكون النهاية بهذا العيث؟ أأعيش حياتي كلها تحت صخرة من حزن كي أموت تحت الانقراض؟ وماذا حدث للآخرين؟ لقد رأيت الباكستاني المعتزل يتناثر قطعاً هو ورجل الأمن، ورأيت العميد أحمد ليرة قبل الانفجار أو في نفس اللحظة التي انفجرت فيها الشحنة.

أحمد بك..... يا سيادة العميد.....

.....

يا جماعة يا للي هنا، أكو!

.....

خسارة لو مات أحمد كمال، ربما يكون رجل الأمن الوحيد الذي ارتحت له، ربما هو إعجابي الخفي بجهاز المخابرات الذي أعطاني هذا الشعور، ربما هو افتقار الأب والشعور بالحماية الرشيدة. أريد أن أرتاح قليلاً، أريد أن أغفو.

\*\*\*

أجلستني إليزابيث على أريكة بنية اللون مريحة وجلست قبائي.

هي في منتصف الثلاثينات، مقبولة الشكل، لا جميلة ولا قبيحة ولكنها لا تخلو من جاذبية، وترتدي ثوباً رمادياً بسيط الشكل. سألتني عن اسمي وعلمي وعما إذا كانت المرة الأولى التي أزور فيها طبيياً نفسياً. قلت إنها المرة الثانية.

- المرة الأولى في القاهرة، لكن بعد ثلاث جلسات الدكتور أصابه اكتئاب وطلب مني التوقف عن زيارته، ثم هاجر من البلد كلها.

ضحكت واستكملت. أطلت ركبتيها البضتان عندما تحركت وانحسر الثوب قليلاً. سألتني عن عائلتي وطفولتي وأشياء كثيرة غير مترابطة. ثم انتهت الخمسون دقيقة. في الجلسة التالية كانت ترتدي بنطلوناً وجاكت وقد أطلقت شعرها فبانت أحلى. حكيت لها عن طفولتي، عن المنصورة، وعن أبي الذي قتل في حرب اليمن، وأمي وبيننا وأعمامي وإخوتي والفقر المفتح الذي نشأت فيه. حكيت عن تفوقي في المدرسة ثم الجامعة، المجلة والتجنيد في الجيش والشئون المعنوية، نضال شعب بكامله لاسترداد كرامته. مغادرتي المجلة. حكيت عن زوجي وطفلتي التي لا أراها إلا لمآماً وعن علاقتي النسائية التي لا تغني ولا تسمن من جوع عاطفي، عن شعوري بالاضطهاد والغبن وعن الضجر والسأم الذي لا يقهر، وعندما انتهت للساعة أدركت أننا تجاوزنا الخمسين دقيقة بثلاثين دقيقة أخرى.

• • •

لماذا أواصل هذا؟ لماذا أواصل هذه الحياة؟ ولماذا أواصل

الكتابة؟ لماذا لا أمسك وأرتاح؟ أغمض عيني وأنا أم أو أتوقف عن التذكر وعن التفكير؟ ما الذي يدفعني لذلك وفي هذه الظروف؟ لماذا لا أقفز من شرفة بيتي في شارع الجيزة فوق هذا الميكروباص المزعج، فوق هذا الأنوبيس الأحمر (الصديق القديم)؟ لماذا لا أقفز من شرفة بيتي إلى النيل - فوق ورد النيل المتسخ الذي يثير أعصابي؟ لماذا لا أفر من هنا مع الذين فروا؟

لو صبروا عليّ لمت وحدي من الحزن ومن الوجد.

لكنهم لم يصبروا. أرسلوا لي رسائل «تنبيهي» إلى أنني «أسير في طريق الضلال»، وتشتت في تصوير سوء مصيري، وتركوا عشرات الرسائل على جهاز الرد على المكالمات تسبني وتحذرنني. ثم أرسلوا اثنين من العميان كي يقتلاني. ركنت سيارتي كالمعتاد أمام المؤسسة وأغلقت الباب متجهاً للمدخل عندما سمعت صوت الرصاص. لم أنتبه في البداية. الحقيقة أنني لم أكن أعرف صوت الرصاص (لم أسمع سوى في الأفلام وفي الأفراح وهي مليئة بشئ أنواع الضجيج). فرقعات متتالية وكأنها إطارات سيارات تنفجر الواحدة تلو الأخرى. نظرت حولي في استغراب باحثاً عن مصدر الصوت عندما رأيت الرجلين ورشاشيهما الآليين وكان ضوؤاً يخرج منهما، ساعتها فقط فهمت ما يحدث (وإن كان جزء مني لم يصدق). هي لحظة، أقل من ثانية، صمت فيها شارع الجلاء كله واختفى الناس سوى هذين المعتوهين ورجلين آخرين كانا فيما يبدو يركضان نحو. سقط أحدهما على الأرض أمامي والدم ينفجر من أماكن

متفرقة في جسمه بينما ارتدى الآخر فوقى وطرحني أرضاً ودفعني تحت السيارة وتدرج معي. كنت مذهولاً وغير مستجمع لما يجري حولي. سمعت ضجة أخرى في الشارع وصوت امرأة تصرخ، استمرت الطلقات لثوان أخرى ويبدو أن الرصاص أصاب جسم السيارة فاهتزت قليلاً من فوقنا. ثم توقف صوت الرصاص، وسمعت دراجة نارية تتطلق. صمت عميق للحظتين ثم بدأت أصوات مختلفة في التجمع. كانت هناك جثثان في عرض الطريق. أرادوا قتلي فقتلوا اثنين آخرين وأخطئوني. أي عمى؟

ثم دفعوا داليا الشناوي (سامحها الله) فرغت علي قضية احتساب واتهمني بالردة وطلبت من المحكمة فصلي من رئاسة تحرير المجلة باعتباري كفرت وباعتبار المجلة مؤسسة عامة مملوكة للشعب (الافتراضان خطأ: لا أنا كافر ولا المجلة مملوكة للشعب). ثم أعلن القاضي تأييد الدعوي المرفوعة من الدكتورة داليا الشناوي ضد المدعو أشرف فهمي. آه يا أمي، تظاهرت أنها لم تعرف بالأمر ولم تسمح به، ولكن أخي (الملازم حديث التخرج من الفنية العسكرية) قال إنها بكت طوال الليل. قال لها إن هذا مجرد حكم ابتدائي ولكن أمي لم تكن ترى سوى أن القاضي حكم بكفري، ولولا الأمومة.... لولا الأمومة لمت أنا.

من هذان اللذان ماتا بدلاً مني؟ هل كانا يعرفاني؟ هل كانا من قراني؟ هل كانا يكرهاني؟ وماذا كانا يقولان لو علما أنهما سيموتان بدلاً مني؟ هنائي العميد أحمد كمال بتجاني ووعدني بالقبض على

الجناة. ماذا سأفعل بالجناة؟ وقال مدير تحرير المجلة إن الحادث سيرفع التوزيع إلى الضعف (هل كان يفضل لو أنني مت ليرفع التوزيع ضعفين؟). وقبلتني سارة قيلة حانية وضمتني لصدرها حتى اختفت. وقالت لي أمي أن أكف عن الكتابة لأنني مش قديم ولأنهم ما يعرفوش رينا ولا يخشون أحداً. وقال لي الدكتور نشأت (محامي الفاشل) إنه لا يصدق ما حدث، قلت ولا أنا. ولم أكن أصدق أنني لم أمت أمام اثنين من المسلحين بالرشاشات الآلية، ولم أكن أصدق أن هذا الحزن العقيم لا يزال رابضاً على جدار قلبي.

• • •

ظلام دامس، أين ذهب ضوء الإسعاف وضجة رجال الإنقاذ؟  
هل رحلوا، أم أنا الذي رحلت؟

• • •

بصيص من الضوء يدخل إلى أجفاني وأنا أجاهد لأغلقهما في هذا الصباح الشتائي. أكره الشتاء وأكره الصباح ممّا ولولا إصرارها ماجئت إلى هنا. قرص الشمس يتوهج في عيني وأنا أغلق أجفاني -  
تيجي مكاني؟

- هو في الحقيقة يا ريت تغير المكان كله!

قمنا من على هذا المقهى الباريسي المشهور - والذي ظللت سنين أجتهد في حفظ اسمه المعوج - وسرنا في الحي اللاتيني. لم أفهم سر إعجاب الناس بهذا الحي ذي الشوارع الضيقة المزدهمة التي



تشبه حارات بلدتنا. وما عيب تلك الشوارع الفسيحة ذات الأشجار على الجانبين، ما عيب الشاتلزييه الجميل؟ ولكن لا، ليس موضه! سكث: «يا ما له حشوف منكم يا أهل البندراء» كانت ما زالت تتكلم، وأفتت على صوتي وأنا أرد عليها، كان الحديث فيما يبدو يدور حول التغيرات التي تطرأ على مصر. لم تكن قد زارت مصر منذ انتقلت للإقامة مع أمها الفرنسية. وأنا سعيد لأنني في باريس لأول مرة ولأنها تطوعت للقيام بدور المرشدة السياحية. ولكني محبط بعض الشيء:

- أين مدينة النور والتقدم من هذه المدينة العادية الممتدة من حولي بلا مجد ولا إبهار؟ بمبانيها المنخفضة وسقوفها السوداء الكثبية؟

ضحكت:

- هذه هي فكرتك أنت عن باريس، ولكن باريس الحقيقية كانت هكذا دائماً. أنتم العرب تضخمون صورة الغرب في أذهانكم ثم تريدون من الحقيقة أن تهركم أكثر من خيالكم.

التفتت بليلى في المؤتمر وتصادقنا بسرعة حول مصر وأخبارها وحول فرنسا والغربة والفن والصحافة والعمل والعودة، وحول مشكلتها الأزلية في التوفيق بين كونها مصرية وفرنسية في آن واحد والصراع الذي يمتلئ في نفسها من جراء ذلك. حدثني عن انجذابها لكل ما هو مصري عندما تقيم في باريس ولكل ما هو فرنسي عندما تقيم مع أبيها في مصر. ليلي ابنة وزير سابق وأحد

كبار رجال الأعمال، وهي تسخر من هذا طيلة الوقت وتحديثي عن راسمالية القطاع العام، وأنا أضحك مندهشاً. صحيح ألا أحد مرتاح! عندما انفصل والداها ظل أباهما في مصر وعادت أمها، المناضلة اليسارية القديمة، إلى باريس بعد إحباطها من فشل التجربة في مصر، الزوجية والسياسية، وأصبحت ليلي الموزعة عاطفياً موزعة أيضاً جغرافياً. قضينا اليوم كله سوياً وعند الليل قادتي لفنديني وسلمت عليها مودعاً فاحتفظت بيدي بعض الوقت في يدها. ابتسمت في حياء وتلعثمت فابتسمت ومضت. لم أتم ليثها وأنا أفكر: هي تعلم أنني متزوج، قلت لها إني متزوج، وتعلم أنني هنا للمشاركة في مؤتمر لأيام ثم أعود ولا أرجع بعدها لباريس ربما أبداً. ولم أعاكسها، والله لم أعاكسها، ليس أدباً مني بل خيبة. ولكنها نظرت إلي وأطالت النظر وسلمت علي وأطالت السلام. كنت يربئاً فيما يتعلق بالنساء، واقتصرت مغامراتي حتى الآن على قراءة قصص إحسان عبيد القدوس خلسة من مكتبة أبي وعلى رحلاتي مع منى للقناطر والتي أنفست لزوجي.

لم أتم تلك الليلة وأنا أفكر. أيمكن أن أكون قد غزوت هذه المصرية الباريسية ابنة الحسب والنسب؟ وماذا يجب أن أفعل الآن؟ ما هي الخطوة التالية؟ أمسك يدها مثلاً؟ أم أقبلها سريعاً؟ ولكن في أي سياق؟ هل أدعوها للسبينا؟ أو للرقص (لكني لا أعرف كيف أرقص)؟ أو للسباحة (كنا في الشتاء)؟ في اليوم التالي كانت على باب الفندق عند الصباح وأخلتني للإفطار.

- لقد قررت الاستيلاء عليك اليوم، سيفوتك الحديث المهم الذي  
سيقولونه في المؤتمر!

.....

لم أعترض، طبعًا. قضينا اليوم معًا، وذهبنا للسينما (ولم أجرؤ  
على لمس يدها) وللغذاء وللمتحف وللحداائق ولمرقص في الليل  
(وتظاهرت بأن الإرهاق يمنعني من الرقص)، وعدنا لفندقنا في  
المساء وسلمت عليها مودعًا حين مالت عليّ وقبلتني بسرعة ولوحت  
بيدها وابتعدت. وكان ذلك أكثر الأشياء عادية، وكان الصاعقة التي  
هبطت عليّ لم تمس سواي.  
ولم أتم تلك الليلة أيضًا.

ولم تظهر في اليوم التالي، ولم أمتلك الشجاعة الكافية للاتصال  
بها، لكنني ظللت في الفندق طيلة المساء لعلها تأتي أو تتصل، ولم  
تأت أو تتصل. وكرهت نفسي وترددت وخيبتني مع النساء وظللت  
أذكر أبطال إحسان عبد القدوس وجرائعهم ومعرفتهم وأشعر بنفسي  
تضائل (ولكنني على الأقل نمت تلك الليلة).

ظهرت في الصباح، شديدة الإشراف وضآة. وبدأت بتأملها  
أكثر: رشيقة القوام أقرب للنحافة، شعرها طويل وناعم وبني اللون،  
عسلية العينين، ورقيقة، رقيقة جدًا ولها غمازتان عندما تبسم. ذهبت  
في رحلة لجزيرة جبل سان ميشيل على مقربة من باريس. لكنني كنت  
مستغرقًا في سحرها أكثر من القديس ميشيل وجبله، وعندما قال لنا  
الموظف المستول بالفندق أننا لن يمكننا العودة لباريس في ذاك

المساء بسبب سوء الأحوال الجوية ومنسطر للعبث هناك غرقت  
في السحر أكثر. بطريقة ما، انتقل مصدر الإبهار من باريس إلى ليلى  
التي أخذت على عاتقها شرف الدفاع عن الجلال الفرنسي، وفي  
ظل القديس ميشيل وعلى بركته، محاطًا بهذا الجو الأسطوري،  
غرقت في السحر دون تفكير. يومين؟ بل ثلاثة، قضيتهم معها في  
هذا المكان الأخاذ المحاط بالبحر من كل جانب، وعوضني برق  
المغامرة عن برد البحر في هذا الوقت من السنة، واحتملت ليلى  
سخاقتي وشكواي المستمرة (من الشمس، من البرد، من الطعام،  
من الجمال، من غياب مصدر للشكوى) وبدا عليها حتى أنها تستمتع  
بهذه الشكوى. ولكنني كنت أنظر في ساعتني وأعلم أن لدي طائرة  
ينبغي عليّ اللحاق بها، وأعضاء وفد ينبغي أن أيرر لهم غباي وبقيّة  
جولة في بلدان أوروبا الأخرى ثم زوجة تنتظرني في القاهرة وعمل  
ونهاية لهذا الحلم الرائع.

لكنها حملت حقيبتها وجاءت معي، أو بالأدق جاءت خلفي. على  
مدى شهر كامل وهذه المجنونة تحمل حقيبتها وتساغر أينما أسافر  
وتقيم أينما أقيم دون الظهور علانية معي ثم تأتي إليّ متخفية بعد  
نهاية يوم العمل أو المؤتمر أو اللقاء أو الزيارة وتقضي بقية الوقت  
معًا. ومع اقتراب موعد عودتي للقاهرة بدأت هي في الاضطراب  
وبدأت أنا أشعر بالقلق. ولكنني في النهاية نجحت، بما جاتني به الله  
من قدرات لفظية، في إخراج مشهد النهاية في هدوء وود ورحلت  
عائلاً.

هل علمت مني؟ هل أخبرها أحد؟ أم إنها شعرت وحدها؟ قالت  
 إني تغيرت. هل كنت قد تغيرت فعلاً أم هي التي تغيرت؟ كانت مني  
 تزداد هدوءاً مع الوقت، وتقضي وقتاً أطول في أعمال المنزل أو  
 الحديث عن الأقارب أو زيارتهم أو دفعي لثقتي زيارتهم. وبدأت  
 فترات الصمت تمتد بيننا حتى صارت تغلب على فترات الحديث.  
 ثم انتهينا بالإقلاع عن الخروج للغداء. وكانت محاولاتي لدمجها  
 في شلة الأصدقاء والصدقات من الصحفيين والكتاب قد باءت  
 بالفشل. وأصبح عليّ توزيع وقتي بين البقاء معها أو مع أصدقائي  
 وأقربائي. هل كنت أقارنها سرا بليلى؟ نعم، في أعماق أعماق نفسي  
 كنت أقارنها بها ولكني لم أعترف بذلك أبداً، ولا حتى لنفسي. كان  
 الفتور ينمو بيننا، وكلما حاولنا دفعه كلما أظهر مدى تغلغله في  
 حياتنا. ثم جاء الحمل الثاني ككارثة أخيرة. كنا - قبل الزواج - قد  
 اتفقنا على تجنب الإنجاب لخمس سنوات (مثل كل الشباب المقبل  
 على الزواج الذين شاهدناهم في الأفلام)، لكنها حملت سريعا، ولم  
 أستطع الاعتراض في وجه الفرح التي اعترتها وبهجة أُمي وفخرها  
 بابنتها البكر. وأنجبت أبة، وزاد التباعد. ثم جاء الحمل الثاني (كانت  
 أبة قد أكملت عامها الأول بالكاد) وقالت مني إن الحمل كان خطأ  
 في الحساب، وقلت لها إننا يجب أن نوقف الحمل. صرخت في  
 وجهي، وسحبت حقيبتها من على المنضدة الممتدة بيننا وجرت  
 خارجة، وتحطم بيننا شيء لم يتصلح بعد ذلك.

شعرت مني بالإهانة، وجرحت. جرحت كثيراً، أكثر مما ظننت  
 أنها ستجرح، لكنني وقتها لم أكن مستعداً لإطلاقاً لتلقي طفل آخر

والتحول إلى أب كامل. وانصاعت لقراري الذي أصررت عليه،  
 وكنا صامتين حين خرجنا من المستشفى بعد العملية، ولم نتحدث  
 عن ذلك بيننا بعدها أبداً. ولكن الألم ما زال يعترضني وأشعر بيد من  
 حديد تخنني من وسطى كلما فكرت في تلك الحادثة. كان سيصبح  
 لي طفل، ولم يأت، لأني منعه. كانت هناك إمكانية، وأجهضتها. كان  
 هذا هو القرار السليم في وقته، لم يكن أمامي حل آخر، لكنني ما زلت  
 حزينا وأسفاً. سيقول البعض - وسأقول معهم - إن الإمكانية موجودة  
 دائماً وإن وقفها في مراحلها الأولى لا يختلف كثيراً عن منعها. ذلك  
 كلام منطقي، ولكن الكلام شيء، والنزاع للمستشفى وبعث امرأتك  
 بحمل نطفة جنين ثم الخروج منها وبعثها غاوية شيء آخر تماماً.

في العام التالي كان الفتور قد تحول إلى صمت مديب، يجرنا  
 كلما التقينا. وكنت قد قطعت عن ليلى لشهور في محاولة لإنقاذ  
 الموقف مع مني. ثم جاءت ليلى للفاخرة وأقامت بها عدة شهور  
 نقتت خلالها ما بقي من روابط بيني وبين مني. وفي نهاية العام كانت  
 النهاية واضحة لكيلا فافترقا بلا ضجة. ولم يكن ذلك مفاجأة لي،  
 فقد بدا الطلاق حتمياً منذ العام الأول تقريباً، المفاجأة الحقيقية أنني لم  
 أحتمل ليلى بعد ذلك كثيراً. كانت وقتها الزائدة مع الناس مبعث توتر  
 دائم، وكان انطلاقها مثيرة لأعصابي وكذلك اعتيادها الأرستقراطي  
 على الأناقة والفخامة والكمال. وبدأت لي أفكارها وثورتها وثافتها  
 مبالغة في تعقدها ولا تخلو من تحذلق (في حين كانت هي تنهمني  
 بالشعبية - وكانت تقولها بالفرنسية، ولست واثقاً أنني أفهم ما تعنيه  
 هذه الكلمة). كانت الغربة التي تستقر بيني وبينها تدفعني للحنين

سرا إلى منى، مما كان يزيد من توترى. وبعد ستة شهور بالضبط من طلاقى لمنى، تركت ليلى وانتقلت للعيش في شقة صغيرة بالميل، وعادت ليلى إلى باريس.

بصيص من الضوء يدخل أجفاني وأنا أجاهد لأغلقها في هذا الصباح الشتائى. أكره الشتاء وأكره الصباح ممّا ولولا إصرارها لما جثت إلى هنا. قرص الشمس يتوهج في عيني وأنا أعلق أجفاني.

- تيجي مكاني؟

- هو الحقيقة لو ممكن نغير المكان كله؟

هكذا بدأت المحادثة التي أفقت إلى انفصالنا. كنا جالسين في غرفتنا في فندق فلسطين بالإسكندرية. ما الذي يأتي بأحد إلى هنا في الشتاء غير الجنون. هكذا بدأت المناقشة (كم أكره المناقشات مع النساء). تناقشنا، وأعلنا اختلافنا، ثم عرّ لي الإمعان في بيان الخلاف، ثم تحدثنا عن الاختلاف بيننا، ولسب غامض دفعني ذلك لمزيد من التحدي: أنا كده، وكلام من هذا القبيل وكلام جر كلام ثم صمت ثم صوت الريح على البحر ولعمعان الشمس في عيني وإحساس عام وغامر بالضيق وبأن كل ذلك غريب وسائر إلى نهايته، ثم دفعت الأمور للمحافة ووقت أنفجح عليها تهوي للفاع. رحلت هي وظللت وحدي في الغرفة قبل أن أجمع حاجياتي وأعود للقاهرة في سيارتي الصغيرة.

كم مرة فعلت هذا؟ كم امرأة تركت؟ كنت أعد في ذاكرتي النساء اللواتي عرفت، أكرر أسماءهن في ذهني، ثم صرت أكتب الأسماء

على ورقة المطعم وأنا أنتظر الشاي، ثم بدأت أنسى بعضهن حتى توقفت عن العد. كان طلاقى لمنى وتركى ليلى نهاية لفكرة الاستقرار ذاتها، ومن يومها لم أنم جيدا - حتى هذه اللحظة. قالت لي سلوى إنى غير قادر على الارتباط، وإنى أحب حتى أناك من أنى قد نلت الحب ثم أضجر ممن أمامي، وقالت فاطمة إنى مريض نفسيا، وقالت داليا الشاوي إنى زير نساء. سامحك الله يا دكتور، من كان يصدق أن نصل لهذا في يوم من الأيام؟



كيف فصلت من عملي بالمجلة؟ القصة المتداولة تقول إنى استقلت احتجاجا على عدم نشر بقية مقالاتي المعارضة لزيارة السادات للقدس، ولكن الحقيقة أنى تركت عملي بسبب سذاجتي المفرطة. زيارة السادات للقدس، المقالات، منع النشر، كل هذا كان الواجهة التي تخفي حركة كاملة من الصراعات التي رحت أنا ضحية ساذجة لها. السيد رئيس التحرير، الأستاذ فتاوي كان «رجل الداخلية» في المؤسسة، في حين أن هناك آخرين كانوا «رجال الإعلام». بالطبع كانت شبكة التحالفات أعقد من ذلك، ولكن هذا هو المختصر المفيد. مدير التحرير، الأستاذ محمد عبد الواحد، كان رجل الإعلام الأول. عندما عينت أنا سكرتير تحرير بالمجلة تمت ترقية محمد عبد الواحد مديرا للتحرير. كنت أظن وقتها أنه ترقى بالتعلق والرياء وقبول ما لا يقبل. ولكن هذا الرياء كان مجرد طريقته في العمل وفي تجنب الصراعات الصغيرة. الحقيقة أنه ترقى في إطار صراع بين

الداخلية والإعلام للسيطرة على المجلة، وكانت ترقته تأكيدًا لنفوذ الإعلام في المجلة. وقد قبل الأستاذ قناوي ضغط الإعلام لأنه لم يلمس من الداخلية دعمًا كافياً للحيلولة دون تنفيذ رغبة الإعلام. كانت الداخلية معنية أكثر بالتوجه العام، بسيطرتها العامة على المجلة أكثر من توزيع الكعكة داخلها. وعندما عينت أنا سكرتيرًا للتحرير (أي فرحة اجتاحتني وقتذاك) لاحظت امتعاض محمد عبد الواحد رغم أنه هو أول من دربنى وعلمني ألف باء الواقع العملي للصحافة، وفسرت ذلك وقتها بأنه غير الأستاذ من تفوق تلميذه الجارف. لكن الواقع أن تعييني سكرتيرًا للتحرير كان يعني أنني صرت محسوبًا على معسكر رئيس التحرير (وبالتالي معسكر الداخلية). وحين تم تعييني مديرًا للتحرير (وإعادة محمد عبد الواحد لمنصب سكرتير التحرير)، كان ذلك بمثابة إعلان سيطرة الداخلية الكاملة على المجلة، دون أن أدري. صحيح أنني كنت أعرف أن حلولي محل محمد عبد الواحد يشكل خطأ من شأنه أمام شاب هو في نهاية الأمر تلميذه، ولكنني لم أر أبعد من ذلك، لم أر دور الصراعات المخارجية ولم أدرك أبدًا أنني صرت محسوبًا على الداخلية التي لم أتعامل معها في حياتي. كنت مؤمنًا أن الموهبة لا علاقة لها بالعمر وأن هناك صحافيين استثنائيين في موهبتهم ومكتوب لهم (أو عليهم) أن يلمعوا أكثر من كل من ساهم في تعليمهم مجتمعين. من منا يذكر أو حتى يعرف أساتذة التابعي أو هيكل أو مصطفى وعلي أمين أو أحمد بهاء الدين؟ كان هذا هو رد فعلي على كل من يشير موضوع حلولي محل أساتذتي من قريب أو بعيد: ليس ذنبي أن الله منحني موهبة، ولن يكون ذنب

القادم بعدي أن تكون موهبته أكبر مني. كان هذا كل تفكيري، ولم أكن أدري أن ترقيتي تعني إبعاد رجل الإعلام إلى هامش صنع القرار وتوطيد سلطة الأستاذ قناوي والداخلية. رأى الجميع القرار على أنه انقلاب للداخلية ضد الإعلام بالمجلة، كل هذا وأنا في الظلام أحسب الأمور بمعيار الكفاءة والموهبة.

ثم جاءت مقائلي الأولى ضد زيارة السادات للقدس. أذكر جيدًا أنها لم تعرض على رئيس التحرير وقتها، وأذكر أيضًا تعبير وجه محمد عبد الواحد عندما رآها. كان باعتباره سكرتير التحرير يجمع كل المقالات والمادة المرشحة للنشر ثم يجلس سويًا لتتفق على اختيارات، ثم أقوم أنا بمناقشة المادة كلها مع الأستاذ قناوي الذي نادرًا ما يدخل تعديلًا أو اثنين أو يراجع محمد في أمر أو اثنين. وبحكم دولا العمل الأسبوعي والطابع التكراري للمجلة فإن المادة الثابتة (المقالات الأسبوعية، الأعمدة الثابتة) نادرًا ما تعرض على رئيس التحرير ونكتفي بمراجعتها أنا ومحمد عبد الواحد. أضاء وجه محمد عندما رأى مسودة المقال.

- إيه؟ عجبك؟

- دي ممتازة.

- مش جريئة شوية؟

- جريئة طبعًا، إنت عايز تعارض وماتقاش جريء؟

- يعني مش محتاجة تعديل؟

- تنزل زي ماهي. دي الحلقة الأولى من سلسلة مش كده؟  
- أيوه.

- على البركة.

وقد كان. اتصل رئيس التحرير فور أن رأها (كان العدد في السوق بالفعل) وهو يصرخ في التليفون متهمًا إياي بالجنون ومعلنًا عدم مسئوليته عما سيحدث لي إلى آخر ذلك. واستشاط غضبه أكثر عندما سأله إن كان ذلك يعني منع بقية السلسلة من النشر معتبرًا أن السؤال في حد ذاته دليل على غياب كامل للإحساس بالمسئولية. لم يكن الحديث معه مجدديًا، لا في ذلك اليوم ولا في الأيام التي تلت. وظننت أنه مجرد جبن سياسي من رجل يحافظ على موقعه، والذي لم أعلمه وقتها أن ذلك كان توريطًا له مع الداخلية وطعنة في مصداقيته لدى الوزير شخصيًا. الذي حدث طبعًا أن الوزير أخرج أمام الرئيس الذي علق ساخراً على مدى سيطرة الوزير على مجريات الأمور في البلد في حين كان وزير الإعلام يتسم في هدوء المتصر، ومن ثم عاد الوزير إلى مكتبه وصرخ في رجاله الذين أيقظوا الأستاذ قناوي من النوم وصرخوا فيه (لم يكن قناوي قد قرأ العدد بعد، مما زاد الطين بلة) الذي رفع السماعة بدووه وصرخ في.

كنت قد عزمت على الاستقالة من منصب كمدبر تحرير عندما دخلت مكنتي ووجدت محمد عبد الواحد جالسًا فيه وقد وضع أوراقي ومتعلقًا بالشخصية داخل كرتونه.

• • •

بصيص من الضوء يدخل إلى جفني وأنا أجاهد لأغلقهما وهما لا يغلقان، هل عاد عمال الإنقاذ أم هي هلاوس ما قبل الذهاب. أحس نفسي ضعيفًا ضعيفًا، وصغيرًا وضالًا ويتيمًا. أين أنت يا أبي، أين أنت؟ ثلاثون عامًا وأنا أسأل هذا السؤال، بلا مجيب.

• • •

أين هذا من الحلم الأول؟ متى فقدت الأمل في الحلم وقبلت الواقع؟ ما هي اللحظة الفاصلة بين أنا القديم، ذلك الحالم الساعي لتغيير العالم، وبين أنا الذي صرت؟ في أي يوم، في أي ساعة، في أي لحظة فهمت أن الحلم حلمًا وأن الواقع واقعًا؟ أكان ذلك أيام الجامعة، عندما ضربتنا قوات الشرطة بالهراوات وأتقت بنا في السجن لأننا نطالب باستعادة كرامة بلدنا؟ أم عندما هاجر أعز أصدقائي علامة على اليأس؟ أم عندما علمت أن تلميذي النجيب وابني الروحي قد مات في الحبس؟ أم في دهاليز المجلة في سنة التدريب الأولى وأنا أرى القيم تتساقط الواحدة تلو الأخرى على يد أساتذتي والكتاب الذين كنت أحلم يومًا بالحديث إليهم؟ أم بعد ذلك، حين عدت للمجلة منتصرًا على أعدائي القدامى وصرت رئيسًا للتحرير ووجدت من الضروري استخدام نفس الأساليب التي كنت أحقرها وأنا صغير؟ أم حين شعرت بالغربة عن إخوتي وأنا جالس معهم وأود الذهاب بعيدًا عنهم ولا يمنعني سوى الأدب وحسن التربية؟ أم حين اكتشفت أن أعمامي سرقوا ما ورثته أمي من أبي؟ أم حين أحسست لأول مرة - حين عدت بعد غياب طويل - أن بيتنا

صغير ومتهالك وفقير وأن الرطوبة نشعت في الحمام وأسقطت  
الظلام وأن حديقة أشجار البرتقال ليست سوى فسحة قدرة بها  
شجرتان ميتتان يكسو أوراقهما غبار قديم؟ أم عندما ماتت أمي، نبع  
الحنان الوحيد الذي كان لي؟

لا أدري في أي لحظة مات الحلم، لكنني عرفت أنه قد مات حين  
جلست مع الرجل الذي قتل تلميذي وابني الروحي - يحيى إبراهيم،  
وشربت معه الشاي. العقيد سمير، الذي أصبح لواء، قابلني في شرفة  
الميريديان وتبادلنا الحديث المهذب وشددت على يده وجاملته  
بكلمتين دون أن تختلج في وجهي عضلة واحدة، دون أن أشعر أن  
في الأمر شيئاً غريباً. نسيت؟ وكيف أنسى!

قال لي يحيى إبراهيم وهو على فراش الموت بالمستشفى:

«كنت جالساً في غرفة الحجز واضعاً رأسي بين كفّي، وكان الدمع  
يسيل من عيني مدراراً لا أستطيع وقفه، وكانت الدنيا ظلاماً أو شبه  
ظلام. لا أدري، فلم أكن أرى جيداً منذ كسر نظارتي. كانت أطراف أبي  
وأخوالي وأمي وأختي وأخي الصغير تدخل عليّ الغرفة وتجالسني.  
كان أبي يقرعني لأني لم أسمع كلامه ولم أصدق أن هذه الصحبة  
ستعود عليّ بالضرر، وكانت أمي تحضر لي طعاماً. وأختي تشكو لي  
موت ولبدها الذي حز قلبها وأدمى قلبي، وأخي يسألني متى أخذه  
للقاهرة. كنت أنظر إليهم من حولي ولا أراهم ولا أرى غيرهم. فتح  
الباب فأتيلج ضوء لا أدري كنهه ولا مصدره، ودخل عليّ شيخ شخص  
مترنح ثم انهارت بجوارتي كتلة بشرية ومستني فالتفتضت. سمعت تنفساً

ثقيلاً كأنه يخرج من بين رجلي وجاء صوت أعرافه يناديني. كان هو،  
فخر الدين عيسى. التفتت به. كان مريضاً، كأن به حمى أو شيء كهذا،  
ويتنفس جسمه كله. وكان غزير العرق مبتلاً بكامله. حدثته فلم يرد  
عليّ، وكانت حشرة أنفاسه تصك أذني. ناديت الحرس فلم أسمع  
رداً، سألت فخر الدين فلم يرد عليّ، فمت إلى ما كان مصدر الضوء  
وتحسسته. هو الباب. خبضت عليه بيدي وقدمي ورأسي وصرخت.  
لا أحد يرد. عدت إلى فخر الدين، وطفقت هكذا: بين الباب وفخر  
الدين حتى الصباح، كان فخر الدين قد بردت حرارته، وسكنت حرركه،  
وذهبت الحمى عنه، وذهب عني. راح، راح الاستثنائي، راح أروع من  
في حياتي وأهم ما فيها، راح ورحل عني وتركتني أواجه هذا الحزن  
البغيض وحدي. ظلمت أصرخ حتى فقدت الوعي وحين أفقت كان  
وجه العقيد السمح أول ما رأيته. استقبلني العقيد سمير بابتسامة  
واسعة، وحين سألته عن فخر الدين ادعى عدم معرفته به. كنت مرهقاً  
ولا طاقة بي لهذا الهراء. صمت وغطيت وجهي بكفّي، ألم في كفّي.  
صمت، ثم عرض عليّ - بصفاقة لا تصدق - أن أشتغل جاسوساً للأمن،  
الأمن الذي قتل صديقي منذ ساعات. لم أستطع أن أمسك نفسي،  
فمت نصف قومه حتى صرت قريباً من وجهه المبتسم وبما بقي في  
من قوة بصقت على وجهه. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية واحدة،  
كان بقايا البصاق ينقط من على وجهه الأخذ في الاحمرار وابتسامته  
المجمدة ميتة ونظرته تتغير، تراجع وجهه قليلاً، وعاد للمكتب حيث  
النقط متديلاً ومسح به وجهه. نظرت إليّ في هدوء ميت وضغط بإصبعه  
على جرس بجوار المكتب.

كان يحيى إبراهيم ابني الذي لم أنجيه، والوحيد المؤهل لخلافتي. مصنوعاً من نفس المادة، ولديه نفس الموهبة، ورأيت في رعايتي له عمل الخير الوحيد الخالص من أي غرض والذي أستطيع أن أكفر به عن مساوماتي العديدة. كان يحيى في المستشفى بعد القبض عليه في مظاهرات نظمها مع زملائه بالجامعة. وقمت بالاتصالات الضرورية للإفراج عنه، لكن التزييف الداخلي الناتج عن الضرب المبرح الذي تعرض له بقسم الشرطة كان قد بدأ، وتوفي بعدها بيومين.

عندما قابلت اللواء سمير في الميريديان بعدها بسنوات، كان يتسم نفس الإيسامة التي كانت له عندما قابلته أثناء التحقيقات التي تلت وفاة يحيى، ولوجهه نفس السماجة. ذكرنا عرضاً الأيام الخوالي وعاتب كل منا الآخر من بعيد وكأنه يدافع عن موقفه دون رغبة حقيقية في فتح الموضوع. كأننا نرسم خطاً حول الموضوع لنخرجه من الحديث، وقد كان، وتكلمنا في موضوعات كثيرة وتبادلنا معلومات هامة وأخرى أقل أهمية وتآمرنا قليلاً بتواطؤ غير معلن (حرصته على شخص ما في مجلس النقابة فأبدي استعداداً «لبحث الموضوع» وطلب مني تخفيف التشهير بدولة عربية شقيقة فأخبرته بأننا «ربما» نبدأ حملة على الأدوية الفاسدة في الأسبوع القادم لأن الحملة الخاصة بهذه الدولة قد استغذت «معظم» أغراضها). وفي غمرة الحديث نسيت أنه العقيد سمير الذي أشرف على تعذيب يحيى إبراهيم، وحين تذكرت ذلك وأنا في طريقي للمجلة عرفت أنني قد فقدت سلاجتي القديمة.

أظن أن هذه كانت اللحظة الفاصلة بين الحلم والواقع.



وضعت سلوى حقيبتها على الأريكة المواجهة للتليفزيون، سألته وأنا ذاهب للمطبخ إن كانت تريد أن تشرب شيئاً، فساءلت بدال عما إذا كان هناك ما يمكن شربه في هذا البيت القوضي، فقلت إن القوضي أم الاختراع (لا أعلم بالضبط ما معنى ذلك) وعدت إليها بزجاجة بيرة أخذتها وهي تميل على المكتبة تتفحص عناوين الكتب. جلسنا نتحدث عن المجلة وعن الصحفيين وعن القاهرة والنيل والقضية الفلسطينية وتراجع التأييد الشعبي للفلسطينيين وعن أهلها والسفر للخليج والجامعة والجماعات الإسلامية والزواج والسعادة وتحقق اللات وقمت لأنني لها ولي بزجاجتي بيرة آخرين وعندما عدت كانت منحنية على دولا ب شرائط الموسيقى تنتقي شريطاً فأمسكت بها برقة من ظهرها وضممتها إليّ قانضمت والتفت وتعانقنا ووضعت شفتها على شفتي فقبلتها بعمق وأنا أفكر في ضبط ترويت حركة يدي على جسمها حتى لا أنفرها بحركة زائدة ولا أحبطها بلمسة ناقصة. أكاد أرى الحركة التالية منها ومني، سأضع يدي على وسطها ثم أمسك بظهرها وأضمها إليّ أكثر وأقبلها أعمق وأنا أحل لها مشبك حمالة صدرها، وهي تلقي بمزيد من حملها على ساعدي فنجلس على الأريكة أو الأرض وأنا أحس بقية جسمها شيئاً فشيئاً وأجردها من ملابسها شيئاً فشيئاً ثم أنزع ملابسها بسرعة بيد واحدة ويدي الأخرى فيها، ونظّل هكذا حتى تذوب تماماً في رغبتي فأتبها مطولاً حتى نأثي



صوتاً وأشعر بهذا الاحتقار الهائل لي ولها ولما نفعله على أرض هذه الشقة التي تعمها القوضى ثم نرتدي ملابسنا وتبادل شبه حديث وأنا أوصلها المكان ما متزجراً بموعدا ثم تصبح لقاء التاروتية أكثر وتخلع ملابسنا في هدوء في البداية وتدخل في الفراش وكل منا يعلم طريقه أفضل حتى نصل إلى نفس اللحظة ونفس شعور الخواء وأوصلها ثانية وهكذا دواليك حتى أبدأ في التهرب منها وهي تحاول إعادتنا لسيرتنا الأولى ثم تفهم ألا فائدة فتذهب حاتقة علي وتنتقم لنقابة العشيقات السابقات. كنا ما زلنا نبادل القبل وأنا أفك لها مشبك حمالة صدرها حين عادت للوراء ثانية وقالت:

- دي حاتكون أول وآخر مرة.

قلت بهدوء:

- طيب وليه؟ مقيش داعي: ياللا بينا.

أعدنا هندمة ملابسنا التي لم تتح لها الفرصة للمخلع وخرجنا من البيت، تذرعت بموعد لدي وأوصلتها لبيتها وذهبت.

• • •

هناك صور لا تمنحي من الذاكرة أبداً. مثل هذا الجدار الأسمتي الذي يسد الدنيا (والموت) عني. مثل النظرة التي رأيته في عيون حراس الأمن وعامل المصعد وأنا أتوجه لمكتبي في نوفمبر ١٩٧٧ حين وضعت قدمي على مدخل المجلة ووقف حراس الأمن بحيوتي في ارتباك. رأيت هذه النظرة في عيونهم، ارتجت مقلتنا عامل المصعد

عندما التفت عينانا وهو ينظر إليّ خلسة، عمال البوفيه ومقوني بنفس النظرة وهم مصطفون في الردهة الضيقة المؤدية لمكتبي، عندما وضعت يدي على مقبض الباب فهمت فجأة معنى هذه النظرات لكن الألوان كان قد فاتت ووجدت نفسي بالفعل داخل المكتب أنظر إلى سكرتير التحرير جالسا مكاني وقد تكومت أوراق في كرتونة.

• • •

ما زالت أضواء سيارات الإسعاف اللعينة تلمع من بعيد، وأصوات عمال الإنقاذ تأتي في لهجة سودانية لم أتصور من قبل أنني يمكن أن أحبها لهذه الدرجة. أهي فعلا أصوات وأضواء أم إن هذه ضجة عالم ما بعد الغيبوبة؟ أما زلت تحلم يا أشرف؟ يا تلميذ مدرسة المنصورة الثانوية التابع؟ أما زلت تراود نفسك عن حزنها وتمنيها ببعض الأمل؟ ألم يضع الأمل كاملا وإلى الأبد؟ لا، ما زال قلبك اللعين ينيض تحت الجدار الزجاجي الصخري الذي يغلغه. لو أنه كف لكنت استرحت من الجروح ومن الحزن ومن الانتظار ومن الملل، لكنه ما زال يجررك خلفه في طريق الزجاج المكسر تغرس شظاياها في قدميك. لماذا لم تجدك تلك الرصاصات العمياء؟ ولماذا لا ينهار ذلك الجدار الأسمنت المعلق فوق رأسك؟

• • •

موسم الموت أتى.

وصلني خطابه في أول أكتوبر، وبعدها بأسبوع وصلني نبأ موته. بدأ الموسم الحزين وأخذ يطيح بما بقي من أخضر في حياتي. موت

ناصر في نيويورك أتى كالجنازة الأخيرة، كسقوط آخر الأشجار. سافرت إلى نيويورك كأنما أذهب عكس الزمن، كي أوقفه. كأن فارق التوقيت سيوصلني إلى ناصر في محطة المترو فأجذبه من على الرصيف قبل سقوطه الأخير ومرور المترو على قلبي وقلبه. سأجذبه وأنشئ بقايا الحلم وبقايا العمر والأيام والصدقة القديمة. سأجذبه بعيداً إلى كوب من الشاي في شرفة منزله بالمنصورة، إلى زجاجة بيرة في «الكاب دور» بوسط البلد، إلى تمشية طويلة في ليل القاهرة الموحش وإلى ضحكة خفطانها سويًا وإلى رواية قرأناها. ليحدث ما يحدث يا ناصر لكن ابق هنا ولا تذهب أبعد مما أنت. لنذهب السياسة والصحافة والحرية والوطن إلى حيث يذهبون ولكن ابق هنا، قليلاً، من أجلي، من أجل أمك. سأجذبه وأنشئه من برائن الغول الذي يحصد أرواحنا، سأمد يدي وأجذبه قبل مرور المترو الأخير. مدت يدي، لأرفع التابوت وهو يدخل بطن الطائرة الصامتة، والهواء يلفح وجوهنا في مطار كيندي المخصص للأحزان. دفعت التابوت داخل بطن الطائرة وظللت واقفاً لا أدري ماذا أفعل بنفسي. ظلت يدي قابضة على يد التابوت وظلت يد قابضة على قلبي تعصره.

لو صبروا عليّ لمت وحدي.

ماذا كنت ستقول يا أبي فيمن رماني بالكفر حين قلت إننا بشر وأن البشر سواسية؟ ماذا كنت ستقول في القاضي (رمز العدالة والميزان) الذي أصدر حكمًا بأنني مرتد حتى ولو قرأت الشهادتين على الملا؟ أنا يا أبي، أنا الذي سقيته حب اللغة والقرآن والصوم،

أنا الذي كنت تقضي الأمسيات تحفظه الآيات وتمتحنه في نحوها وصرفها، أنا الذي سقيته حب شجر الحديقة، ثمار الحقل وجمال الشارع التنظيف المرشوش بالماء في الظهيرة، حب الجيران والمدينة والحياة، أنا يا أبي، أبنتك، قررروا أنني مرتد وخارج. فعلت غيرا يا أبي حين ذهبت مبكراً.

أخذتني أمي في حضنها. جاءت إلى بيتي بالقاهرة وأخذتني. حاول إخوتي منعها ولكن تلك السيدة القوية الذكية أدركت أن هذه هي اللحظة التي يجب أن تدخل فيها وتتشلني. أخذتني في حضنها. كنت طفلاً صغيراً باكياً ومنهزماً ومستسلماً وكانت دموعي تنهمر دون مقاومة وتملأ عيني وزجاج نظارتي والكون كله. لم أعد أرى شيئاً ولم أعد أريد أن أرى شيئاً. أخذتني أمي في حضنها حتى نهاية العام. أخذتني وأغلقت الباب علي وأبقت الموت خارجاً. كانت دموعي تنساب مع المطر الشتوي وهي تحول بيني وبين صحفيي المجلة والراديو والتلفزيون والتليفون والجرائد. المطر على الزجاج في الخارج، وصمت طويل طويل. المطر، هذه الرحمة التي تنزل علينا من السماء لتغسلنا. يأتي صوته بعيداً من الخارج وأنا ممدد على الأرض واضعاً رأسي بين يدي ملاك الرحمة الذي انتشلني. ثلاثة شهور وأنا أغيب وأعود بين أبي ويحيى إبراهيم وناصر والجنتين اللتين سقطتا بدلا مني في شارع الجلاء، أذهب وأعود إلى وجه أمي: عينها الضيقتان السوداوان وشعرها المنساب وحنان يدها تربت على جبهتي. ثلاثة شهور وأنا أغفط وأطفئ بين القطة والحلم والموت، كنت جرادة، وكنت أعوم على سطح النيل، وكنت أكل الورد وأقتلعه

بأساني وأفته قطعاً تطفو على تيارات الماء الصغيرة نحو الشاطئ، وكنت أغرق في النيل وأتثبت بالورد العالق على سطحه، وكنت أطفو وأجنح إلى الشاطئ.

\* \* \*

جميلة سارة، أجمل امرأة عرفتها، رغم سمار بشرتها، ورغم نحافتها. جمال سارة ليس في جسمها (بالرغم من اعتقادها الشخصي في جماله غير المسبوق) وإنما في روحها. سيدو ذلك مضحكاً، في ضوء أن علاقتنا لا يمكن وصفها بأنها روحانية بأي حال من الأحوال. مع سارة اكتشفت أن جمال المرأة يكمن في روحها، في تعاملها مع الرجل ومع جسمها، في حركتها، في استجابتها وفي شعورها هي بالرجل وبفسها. هذا هو بيت القصيد، أما الباقي فمحض ديكور. وأنا لا أذكر جسم سارة ولكن أذكر إحساسها، وعندما أغمض عيني أرى ضحكاتها الماكرة البريئة، وأرى سعادتها الحقيقية عندما تكتشف في ثلاثتي قالباً من الشكولاتة، وأرى نظرتها الطفولية الحاقدة على امرأة تسير في الشارع وترتدي ثوباً جذاباً، وأرى انهماكها في مشاهدة قناة الأزياء ومجلاتها، وأرى وجهها وتعبيراته ونحن نتطرح الغرام، وأرى بشرتها أصفى ونحن نرتاح بعدها. سارة. ملخص للنساء كلهم. سارة الصغيرة، الصحفية بالمجلة، تبدو هادئة وطيبة ومنطوية، أكاد أضحك الآن عندما أفكر في أنني اعتقدت للحظة أنها منطوية. أعرفها عرساً من صداقتها القديمة لداليا الشناوي (لا أعرف ماذا يمكن لهاتين المرأتين الحديث عنه سوياً)، وتحادثنا

لأول مرة حديثاً حقيقياً حين أوصاني عليها صديق ما، وخرجت من مكتبي وأنا أحمد الله لأنني كنت متأكدًا أنني لا يمكن أن أقيم معها أي علاقة تتعدى المساعدة المهنية. لم أجدها جذابة بالمرّة، مجرد سيدة مجتهدة شديدة الهدوء وسمراء ونحيفة ولا ينقصها سوى نظارة سمكة كي تكون واحدة من تلك الفتيات المجتهدات المتواجدات في كل فصل في كل مدرسة.

عادة، أرشح أي امرأة أقابلها لدور العشيقة حتى يثبت العكس، وهذه ليست غلطة النساء اللواتي أقابلهن بل مشكلتي أنا. فأنا لم أصمم كي أعيش دون امرأة، دون مصدر للحنان والاحتواء والعاطفة. ثم يصيني الملل سريعاً ويتملكني شعور لا إرادي بالاحتقار لنفسي ولها، أياً كانت. ثم تحدث مشكلة أو أقتل مشكلة ونترك بعضنا بعضاً، ثم أجد نفسي وحيداً من جديد وفي حاجة لامرأة من جديد. وهكذا، فإن معدل الطلب على النساء في حالتي مرتفع، مما يجعلني دائم البحث عن ترشيدات جديدة.

بعد أن استبعدت سارة من قائمة المرشحات، توطدت علاقتنا المهنية ووجدتها موهوبة فعلاً، وبدأت أسند إليها أعمالاً هامة في قسم التحقيقات، وقد أنجزتها كلها ببراعة. ومع تقدمها المهني زالت الكلفة شيئاً فشيئاً وحلت محلها الألفة، وذات يوم وجدت نفسي أقبلها على شفتيها وهي تشدني إليها. كنا في منزلي وكنت قد أعددت لها القهوة وهي جالسة تحكي لي شيئاً عنها وعن شاب تركته منذ عشر سنين وأنا واقف خلف زجاج شرفتي أستمع إليها

وأرقب النيل. قامت ووقفت بجاني وعلقت على جمال النيل ثم التفت إلي، نظرت إلى نظرتها ووجدت نفسي أميل ناحيتها وهي تميل ناحيتي فقبلتها، هكذا دون سبق إصرار أو ترصد. ثم تعانقتا، وفتحت طاقة لم تنفلق من وقتها.



أجلستني أمي قبلتها على مائدة الطعام بعد أن أخلت الغرفة من أخواتي البنات (كان أخي الصغير كالعادة غائبا بالجيش). ليل بيتنا ساكن. لمعلمت أطراف طرحتها البيضاء الشفافة ووضعت كروب الشاي أمامها وهي تبحث عن بدايات الكلام. تبدو متعبة، منهكة، مثل شخص سار أياما وليالي ووصل لثوّه وسحب كرسيًا ليجلس عليه ويرتاح. فكرت وأنا أنظر إليها: كيف يمكن أن يتركز الحنان في شخص واحد بهذا الشكل؟ هل يمكن أن يكون أحد هكذا؟ هل يولد البعض منا هكذا أم نصبحه؟ وفكرت في مني، كان لديها هذا الحنان نفسه. غريب، يشعرني غيابها بالفقد والاضطراب والراحة في نفس الوقت! أفنقد وجودها الذي يشبه وجود أمي المظمّن، ولكنني أشعر براحة عميقة لمجرد التفكير أنها ليست في حياتي. تنهدت أمي وواصلت حديثًا لم أكن أصغي إليه تمامًا حول البرد والشتاء والمطر وما يفعله شباب البلدة هذه الأيام لتنظيف الشوارع من برك الماء التي تجمعت. تحدثت عن شجرة البرتقال في الحديقة وعن عمي وأبنائه. كانت تتحدث عن أخواتي البنات وأزواجهن وأبنائهن فردًا فردًا، وعندما أنهت القائمة (كنت أعلم أننا سنصل لهذه النقطة)

سكنت لحظة ومسحت دموع من على طرف عينا وبدأت الحديث عن أبي. الرجل الذي لم يكن له نذ، الصول محمد فهمي ابن الحاج سيد فهمي شيخ البلد، قرة عين أبيه والبلدة كلها، كيف كانت تعد له بدله الميري الصيفية والشتوية والفارق في كيفية الغسيل والمكواة لكل واحدة، وشرائطه التي كان يضيفها لكتف البدلة الواحدة تلو الأخرى حتى صار صرًا. حكّت عن أبي كل القصص التي أحفظها عن ظهر قلب منذ أكثر من أربعين سنة، وحكّت عن غيابه الذي قسم ظهورنا جميعًا وجعلنا تحت رحمة العم المتحكم، عن وفاته التي طردت الفرح نهائيًا من البيت وأطفأت مصابيح. ثم أنا، أملها ودرتها ورجل البيت، صاحب الصيت والنقوذ (كانت أمي تنهر من جديد كل مرة ترى مدير الأمن أو المحافظ قادم لزيارتي أو متصلاً في التلفون).

- فيه إيه يا أمي؟

قالت أمي إنني وجل البيت الباقي، سند أخواتي البنات وأخي الصغير، وسألتي بصراحة عن واجبي الأول هل هو حماية بيتي وأهلي أم الجري وراء الصحف والأفكار والسياسة والخناقات والرصاص الأعمى في شارع الجلاء. «وحكسب إيه إذا لا قدر الله حصلك حاجة؟ لكن وجودك، حسك في الدنيا، هو سندنا كلنا». سألتني أمي لماذا أندفع خلف كلام الكتب والأفكار المجردة. كنا نشترى لك الكتب كي يفتح عقلك وتتفوق في دراستك وتتقدم في حياتك، كنا نحب أن نراك الأول على مدرستك وأن نسمع المدرسين

بمتدحون نبوغك، كنا نباهي بك الجيران. هل كنا ننزل كفنك بأيدينا؟  
كان أبوك يشتري لك كتب التاريخ وسير الأنبياء والصحابة ليحسن  
من خلقك ويغرس فيك الرجولة والمثل العليا. لم يكن قصدنا يا بني  
أن نضمص أحد هذه الأدوار ولا أن تتبع هذه المثل إلى النهاية، هذه  
مثل يا بني نحاول قدر استطاعتنا أن نحيا بها، ولكن الحياة عمرها ما  
كانت تطبيقاً للمثل، الحياة لها ضغوطها وكل إنسان له ظروف عليه  
أن يكيف أولوياته وسلوكه تبعاً لها. هذا ليس كلام من الكتب يا بني  
ولكنه من أم ربت ستة بآب غائب شهيد. هل تريد أن تصبح شهيداً  
مثل أبيك؟ وهل تفضل أباك شهيداً غائباً أم لو أنه كان قد وجد طريقة  
للمودة؟ لو أنه لم يتطوع للذهاب للحرب أصلاً؟ هل تريد أن تكرر  
مأساة أبيك وأن تعيش أمك وأخواتك هذه المصيبة مرتين؟

قلت شيئاً عن الواجب وعن الوطن ثم سكنت أمام نظرتها، نظرة  
التي ولدت وأرضعت وربت ونهرت وأطعمت وغسلت وعلمت،  
نظرة التي رأت الكثير من الحماقات وصبرت كي نتعلم، نظرة العارفة  
ببواطن الأمور والتي تفرق اللغظ من الصواب بحس التجربة المباشر،  
تلك النظرة التي أراها منذ طفولتي المبكرة. أه من نظرة الأم تلك،  
هل يمكن الصمود أمامها؟ وما هو الوطن غير أمك وأمي وأخواتنا  
وبيوتنا وهذه بالنا؟ صمتت ونظرت إليها ثانية في عينيها. ربت على  
ظهر يدي وقالت افعل ما تريد يا بني لكن لا تنس أن هذا البيت ليس  
له غيرك وهؤلاء البنات ليس لهن غيرك. صمتت أُمي وبدأت تصب  
الشاي من جديد وكأنها تغلق الحديث في الموضوع وكنت أعلم  
أنها جردتني من حنجرتي ومن هشاشة موقعي. سموت أُمي بعدها،

سموت بعدها يوم أو سنة أو بعشرة، ولكنها ستكون قد زرعت  
جهاز إنذار في قلبي إلى الأبد.



نشأت غالب. لماذا لا اعترف أنه محام فاشل وأبحث عن آخر  
ليمتلئ، ثم إنه خسر القضية التي كان يؤكد أنه سيكسبها. أستطيع  
أن أبرر له قراره بأن القاضي متدين ويمكن يكون أخذ موقفاً منه  
لأنه مسيحي. الحقيقة أنني نفسي وجدت الموقف غريباً: محامي  
مسيحي يتراجع عن صحفي مسلم متهم بالردة! ولكن نظرًا لأنه  
صديق منذ أيام الجامعة، ومحامي لسنوات طويلة فقد أخرجت أن  
أطلب منه التتحي عن هذه القضية بالذات، كما أن كونه أكبر محامي  
قضايا حقوق الإنسان في مصر يزيد من حجم الاهتمام الإعلامي  
الأجنبي بالقضية. قال لي ضاحكاً إننا بعون الله سنكسب، ولكنه  
بعون الله خسر القضية. هناك شيء غير مريح في نشأت، وكان  
يجب أن أتبع غريزتي منذ البداية. ربما أصوله الأجنبية، أمه هي  
الأجنبية، لكنها عاشت في مصر طول عمرها. يذكرني بالمسيحيين  
المصريين الذين تحدث عنهم سولي في رواية «الطربوش»: هذا  
المزيج من السوريين والليبتانيين الذين ولدوا وعاشوا حياتهم كلها في  
مصر ولكن ظلوا يتذكرون بإعزاز أصولهم الشامية، محبي الفرنسية  
وأبناء مدرسة الجزويت والقلب المقدس، الذين يتعالمون على  
الأقباط باعتبارهم فلاحين. نشأت ليس كذلك، نشأت قبطي. حتى  
أمه الأجنبية أرثوذكسية. لكن شيئاً ما فيه يشبه تلك الأصول، رغم

حرصه على التواضع وإنسانيته المفرطة أحياناً. ربما هي إنسانيته تلك التي تضايقتني، فهناك شيئاً مستفزاً في تبني الأغنياء لمواقف يسارية، وكأنهم وجدوا لديهم كل شيء. ولم يكتفوا بكل ما عندهم فراحوا يأخذون الشيء الوحيد الذي يملكه الفقراء وهو كراهية الأغنياء، حتى الحقد الطيقي يسرقونه من الغلابة. إذا فلتلت صفقتي مع الأمن سأفكر في مخرج يسمح لي بإعطاء القضية لشخص آخر.

• • •

رأيت كل شيء من البداية، وغلت أني فقدت الوعي من هول ما رأيت، ولكنني لم أفقده. لم أفقد الوعي لحظة واحدة منذ وعيت على الدنيا. حتى وأنا نائم يظل جزء مني مستيقظاً، وتكون أحلامي واضحة ومكتفة حتى صار نومي يشبه اليقظة، كما لو كان حياة أخرى أحياءها في الليل. وكان العذاب الذي ألقاه في حياتي لا يكتفيني فمددتها أثناء النوم. والآن، وهذا الجدار الخرساني يسد الطريق بيني وبين الموتى والجرحى وهذا الركام وهذا الحطام، الآن وهذا الجدار يمزق ذراعي ويخنق الدم فيها، الآن وأنا لا أرى الناس الذين أسمع أصواتهم وصوتي لا يخرج من حلقي، الآن خير ما أستطيع فعله هو أن أغيب عن الوعي، أن أسقط وأرفع الراية البيضاء وأستريح، ولو قليلاً.

لكن رأسي وعقلي لا يهدمان ولا يكفنان عن الحركة والعمل والاندفاع. وأسأل نفسي لماذا أعذب نفسي هكذا؟ لماذا يعذبني عقلي هكذا؟ لماذا لا يبدأ ولو للحظة كي أستريح؟ لحظة واحدة أغضض عيني فيها فأغيب عن العالم وشروبه وأحلم بفنائه بسيطة

وجميلة ترتدي ثوباً أبيض وتركب مركباً فضياً في بحر أزرق وتجنبي أنا فعلاً وتكون لي أنا. لكن وعيي المتيقظ لا يريد. لن يبدأ عقلي حتى تنفجر القنبلة فيه وتفتت خلاياه وتبعثرها في هذا الحطام.

أصوات سيارات الشرطة والإسعاف لم تلبث أن علت وملأت المكان، أستطيع أن أرى من مكاني وميض إشاراتنا ينعكس في الركام وأسمع صيحات عمال الإنقاذ وهم يدخلون المبنى ثم وهم يبحثون في الحطام ويرفعون جرحى أو قتلى لا أدري، لكن صوتي كان محتبساً بداخلي وكان هذا الجدار الخرساني قد أخرسه لحظة ما سقط فوقي. هل تكون هذه هي نهايتي ونهاية الحزن القابع على صدري ليل نهار؟ سقط الجدار فوقي، لكنه لم يزحزح صخرة الحزن عن قلبي.

• • •

داليا الشناوي تبكي وقبة الجامعة صامتة. داليا تبكي والشمس حارقة والضوء يعشي عيني. داليا تبكي وأنا أقاوم الضجر من هذه البنت الرقيقة المنرقة ومشاكلها. داليا تبكي وتمسح دموعها بمندبليها وتحمر عينها ثم تغرورقان وتحمران من جديد. داليا تبكي وتلم شعرها بيدها وتعقصة خلف رأسها وهي تبكي والرائع والغادي ينتظر إلينا في روية. سمحت لنفسني بعد تردد أن أسك بذراعيها وسحبها خارج الجامعة وأوقفت أول تاكسي عند الباب. حين وصلنا دفعت كل ما في جيبي للسائق المتبرم وسحبها إلى مقعد حجري على شاطئ النيل. جلست وجلست بجوارها وهي تبكي. ورد النيل بدأ في الانتشار مرة أخرى، وداليا ما زالت تبكي.

- ويعدين يا داليا، خلاص بقى اجمدي!

- مش قادرة.

- طيب لما انت مش قادرة بتسييه ليه؟

- لأنى لازم أسيه.

- ليه بس!

- ليه يعني إيه يا أشرف؟ لأنه مسيحي.

- طيب مايا ما مسيحيين ومسلمين اتجوزوا.

- بس هو مش حا يغير دينه.

- يا ستي بلاش يغيره، يعمل بس الورق وكل واحد واللى في قلبه.

- هو احنا حا نضحك على نفسنا؟ هو ده يبقى اسمه تغيير دين برضه؟

- من الناحية الرسمية آه.

- وقدام ريتا؟ ده يبقى جواز ده؟

- طيب عايزاه يعمل إيه؟ حانقته فجاء يسلم؟

- مش عارفة!

- خلاص مسيبه.

- مش قادرة، مش قادرة، فكرك أنا ماحاولتش؟ أنا عملت كل

اللى أقدر عليه. دانا باخد منوم وبانام ١٥ ساعة علشان أعدى اليوم، مجرد مابشوفه يافقد السيطرة على نفسه، باتنح واللى في إيدي يقع مني ويعدين ألاقي نفسي واقفة جنبه أكلمه.

- وهو؟

- نفس الحاله.

- طيب والحل؟

- مش عارفة، مش عارفة. قوللي انت أعمل إيه؟

وعادت داليا للبكاء، ماذا تريد أن أقول لها، الدنيا في حرب والناس يتموت على الجبهة وأنا في إجازة ٤٨ ساعة من أجل أن أسمع هذه المشكلة التي لا حل لها؟

- أنا بصراحة مش شايف حل غير إنكم تبعدوا عن بعض. واضح انه مش حا يغير عقيدته فجأة، وانتي مش حا تقبلي إنه يغير الديانة على الورق ويس. يبقى لازم تسيبوا بعض. مش انتي غنية؟ روجي كملي درامتك في باريس وانت تنسبه.

• • •

ماتت أمي في نهاية موسم الموت. وضعت بيدي جثمانها الملفوف في الأبيض داخل حفرة في الأرض وبدأ العمال يهيلون التراب علينا وأيد تشلني وأنا لا أكاد أرى سوى ذلك الأبيض الذي يهبط عليه التراب. أصوات عويل وصراخ تختلط بصوت المقرئ وطنين يملأ رأسي. أشباح وجوه وأيد تشد على يدي وترت على

كنفي وأناس يعانقونني. وفقد. فقد لا يعوض. فقد أعلم أنه لن يعوض. فراغ في وحي لن يملأه شيء.



عندما أطيح بي من المجلة في نوفمبر ١٩٧٧ أيديني العديد من زملائي وأصدقائي، تأييدًا لفظيًا بحثًا. لم يستقل أحد من منصبه احتجاجًا أو تضامنًا، لم تحتجب صحيفة عن الصدور ولو ليوم واحد، ولو لصفحة واحدة، لم تصدر نقابة الصحفيين بيانًا يدين الاعتداء على حرية الكتابة، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل، وكان شيئًا لم يكن. صرت فجأة بلا عمل، لا أدري أين أذهب أو ماذا أفعل. ولكن روعي الممنوعة ظلت مرتفعة. كنت بطلاً بشكل من الأشكال، واستمرت في الكتابة بشكل متقطع في عدد من المجلات والصحف العربية، كما كانت بعض الأحزاب والنقابات تستضيفني للحديث في ندواتها، وسافرت لعدد من العواصم العربية وإلى لندن وباريس للمشاركة في ندوات حول مهنة الصحافة ومخاطرها في العالم العربي. لكن العام التالي كان أصعب: خفت هذه الدعوات واتباعدت مقالاتي المنشورة كما ابتانني شعور بأن القارئ في مصر بدأ ينساني (وهو أسوأ ما قد يحدث لصحفي)، وبدأت أمني في الشكوى من قلة المال ومن تدهور الحال، ثم تلاشت الدعوات شيئًا فشيئًا، وبدأ ممثلو الصحف العربية في التملص مني والتحجج بشئ الأعذار لعدم نشر مقالاتي، وأصبح الإحساس المسيطر عليّ هو أن الجميع قد

تخلّى عني، وأن النتيجة الوحيدة لجرأتي وشجاعتي في قول الكلمة الحرة هي خسارتي للمعبر الذي كنت أعبر من خلاله في حين أن كل من أيديني (لفظيًا) استمر في العمل والتقدم في المؤسسات القائمة. وكان هذا الإحساس يأكلني من الداخل.

في آخر العام قبلت عرضًا للعمل في إحدى المجلات العربية بلندن، ومن هنا كانت بداية العودة. صحوت من النوم في أول أيام العام الجديد، في شقتي الصغيرة جدًا بلندن، وكلني غضب من نفسي ومن استلامي للشكوى ومن مثاليتي الزائدة. مللت من دور الضحية الذي تقمصني. ارتديت ملابس في عجلة وخرجت وأنا مصرة على أن أتقدم للأمام وأنجز. تملكنتي الرغبة في التنفيذ، في عمل شيء ما بدلًا من الحديث والشكوى. يومها قررت أن أصبح رئيسًا للتحرير، لنفس المجلة التي منعوني من النشر فيها وأنا مدير تحريرها ثم فصلوني منها. لن أصبح الرجل الثاني ولا الثالث بعد اليوم. لقد جربت ذلك من قبل، ولم تكن التجربة ناجحة. وفتت ذلك اليوم في غرفتي الصغيرة في لندن وصرخت من الملل: كفاية.



ثم جاءت سارة، جاءت بعد كل هؤلاء النساء ومع كل هؤلاء النساء وأثناء كل هؤلاء النساء. جاءت سارة وتسللت شيئًا فشيئًا داخلي رغم إنكارتي أمام نفسي أن هذه العلاقة أكثر من مجرد علاقة. جاءت سارة بالصدفة، لأنني نظرت إليها وقيلتها وقيلتي، ثم التقينا ثانية وتعاقدنا ثم التقينا ثالثًا وعاشرًا. ثم تطارحنا الغرام، يهدوء وبطء ودون تردد، ثم



بدأننا ندمن بعضنا بعضًا، ثم تركت الأخريات من أجلها، ثم هاجمني ذلك الشعور القهري بالاحتقار لي ولها، وتركتها. لكنها عادت، ثم قابلت أخريات ونمت معهن وقلت لها، وبكت، ولكنها بقيت. قالت إنها تحبني، وقالت إنها ستغفر لي، وقالت إنني عقابها الإلهي على ما اقترفت من ذنوب، وقالت إنها كذبت كثيرًا وكدت كثيرًا وفعلت بالرجال ما فعلته أنا بالنساء. وقالت إن كل ذلك قد انتهى الآن وإنني شفاؤها. واستمعت غير مصدق ولكنني في أعماق أعماقي صدقتها. وإن كنت أمنت في غيبي، فإن ذلك كان اختبارًا مني لصدق وعدّها لي باحتمال ظلمي لها وبأن تبقى مهما فعلت. ومررت شهور وأنا أخرج علنًا مع أخريات، وانقطعت عن الحديث إلى سارة بالكامل، وتركزت هي المجلة وعملت بأماكن أخرى. ثم التقينا صديقة بمطعم الشبرد، وابستمت لي ابستمتها القديمة الجميلة وقالت بصوتها الرخيم «اتصل بي»، فاتصلت. وعادت وعدت مثل الأول وأكثر. وقالت لي إنها لن تتركني أبدًا وأنها ستحبني إلى الأبد مهما فعلت بها، وقالت لي إنني سيدها ومولاهما ومعلمها وأنها ملك بيمني، وذابت مثلما كانت تذوب في الحب وفي العشق وفي الغرام العميق الغائب المفقود. ويلي منك يا سارة، ماذا فعلت بي؟ أين أشرف فهمي العتيد القديم الذي فقد قلبه؟ وكيف استطعت أن تعيدي لقلبي اليأس هذه الخفصة الزاهية؟

• • •

لا أحاول تحريك ذراعي من مكانه. لا أحاول الصراخ أو

الاستغاثة. لا أحاول أن أزحزح هذا الجدار من على صدري، بل أقف ساكنًا وصامتًا وشامخًا. أدركت منذ زمن عبث المحاولة. قال محمود درويش:

«دع كل ما ينتهار منهartzًا

ولا تقرا عليهم أي شيء من كتابك»

فعلت. ولما حاولت زحزحة الأشياء التي انهارت فوقني تراكت أكثر: كلما زححت قطعة وقعت فوق رأسي قطع أكثر. وأدركت عبث المحاولة فقللت واقفا. هنا أو هناك، مثلما تحملني الريح. كأنني ورقة شجر.

• • •

العمل في لندن فتح لي أكثر من نافذة وباب. أول ما تعلمته، وهو مفتاح كواليس الصحافة العربية كلها، هو أنه لا يوجد أحد ليس له صاحب. كل صحيفة أو مجلة تحتاج إلى «ظهر» تستند إليه، سواء كان ذلك الظهور تمويلاً (لا توجد صحيفة واحدة تقريبا تعيش من مواردها الذاتية) أو حماية سياسية، «البروتكشن» كما كنا نسمي الشخص الذي يلتقيه رئيس تحريرنا في لندن من حين لآخر.

«البروتكشن» قد يكون نظام سياسي، مثل بمندوبين من أجهزة مخابراته أو الإعلام. وهم مندوبون لا يرتدون نظارات شمس غامقة ولا معاطف طويلة، وإنما هم رجال محترمون ومهذبون وأحياناً لا يكونون حتى موظفين بل وأحياناً يكونون وسطاء من جنسيات

دول أخرى غير تلك الدولة التي تصبغ حمايتها على الجريمة. «البروتكتشن» أيضًا قد يكون شخصًا غير معروف إلا للخاصة: أمير مثلاً أو رجل أعمال كبير، مغترب أو يعيش في وطنه، يتطلع للعب دور سياسي أو مجرد محب للغزو أو يستخدم الصحيفة كأداة لترويج أعماله أو حتى لحماية نفسه ضد منافسين أو ضد نظم أخرى أو ضد حكومته هو أو ضد أناس معينين داخل حكومة بلده. شبكة «البروتكتشن» شديدة التعقيد وتتغير حسب تبدل التحالفات بين مراكز القوى المهمة. وعليك أن تبقي عينيك مفتوحتين دائماً إن أردت النجاة.

التعامل مع «البروتكتشن» فن. وهناك صنوف للتعامل بقدر ما هناك أشكال من «البروتكتشن»، وعليك أن تختار النموذج الذي تقدر عليه. هناك نموذج العميل / الموظف حيث يصبح الصحفي مجرد عروسة ورق تحركها «البروتكتشن» في أي اتجاه وفي أي وقت. وهذا هو أغنى الأنواع وأسرعها احترافاً، حيث يحول أمرها المفصوح بينها وبين بناء المصداقية اللازمة، كما تسقط سريعاً حين تتغير التحالفات بين القوى صاحبة البروتكتشن. أفضل النماذج في رأيي هو نموذج المستقل / المشاكس، حيث يحتفظ الصحفي باستقلال نسبي، مع المهادنة في بعض الموضوعات أو بعض الأوقات والتنسيق في أشياء معينة وضمان «البروتكتشن» لحرية حركة الصحيفة في باقي الموضوعات. النموذج المستقل / المشاكس يلجأ أيضًا لتنوع قاعدة «البروتكتشن» اللازمة له بحيث لا يكون تحت رحمة جهة واحدة، فإذا أرادت هذه الجهة سحب تأييدها استطاع بسرعة حشد تأييد جهة

أخرى بشروط مشابهة بحيث لا يتأثر كثيراً بالتغيير. وهذا هو أصعب التماذج ولكنه أكثرها قدرة على الاستمرار.

الدرس الثاني هو تعلم كيفية قراءة الخريطة السياسية للصحيفة قبل أن تقوم بأي عمل درامي فيها، مثل مهاجمة أحد أو تأييد أحد آخر. يجب أن تفهم أولاً من يقف مع من، ومن ضد من، وأين الصراعات المفتوحة وكيف ومتى وقعت الانقلابات، وأن تحفظ كتاب تفسير ظهور وصعود بعض الصحف والمجلات وهبوط وانحدار بعضها.

الدرس الثالث هو أن تدرك أن الصحفي ليس مجرد ناقل للخبر أو محلل له، وإنما هو مشارك في العمل السياسي. العمل في لندن فتح لي أبواباً جعلتني أرى هذه الحقائق. لندن، التي ما زالت تحتفظ ببعض مجدها القديم كعاصمة للإمبراطورية. أن تكون صحفياً عربياً في لندن في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات يفتح أمامك الباب لكل التيارات السياسية وغير السياسية الموجودة بالعالم العربي والإسلامي (خاصة الأكراد وإيران وباكستان والهند). لا يوجد تيار واحد لا يأتي مثلوه إلى لندن مرة في العام، ولا توجد صفة واحدة تتم دون المرور على لندن. ممثلو الدول، المعارضون، التيارات السياسية الممنوعة، الشيوعيون، الإسلاميون، القوميون، حركات التحرر الفلسطينية بأنواعها، ضباط المخابرات، الجواسيس والعلماء، الإرهابيون. الجميع يتخذ من لندن إما محطة أو مقراً. وقد قابلت الجميع بلا استثناء وكتبت عن الجميع بلا استثناء وصار

لي أصدقاء بين الكثيرين منهم. العمل في لندن أيضا أتاح لي فرصة نادرة لإقامة علاقات عمل مع الكثير من الصحفيين والمراسلين ورجال الإعلام الغربيين الذين يغطون أبناء العالم العربي، ابتداء من الصحف الأمريكية المحلية المغمورة إلى معدي البرامج السياسية في قنوات الإذاعة والتلفزيون العالمية المختلفة. ووجد الدبلوماسيون الغربيون الذين ينتشون عن المعلومات ومعناها في شخصي غير المتواضع من يمكنهم الحديث معه ويفيدهم ويفهمهم ويشرح لهم. باختصار، كانت الأعوام التي قضيتها في لندن بمثابة درس مكثف في واقع الصحافة والعلاقات العامة، البداية الحقيقية لمساري المهني كصحفي.

عندما عدت إلى القاهرة في نهاية ١٩٨١ كنت قد تعلمت دروسي كلها، وصممت على تغيير التكتيك. راحت نظرة الحالم الذي يرى القبح والقيود يتألم له، وحلت محلها نظرة القناص الذي يرى الفرص من بين القيود، يرى الفتحات في الجدران، ويرى نصف أو ربع أو عشر الكوب الممتلئ. مثل القناص، في صمت وقوة وبلا مشاعر تقريباً، تعلمت أن أبتلع الغصة في حلقى وأكتم الألم في صدري، وأبحث عن توسيع الجانب الإيجابي في أي ظروف أجده نفسي فيها. لم أبع مبادئى يوماً، ولم أترافع في موقف، ولم أنافق (وإن استخدمت القدرات اللفظية في صياغة المواقف كثيراً) بل وأخذت مواقف شديدة في أحيان كثيرة. لكن غطواتي كانت محسوبة، وكان الهدف دائماً الواضح: التقدم للأمام وتوسيع هامش الحرية المتاح لي.

كان الاتفاق الذي عدت بموجبه قد تم في لندن. مع التغييرات السياسية الجارية، تحولت السيطرة على المجلة لأيد جديدة. وكانت علاقتي بأحد السعوديين المقربين من الحكومة المصرية قد توطدت، وهو رجل كبير في السن والمقام يتمتع بروح الفكاهة العينية على خبرة السنين ومشاهدة صعود وهبوط الناس. كان في طريقه لاعتزال العمل العام حيث، كما قال، لم تعد الأمور تلهو. كان دائماً ما يقول لي إنني خسارة في الصحيفة التي أعمل فيها وأن مكاتي هو رئاسة تحرير الأهرام.

- أهرام إيه يا أستاذ؟ إحقا قادريين حتى نرجع من مطرح ماجينا؟ كان فاهماً لتلميحي ولكنه لم يرد. وذات يوم، بعد مقتل الرئيس السادات بقليل، التقط الخيط وسألني:

- واللي يرجعك؟

كان ذلك بداية عرض عمل، واستمرت المفاوضات لشهرين. قال إن مسئولاً كبيراً يبحث عن رئيس للتحريك يحل محل الأستاذ قناوي.

- وليه مش محمد عبد الواحد؟

- محمد يا دويك نافع مدير تحرير، ده لو بقى رئيس تحرير محتاج نكتبه المجلة كل أسبوع.

لم يكن المسئول الكبير ليفكر فيّ بالطبع، باعتباري - في نظره - معارضاً لا أمل فيّ. وكانت الخطوة الأولى هي أن قام صديقي

السعودي بإفهامه خلفية الأحداث التي تمت عام ١٩٧٧، وأنا كنت مجرد شخص مخلص ومتحمس تم استخدامه في تصفية حسابات بين عدد من المستولين. واستمرت المفاوضات بيننا حول مدى هامش الحرية الذي سأتمتع به وبقيّة التفاصيل، وقرب التوصل لاتفاق رتب صديقي لقاء بيني وبين المسئول الكبير في لندن، وكان لقاءً ودياً وندياً أتمننا فيه اتفاقاً شعرت بالراحة إليه. وبعدها بشهر كنت في القاهرة.

لا أعتقد أن أحداً كان يتصور حجم التغيرات التي يمكن أن أحدثها في المجلة، ولا توقع مدى النجاح الذي حظيت به المجلة بعد ذلك. بدأت بوضع المجلة في قبضة حديدية ذات قفازات حريرية. كان الجميع يتوقع انتقامي ويخشاء، وقد لاحظت برضا وشماعة (والشماعة عاطفة إنسانية بحتة) أن محمد عبد الواحد قد جمع حاجياته من تلقاء نفسه ووضعها في كرتونه، ولكنني لم أنتقم منه، ولم أحتل مكتبه والتي به ويكرتونه في الشارع مثلما كان يتوقع هو والجميع. الحقيقة أنني لم أنتقم من أحد إطلاقاً، وإن كنت قد أشعرت الجميع أن سلطتي وجبروتي يمكن أن يعصف به في أي لحظة. بدأت بعيد الواحد، والذي تركته أسبوعاً في منزله لا يعرف إن كان مفصولاً أم لا. وظلت كرتونه البائسة التي تحوي أوراقه ملقاة على الأرض في مكتبه بانتظار تعليماتي (لم يكن ممكناً مجرد إخراجها من المؤسسة دون تصريح مني شخصياً). وبعد أسبوع استدعيته، وبدلاً من منحه إجازة بدون مرتب أو نقله للأرشيف - كما كان الجميع يتوقع، أعدت تعيينه سكرتيراً للتحرير، حتى هو فوجئ.

بعد بسط سريع للهيمنة على المحررين، بدأت العمل الحقيقي. دعمت قسم التحقيقات بعدد من أفضل المحررين الموجودين كما دعمت عملهم بفريق من الباحثين الذين يتولون إعداد المادة الخام وجمع البيانات عن خلفية الموضوعات (وهي عادة نقطة الضعف في محوري التحقيقات). أنشأت سكرتارية خاصة لتسهيل وترتيب عمل محوري التحقيقات (ترتيب المواعيد، تسهيل الانتقال والحصول على التصريحات اللازمة... إلخ). وفي خلال شهر واحد كان الفرق قد بدأ يظهر في عمل قسم التحقيقات. استقدمت عدد من الشباب وفتحت الباب لكل الأفكار الجديدة وغير التقليدية. وسعت من نطاق التحقيقات ونوعتها. فتحت المجلة لمساهمات عدد من الكتاب الكبار من مختلف التيارات بحيث أصبحت المجلة منبراً للمناقشات السياسية والفكرية التي تهم مختلف تيارات الحياة السياسية في مصر (ومن ثم أصبح للجميع مصلحة في استمرارها) كما فتحت الباب لكتابات شبان صفار ما كانوا يحملون بالكتابة في مجلة كبرى، مما أضاف إليها بعداً جديداً جعل كثيراً من الشباب ينظر إليها باعتبارها تعبر عنهم. أنشأت قسماً للترجمة يطرح على القارئ أسبوعياً مختلف الأفكار والمناقشات الدائرة في المجلات الغربية العريقة، وبدأت صفحة لمراجعة التراث الثقافي العربي تنور الماضي وتناقشه بطريقة نقدية بما يتجاوز الثنائية التقليدية من تمجيده أو تجاهله. أرسيت أهداف المجلة التحريرية حول التنوير، نشر الثقافة بشكل يسمح لأكبر عدد ممكن من الناس من فهمها والمشاركة فيها، التعبير عن مختلف

الأراء، محاربة الفساد، ومحاربة الإهمال والنسب والفوضى،  
محاربة التزمت والتعصب والجهل بأنواعه.



ماتت أمي. وضمت جسدتها في حفرة في الأرض ووقفت أنظر  
للتراب يهيلونه عليه ثم مضيت. تركت أمي في الحفرة تحت التراب  
ومضيت.



رفعت داليا الشناوي عليّ دعوى احتساب متهمة إياي بالكفر  
ومطالبة بالحكم بفصلي من رئاسة تحرير المجلة. كان الدكتور  
نشأت يتولي أمور القضية ولكنه كان يستشيرني في كل التفاصيل،  
وأدركنا حملة رأي عام قومية وعالمية لا بأس بها على الإطلاق.  
أحمد كمال، العميد بجهاز الأمن القومي، قال لي إنهم يفعلون ما  
في وسعهم. واللواء سمير قال إنهم سينهون المسألة لأن الدولة لا  
يمكن أن تسمح لمجموعة من الأفراد أيًا كانوا أن يملوا السياسة  
العامة في البلد. الوزير الفلاني والوزير العلاني طمأنوني، والدكتور  
نشأت قال إن القضية مضمونة، قانونًا ودستوريًا وسياسيًا، وبدأ لنا أن  
الدولة لا يمكن أن تغامر بالسماح لهذه السابقة بالحدوث في ظل  
الانتقادات الدولية لهذه الطريقة البربرية في المصادرة على حرية  
الفكر. لكن أول علامات القلق جاءت عندما تولى ملف القضية  
قاضي معروف بميوله المناصرة للجماعات الدينية. لكن الجميع  
استمر في طمأنيتي وطمأنة أنفسهم أن ذلك لا علاقة له بشيء وأن

الأمر ربما يحتاج لقاض معروف بميوله الدينية لإضفاء مصداقية أكبر  
على حكمه برفض الدعوى. وبدأ لي ذلك تزييدًا لا معنى له ولكني  
صمت. وكنت أستغرب، لماذا رفعت داليا هذه الدعوى عليّ أنا من  
دون كل خلق الله المشتغلين بالصحافة؟ لم يكن ما كتبت عن نظام  
الحكم الإسلامي ثوريًا ولا جديدًا، بل رده العشرات قبلي، فلماذا  
أنا؟ ولماذا ترفع داليا القضية دون بقية الناس؟

في النهاية، حكم القاضي بقبول الدعوى وبأنني مارق من الدين  
إلخ إلخ. واعتراضي ذهول في المحكمة أقعدني عن الحركة دقائق  
طوال، فلم أزد على حديث نشأت ومن كانوا معي، ولم أتحرك من  
مقعدي، تخشيت وظللت مذهولًا لفترة حتى وأنا في السيارة في  
طريق العودة. قال نشأت إننا بالطبع سنسأف الحكم، وأن الاستئناف  
سيأخذ وقتًا، ربما عامًا آخر. عام آخر؟ تحت هذا السيف المسلط  
على رقبتني؟ سيقوم الجميع بابتزازي خلال هذه الفترة! واضح أن  
الحكومة لا تريد إنهاء القضية. فرصة طيبة لإشعاري بالحاجة إليهم  
والضغط عليّ. ومن يدري؟ ربما يكون أحمد كمال أو اللواء سمير  
هو الذي دفع داليا لرفع القضية حتى «يضعني تحت السيطرة». ألا  
يمكن لجهاز أمني أن يقبل التعامل بندية أبدًا؟ هل لا بد للدولة  
دائمًا من السيطرة؟ ولكن لا، ليس أنا من يقبل بالخضوع للسيطرة،  
لست يائسًا لهذه الدرجة، ولست بلا حول ولا قوة لهذه الدرجة،  
ولست أسيرًا لقبضة الدولة لهذه الدرجة، فلديّ مصادر قوتي الخاصة  
 والمستقلة عن الدولة، وسأستخدمها. هل تريدون اللعب؟ لنلعب  
إذًا، ولتر من الذي يضمحك أخيرًا.

كتب لي ناصر قبل انتحاره رسالة طويلة، الأولى والأخيرة. قال فيها ألا فائدة، وأنه فر من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هناك الأبد و:

«... بلا فائدة. نحن ضحايا ومذنبون معاً. ضحايا لهذا الزمن ولهذه الظروف وضحايا لتربية شديدة المثالية تلقيناها ولأوهام شديدة القوة عشناها. ومذنبون لأننا صدقناها ولم نتحسب من الخروج من أسرها. والآن أعلم علم اليقين أن الوقت قد حان كي أتوقف عن التصديق وعن الاتباع وأن أدرك أن كل هذا الحلم هو محاولة يائسة. لا ورد النيل يمكن مقاومته ولا بيتنا يمكن حمايتها ولا الجمال يمكن إعادة اختراعه. ولكني لا أستطيع التوقف عن التصديق والاتباع دون أن أموت من الملل ومن الاكتئاب. ومن ثم فإن الخيار الحقيقي هو بين الوهم أو الموت، وذلك قاع المأساة...»

وبعدها انتحر. انتحر صديقي الوحيد الباقي من أيام الصبا وقطار المنصورة الليلي. ألقى بنفسه أمام المترو في نيويورك وأنهى حياته على القضبان الحديدية التي بدأن حياتنا سوياً عليها. أنهى حياته وأخذ جزءاً من حياتي معه: شطر قلبي نصفين وأخذ نصفاً وذهب وتركتني هنا أسأل نفسي لماذا لا أرسل له النصف الآخر؟

• • •

أجلستني إليزابيث على أريكة بنية اللون مريحة، وجلست بجواري ثم قامت كمن نسي شيئاً. عادت ومعها كأسان من الشاي وجلست بجواري وابتسمت. قالت:

«أتعرف شيئاً؟ إنني صعيدة بقرارك عدم الاستمرار في الجلسات.

أبدت استغرابي فمالت على وجهي وقالت إنها لم تكن لتسمع لنفسها بمواعدة أحد مرضاها، فهذا عمل لا أخلاقي، ثم وضعت شفتها على شفتي وبدأت في تقييلي. كأنها خرجت لتوها من «الطيور المهاجرة للشمال» للطبيب صالح، ولم أستطع التعامل معها إلا على هذا الأساس، حتى إنني بدأت في سلوكي معها أنتمص شخصية بطل الطيب صالح، وكان ذلك أمراً خطراً إذا ما أخذنا في اعتبارنا نهايته ونهاية من معه في الرواية. كانت إليزابيث ابنة الطبقة المتوسطة البريطانية حتى النخاع، طيبة وصادقة وساذجة، محمولة بتفاؤل وحس جارف للحياة والناس يكاد يكون أبله. وفي البداية وضعت نصب عينها هدف إصلاح نفسيتي المعوجة في نظرها، وقالت كلاماً كثيراً حول الشرق والغرب والفردية والجماعية وطقولتي وعلاقتي المرضية بنفسي وبالأخربين وبأمي وبالنساء، ولما صار ضجري من هذا الحديث واضحاً كتفت عن ذلك، وتحولت إلى هدف آخر وهو إسعادي. ولكنني كنت أشعر أنها تقوم بعمل خيري، عمل تطوعي لمساعدة البلدان الفقيرة، وعندما بدأت الحديث عن الزواج قطعت علاقتي بها. وحمدت الله أنها لم تتحرج مثل بطلة الطيب صالح، ولو أنني ربما كنت لأفضل ذلك عن اتخاذها حبيباً جديداً. تصادف أنه عربي أيضاً. بعد أن تركتها بأسبوع واحد.

• • •

و«البروتكتشن»؟ أحلى «بروتكتشن» مثلما كان يردد مساعدتي المقربون. بدأت بفتح قناة اتصال مع الداخلية لتجنب عداوات لا داعي لها، واضطرت في ذلك لابتلاع غصتي والتعامل مع اللواء سمير صاحب الوجه الكالح والماضي الأسود. فتحت قناة ممتازة مع الأمن القومي وكان العميد أحمد كمال هو أذنتها، وهو رجل محترم وذكي ولا يعاني من أمراض العمل الأمني الشائعة. العلاقة مع أحمد تجسد نموذج «البروتكتشن» الذي أفضله. علاقتي بأحمد لا علاقة لها بالصحافة، فنحن لا نتحدث عن أي شيء يدور داخل المجلة، أو داخل أي مؤسسة صحفية أخرى. فأحمد كمال ليس مسئول الصحافة بالأمن القومي وإنما مسئول النشاط الديني. ومن ثم نحن نتحدث غالبًا عن الجماعات الدينية وآخر أخبارها. الصحفيون لديهم دائمًا أخبار لا تتوفر لأجهزة المخابرات حتى العريقة والقوية منها. لا شيء إلا لأن الأخبار تأتي إلينا من مصادر عفوية كثيرة ومن أشخاص يمكن أن تحدثنا نحن فيما لا تحدث فيه ضباط المخابرات أو مسئولو الحكومات. كما أنه أحيانًا يكون في معلومات الصحفي نقطة واحدة تنور معلومات أخرى لدى ضابط المخابرات (وتحمل من أجلها كوم من الكلام الفارغ). الصحفي الصحيح عبارة عن جهاز مخابرات صغير، متنقل، أقرب لأرض الواقع والوصول إليه أسهل والتعامل معه أقل خطورة. ونظرًا لأن لدي علاقات كثيرة بحكم تركيز كتاباتي على الحركات الإسلامية منذ إقامتي بلندن، فقد وجد أحمد كمال أنه من المفيد له المحافظة على علاقة عمل منتظمة معي (مع انشغاله الشديد، فهذا هو أهم رجل في مكافحة النشاط الديني في مصر). ويمادنا يعود علي ذلك؟ حماية.

بدأت علاقات مع الرئاسة توطدت مع الوقت. وحولت صفحة الاجتماعيات (الأفراح وما شابه) لأداة لكسب ود سيدات المجتمع المهم وعظفهم. كما وطلدت علاقاتي القديمة بمختلف قطاعات «المجتمع المدني» الناشئ وقتها كالمنظمات غير الحكومية وخلافه وهي مجموعات من الناس يغلب على علاقتي بها التعجب من جانبي والإعجاب من جانبهم، ولكنها علاقة قامت واستمرت على أساس من المصلحة المشتركة (وكان مهندسها في الحقيقة صديقي القديم ومحامي القاضل الدكتور نشأت)، كما استثمرت الكثير من العلاقات التي أنشأتها في لندن مع جهات عربية وأجنبية. كان كل ذلك يشكل قاعدة الأمان السياسية للمجلة لمواجهة غدر الزمان وتقلبات «البروتكتشن».

اضطلع قسم التحقيقات (وهو القسم الأثير لدي باعتبار التحقيق هو لب العمل الصحفي) بدور رئيسي في المعارك التي شتها المجلة. خضنا معارك دامية ضد الإرهاب وجماعات التعصب الإسلامي، ضد الدجالين والمشعوذين ممن عينا أنفسهم دعاة عبر التلفيزيون، ضد التعصب الديني في الكنائس وعلاقاتها بالجماعات المسيحية في الخارج، ضد اضطهاد الأقباط في الصعيد من قبل الجماعات الإسلامية المسلحة، ضد الأدوية الفاسدة والتلاعب بصناعة الدواء، ضد التهريب شبه الرسمي من ميناء الإسكندرية ومافيا الجمارك، ضد الأغذية الفاسدة والتلاعب بتقارير الرقابة الصحية، ضد مافيا الأسمنت ومافيا الخشب، ضد سرقة الآثار والتلاعب في هيئة السكة الحديد، ضد الفساد في الأحزاب وضد سيطرة الأجيال القديمة في

كافة المؤسسات. معارك خلف معارك، وتحقيقات موثقة بمعلومات دقيقة لا ترحم، حولت المجلة إلى برلمان للمساءلة وقلعة للتحرير الثقافي والسياسي.

• • •

ماتت أمي.

لا يعرف هذا الشعور غير من ماتت أمه: مهما كنت كبيرًا، حين تموت أمك، تعود طفلًا، ويتقطع فيك شيء إلى الأبد. فقد. نقص لا يملؤه شيء.

• • •

لأول مرة منذ طلاقني من منى أفكر في الزواج من جديد. قلت ذلك لثلاث وسألتها رأيها، قال إنها فكرة ممتازة وإني بحاجة للاستقرار العاطفي والإنساني. اقترح سارة فقلت لا طبعًا. اندهش واندعشت من اندعاشه. قلت إنني أفكر في زوجة محترقة لا في عشيق محترقة، قال إنه لا يرى الفرق بين الأمرين، فنظرت إليه وصمت. هؤلاء الخراجات!

أريد زوجة، هاتئة، طيبة، وتعني بي. أحبها وتخلص لي، أحترمها وتحترمني. أعطني بها وتحثني جنوني وحزني. متفتحة ولطيفة وذكية، لا متنازلة أو زعيمة، زوجة تكون أمًا لأطفالي. هل هذا كثير؟

• • •

أصبحت داليا الشناوي صباح اليوم بأزمة قلبية. ولم أعرف بماذا

أشعر. انزعجت حين سمعت الخبر، ربما يحكم الصداقة القديمة وعشرة أيام الجامعة، وربما لأن الخبر فاجأني لا أكثر. ولكنني بعد قليل شعرت بالراحة. وإذا كانت الشماتة شعور إنساني وطبيعي، فإني قد قاومته. لكن الراحة، الراحة كيف يمكن مقاومتها؟ لا يمكن أن تحاول تفسيرها فقط. والصداقة القديمة؟ ذهبت منذ زمن بعيد، وتحولت لعداء مستحكم. قال شخص ما إن أسوأ الأعداء هم الأصدقاء الذين انتقلوا عليك، وأعتقد أن ذلك صحيح. لماذا أصيبت داليا الشناوي بأزمة قلبية؟ لا أدري، ومعلوماتي أن صحتها ممتازة، ربما هو النظام العصام الذي تعيش فيه.

المفاجأة أن سارة تكذبت بشكل مبالغ فيه عندما أخبرتها، وجمعت حاجياتها وخرجت مهرولة. لم أكن أعرف أن سارة وداليا أصدقاء لهذه الدرجة! أصيبت داليا الشناوي بأزمة قلبية ولكن ذلك لا علاقة له بي ولا بالفضية المسلطة كالسيف على عنقي. فلماذا نظرت إلي سارة هذه النظرة المستيرية؟ وإذا كانت داليا صديقتها لهذه الدرجة فلماذا لم تتدخل من البداية لتجعلها تحل عني؟

• • •

قضيت العطلة الأسبوعية في المنصورة لأول مرة منذ ماتت أمي. الذهاب لبيت العائلة وأمي غائبة عنه أكد لي أنني صرت يتيماً.

• • •

لا أحد يعلم مدى التفوذ الذي يحظى به رئيس تحرير إلا رؤساء التحرير أنفسهم. تكشف ساعتها سطوة الكلمة وكيف يعمل لها



الجميع ألف حساب. وبأتيت من كنت تظن أنهم أقوى الناس يخطبون ودك، ولا تفيق إلا وأنت ضيف على موائد الوزراء وكبار المسؤولين. لماذا يهتمون بك؟ لأن بيدك مفاتيح الشهرة والأضواء ومفاتيح الشهير والفضيحة.

استغللت هذا التفوذ بلا رحمة، لكنني وضعت كفه في خدمة توسيع قاعدة الأمان السياسي للمجلة. أولاً، خلقت ما يسمى بالتوجيه السياسي لحملات المجلة. صحيح أن تحقيقات المجلة هاجمت وكشفت أعطاء كثيرة في مجالات كثيرة، ولكنني تجنبت مجالات معينة أعلم مسبقاً أنها قد تؤدي لإغلاق المجلة أو لتضييق قاعدة أمانها السياسي، ومن ثم جعلها عرضة للاحتجاز ثم الإغلاق. هذا هو الفارق بين أنا القديم الساذج وأنا الجديد العملي. القديم كان سيئور للقيود على حرية التعبير ويُصر على نشر ذلك التحقيق بالذات الذي يعتقد رئيس التحرير أنه لا يجب نشره، «وإذا الحكومة أغلقت المجلة فستور ثائرة الصحفيين وتجد الحكومة نفسها في مأزق». التجربة تثبت أن هذا كلام فارغ، وأن الحكومة قادرة على إبعاد من تريد في هدوء ودون ضجة. يصبح السؤال إذاً هو: هل من الأفضل تجنب نشر عشر تحقيقات مقابل الاحتفاظ بالقدر على نشر مائة تحقيق آخر؟ الإجابة نعم، وهذا ما فعلته. لا تحقيقات عن الفساد في وزارات معينة وأجهزة معينة، حيث إن هذه هي «البروتكتشن» الرئيسية للمجلة، كما أن هذه مقارة الداخل فيها مفقود. ثانياً، لا مانع من بعض «التلميح» لبعض الوزراء والشخصيات الهامة التي أصبحت تشكل جزءاً من «البروتكتشن» الموسع، بما يسمح للمجلة أن تنزل كالسيف

على عتق آخرين وتجد من يحميها. القاعدة هي ألا نهاجم أحداً لا نستطيع أن نقتله، لأنك في اللحظة التي نهاجم فيها تحول المهاجم إلى عدو مطلق مستعد لفعل أي شيء للقضاء عليك، ومن ثم الهجوم يعني الاستعداد الكامل الذي يجب أن نكون جاهزين له.

هذا هو المنهج العملي، الواقعي، إن كنت تريد أن تدير صحيفة مستقلة أو شبه مستقلة. لا يوجد في علمي صحيفة مستقلة تماماً، ومن ثم إذا كان ولا بد من المساومة وبعض التجاوزات من أجل بقاء صوت أكثر حرية وأكثر استقلالية فلا بأس. أما توجيه اللوم لمن يأخذ المنحى العملي لأنه تخلى عن المثالية المطلقة فليس في نظري إلا مزايدة صيانية تؤدي ببقية الحرية التي يمكن للمرء الحصول عليها. هناك قواعد لكل لعبة، وإذا كنت تريد كسر القواعد فيجب أن يكون لديك القدرة على الدفاع عن القواعد التي تريد أن ترسيها أنت. إن لم تكن لديك تلك القوة، فعليك الالتزام بالقواعد التي لا تهدد بقاءك في اللعبة. وهذا ما فعلت، وهكذا أصبحت المجلة مؤسسة سياسية حقيقية: ليست نشرة حكومية، وليست نشرة أسبوعية للتسلية، وليست صحيفة مغلفة.

كنت أبدأ يومي عند الظهيرة وأنهيه عند الفجر، ما بين المحررين وتوزيع المهام ومتابعتهم وقراءة المادة ولقاءات مع الكتاب ومندوبي «البروتكتشن» المختلفين، انتهاء بمتابعة عمل الديسك وقسم الكمبيوتر ومعمل تحميض الأفلام ثم المطبعة، وبعد المطبعة حتى المرور في الفجر على بعض الموزعين الرئيسيين للاطمئنان على سير الأحوال.

سنوات كاملة من العمل الدؤوب الدائم، كالمخدرات. ولكني لم أشعر بالتحقق. كل هذا التجاع، كل هذه الانتصارات، كل هذا التحقق الوظيفي، ولا أشعر بالتحقق. وكلما طاردني هذا الإحساس بالخواء كلما اتهمست في العمل أكثر. ولا تحقق. فراغ داخل صدري، كأن به فجوة سوداء تقود إلى فراغ المجرة كلها، تشفط البهجة من دمي وتلقي بها في ذلك الفراغ البعيد، وكلما حاولت أكثر، كلما شفطت البهجة أكثر ولا يتوطني سوى تعب الجهد المضاعف.

أريد فتاة تصفق الأبواب خلفها وتدفع المكاتب بقدمها وتهزني من أعماقي باستدارة جسمها وضميرة شعرها على ظهرها، تمد يدها وتلتقطني من عبث الريح وتضعني في خصلة شعرها، تمد يدها لتلتقط قلبي وتمسحه وتزيل قطع الزجاج المكسر عنه وتضعه في راحة يدها، تمد يدها وترج جدار الحزن الرابض على صدري وتقبلني في عيني. لكنني لا أجد سوى نساء لا يحركن قلبي ولا يثرن في أكثر من غرائزي، نلتقي على عجل وتنصرف على عجل حتى لا نرى بعضنا بعضاً بعدها. نساء كالعامل، كالمخدرات، كالتقليب المستمر لقنوات التليفزيون بالريموت آخر الليل، كالنوم الزائد في الضحى، ليسوا بهجة، بل مبهذات.

لماذا حرمني الله - دون سائر عباد - من كل مصادر الحنان والحب؟

• • •

ثم جاءت انتخابات نقابة الصحفيين. فكرت في الترشح

ونصحتني كثير من أصدقائي بأن أفعل ذلك، ولكني كنت أدرك أن الحكومة لن تسمح لي بأن يكبر حجمي لهذه الدرجة، وأني لو رشحت نفسي فسيغفلون المستحيل لإسقاطي في الانتخابات أو سيفلقون المجلة. لا أحد مسموح له بتجاوز حجم معين هكذا دون أن يكون له صاحب، وأنا لي حماية ولكن ليس لي صاحب. لم أدخل انتخابات النقابة، لكنني نظمت فريقاً من الأصدقاء والزملاء شكلوا قائمة ودخلوا الانتخابات. كانت علاقتي بمنزلة كبار الكتاب المستقلين، والحكوميين السابقين الذين تغيرت حظوظهم بتغير العهد. كبار الكتاب يخطبون ذلك كرئيس تحرير حتى وإن ظنوا في أعماقهم أنهم أفضل وأذكى وأرقى منك. العلاقة بين رئيس التحرير وكبار الكتاب مثل العلاقة بين منتج السلعة وصاحب سلسلة السوبر ماركت. كلاهما يعتمد على الآخر، ولكن اعتماد الكاتب على من يبدع النشر عادة ما يكون أقوى، إلا طبعا لو كنت مثل الأستاذ هيكل وأمامك عشرات من الصحف تلهف على كتابتك. لكن حتى كبار الكتاب لا يستطيعون أن يفقدوا رؤساء التحرير، وخاصة رؤساء تحرير الصحف والمجلات المحترمة، ومن ثم يضطرون للحفاظ على الجسور سليمة مع رجل مثلي. شباب الكتاب المتحمسون معنا، وتبقى أمانتنا مشكلتان: الصحفيون من ذوي الميول الإسلامية والصحفيون الموظفون لدى الحكومة، وعلينا أن نقد صفقة مع أحد الجانبين كي نفوز. لكن ما زال أمامي شهران كاملاً، وسأفترغ لهذا الموضوع بعد عودتي من لندن.

• • •

كنت في لندن حينما علمت أن جماعة تسمى نفسها «جيش خير» تخطط للقيام بعملية كبيرة ضد هدف مصري. لم يقل لي المصدر (صديق منذ أيام لندن) شيئاً عن طبيعة العملية أو عن مكانها. ولم أكن قد سمعت باسم هذه المنظمة من قبل وبدا لي ناقصاً: خير من؟ خير الأنام مثلاً؟ أم جيش الخير؟ أم شخص اسمه خير؟ صديقي (المصدر) قال إن القرار اتخذ وأن العملية ستتم في خلال شهر. أعطاني أسماء أربعة عناصر هم المشرفون على التنفيذ (كنت أعرف أحدهم وهو «مجاهد» باكستاني سابق كان طالباً بلندن يتقن العربية). لماذا قال لي أنا؟ ربما يريد إبلاغ السلطات دون أن يحسب عليه ودون أن يتعرفوا عليه ودون أن يدخل في متاهات. ربما يسوي حساب مع الجهة المنظمة للعملية، ولكن لماذا عن طريقي أنا؟ ثقة فيّ منذ كنا نتبادل الخدمات والمعلومات في لندن؟ أم يختبرني؟ أم له دافع آخر وليس هناك عملية ولا يحزنون؟ ربما يريد الانتقام من هؤلاء الأربعة لسبب ما؟ هذه الجماعة ليس لها وجود في مصر، ومعظم نشاطها يتركز في الأماكن الهامشية - حسب ما ذكر لي، في جنوب شرق آسيا واليمن والسودان والبلقان، كما أن لها قيادات في نيجيريا.

قضيت حوالي أسبوعاً أبحث عن مزيد من المعلومات عن هؤلاء الأربعة واستعنت في ذلك بصديق آخر (جورج، وهو فرنسي من الأكراس كان يعمل ضابط اتصال في السفارة الفرنسية بلندن بين جهازي المخابرات الفرنسي والبريطاني). اضطرت للسفر لباريس لمقابلة جورج حيث يقيم ويعمل حالياً. بعد عدة أيام اتصل بي جورج ثانية وقابلني في مقهى الروتوند في شارع مونبارناس على الإفطار

(ما زلت أعتقد هذا الإفطار الفرنسي منذ أيام ليلى) وتحدثنا حديثاً عاتياً. وعندما غادر المقهى ترك لي على المنضدة ظرفاً يحوي صور الأشخاص الأربعة وسيرة حياتهم والمعلومات المتاحة عن محل إقامتهم الحالي وعن المنظمة المذكورة وسجل أعمالها.

ماذا يمكن أن تكون هذه العملية؟ إما اغتيال شخصية كبيرة أو عملية إرهابية ضد السياحة. كل العمليات الإرهابية التي وقعت في مصر كانت موجهة إما ضد المسؤولين أو الكتاب أو ضد السياحة أو بعض العمليات العمياء ضد المواطنين. ولم أعر اهتماماً كبيراً المكان العملية فهذا أمر يخضع عادة للقادة المحليين، فإذا تعذر تنفيذ العملية ضد الهدف الأساسي عادة ما يمكن التعديل لهدف ثان أو ثالث يمكن إصابته بتأكد أكبر. أتوبس سياحة في القاهرة أو الأقصر أو أسوان، حسب مسرح العمليات.

كان قراري قد اتخذ منذ علمت بالعملية: سأقايض الأمن على هذه المعلومات. أعطيتهم ما لديّ، بالترتيب، مقابل إنهاء قضية الاحتساب ووعد بمنع تكرارها في المستقبل. كنت مسافراً للخرطوم بعد أسبوعين لحضور مؤتمر تنظمه الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان في العالم العربي، وأردت إنهاء المسألة قبل السفر. وقد كان. عدت للقاهرة ورتب لي اللواء سمير لقاء مع المستوى الأمني والسياسي المطلوب وتم الاتفاق وأعطيتهم البيانات التي لديّ كاملة (فيما عدا أسماء الأشخاص الأربعة وصورهم والمعلومات عن محل إقامتهم) ووعدوني بتغيير ملموس في موضوع القضية

خلال أسبوع. قلت إني مسافر للمخروطوم وإذا توفرت لي معلومات أخرى في المستقبل القريب سأحيطهم علمًا. كانت نيتي أن أعطيهم الصور وبقية البيانات بعد عودتي من السودان بعد أن أرى ماذا فعلوا بالنسبة لقضية الاحتساب، بحيث لا يأخذون كل المعلومات ثم يسوفوني.

لا بد وأن الصور في جيب جاكتي في مكان ما تحت هذا الجدار.



أريد رئاسة تحرير الأهرام. لا شيء أقل من هذا سيرضي طموحي. الأهرام هي المؤسسة الوحيدة التي تناسب قدرتي على الإبداع والتطوير، ولكنني أعلم أن هذا شبه مستحيل في ظل النظام القائم. الأهرام تؤدي وظيفة لا أقبل أن أكون منفذها ولن تقبل الحكومة أن تؤدي الأهرام الوظيفة التي أريدها لها. بعد أكثر من عشر سنوات على قمة المجلة وقمة العمل الصحفي والسياسي في مصر، حان الوقت لأنتقل لشيء أكبر. الأهرام حلم مستحيل، ولكنني أستطيع إصدار جريدة يومية جديدة، إنشاء مؤسسة صحفية كاملة أكبر وأكثر عصريّة وديناميكية من الأهرام. هذا ليس حلمًا مستحيل التحقيق. قلت لأصدقائي انظروا الجريدة الحياقة، هذه مؤسسة ناشئة تنجح لتكون مؤسسة عملاقة، وأنا لذي القدرة على إنشاء مؤسسة عملاقة في القاهرة تكون منارة للعمل الصحفي والإعلامي في العالم العربي. كل ما أريده هو الترخيص، السماح، البروتوكشن، أو حتى عدم التعرض.

ولكنني كنت أجابه بالرفض دائمًا. هذه هي الحدود المسموح لي باللعب فيها. «ما تستعجلش رزقك»، هذا ما قاله اللواء سمير مكرزاً على مسامعي نفس الكلمات التي سمعتها تقريباً من كل أعضاء نادي البروتكشن. لا تستعجل رزقك.



رأيت كل شيء من البداية.

وتحول كل شيء إلى وجع في قلبي وجدار على صدري وبغضاً مقيماً عالمًا في الهواء أنحت فيه طريقي كل يوم من بيتي إلى المجلة ويظل قابلاً خلف الشبايك وخلف الأبواب في انتظار خروجي ليكبس مرة أخرى على نفسي.

رأيت كل شيء من البداية، وتعبت من الحزن ومن الدمع المنسكب في قلبي، دمع كأنه نار تميت القلب وهو لا يموت. تعبت يدي من الكتابة ومن الإشارة ومن التلويع ومن التشويح ومن الدق على المناضد، وتعب حلقي من الصراخ ومن النقاش ومن الكلمات التي صارت كالصابون من تكرارها، وتعبت أذناي مما أسمع، مما أكره ومما أحب ولا يتحقق، وتعب صدري من الحزن القابع عليه كالصخر الأزلي، وتعبت عيوني من النظر ومن الرؤية ومن هول ما أرى.

عندما رأيت ذلك الباكستاني تذكرت الصورة اللعينة، ويرق كل شيء في ذهني دفعة واحدة وفهمت. كنت ما زلت أصرخ في وجه رجل الأمن عندما أكمل عقرب الدقائق دورته وتمت الساعة العاشرة. تخلخل الهواء قليلاً وماعت الأشياء في وقتها ثم انطلقت في الهواء

وتبعثرت وتطايرت وارتمطت وتخلعت وانهارت وانفجرت وملا  
 القبار الهواء. كان رجل الأمن ما زال يشير إليّ بإصبعه مهدداً وكان  
 الباكستاني ما زال ساجداً عندما رأيتهما يتفجران معاً وجسديهما  
 يتبعثران قطعاً في الهواء المصطبغ بالدم. رأيت رأس رجل الأمن  
 تشرع في الاستدارة للخلف في اللحظة الأخيرة قبل أن تختفي مع  
 بقية الأشياء المتناثرة. ورأيت الأرض وهي تهوي وتبتلع المكاتب  
 والسجاد والصالون والجالسين. رأيت الجدران وهي تهوي وقطع  
 الخرسانة المنخلعة من السقف تسقط فوق الجميع وتردهم في هوة  
 الأرض. رأيت باب العميد أحمد كمال يفتح ووجهه يظهر لوهلة  
 قبل أن يطير مع بقية الجدران في كل الاتجاهات وجدران حجرته  
 تنهار والباب يفجر في الهواء. رأيت جدران القنصلية وهي تنفوس  
 وضوء الشارع الباهر يدخل وينعكس على القبار العالق في الهواء  
 فيعشي العيون أكثر. ورأيت قطعة السقف هذه تهوي عليّ بما فوقها  
 وتحجب الرؤية عني. رأيت أسمنت السقف قابلاً أمام وجهي وممتداً  
 من حولي لا يتزحزح ولا يهتز. رأيت أسمنت السقف يحشر ذراعي  
 في الجدار من تحتي ومن حولي ويهصرني. رأيت التراب وهو يملأ  
 عيني. وما زلت أرى ضوء سيارات الإسعاف يأتي من بعيد وأكاد  
 أسمع أصوات عمال الإنقاذ يحول بيني وبينهم هذا الأسمنت.

• • •

(٣)

## ورود خضراء زاهية تكاد تكون قاتلة

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

RAYAHEEN

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ماذا أقول أكثر من هذا؟ لا بد وأن المبنى كله قد انهار. ماذا جرى؟ كيف فعلوا هذا؟ هل فقدوا عقولهم؟ هل وصلوا لهذا المستوى من الجموح؟ وما الهدف؟ هل فقدنا السيطرة على أنفسنا لهذه الدرجة؟ كل ما حولي تراب، وقطع صغيرة مبعثرة من الأسمنت، وجدار ضخم متصدع لكنه ما زال متماسكًا، وألم في ظهري ووجهي. تحسست وجهي، دم وجرح رفيع بطول خدي، وتراب الأسمنت يجرح حافة الجرح. ذراعي اليمنى محشورة داخل الجدار المتصدع، أحاول عبثًا إخراجها. خدر يغمز الذراع سريعًا. ربما يستر. لا أصدق أنهم فعلوها، هؤلاء الهمج!

أصوات بعيدة تأتي وتعلو، صباح، ثم أصوات سيارات إسعاف أو شرطة. صراخ مستمر يتردد صدى في الركاب. ماذا حدث؟ كم من الضحايا؟ قلبي يفور لمجرد التفكير في ذلك. رأيت عددًا من الوجوه المألوفة ثم حل الظلام بفتة، كأن الكهرباء انقطعت، ثم طنين هادر في أذني وارتطام وألم في ظهري، ثم بدأ الضوء يعود شيئًا فشيئًا. كم استغرق ذلك؟ لا أدري، لكنني لم أكن أذكر أين أنا حين أفتت: خلت أبي نائمة بالبيت ثم تذكرت جلسة المؤتمر في

الصباح ثم أدركت أنني في الخرطوم، ثم تذكرت القنصلية. القنصلية. تركت المؤتمر متعقداً وذهبت للقنصلية لاستكمال أوراق اعتماداتي بالمؤتمر - هكذا طلبت سكرتارية المؤتمر منا. ودخلت إلى صالة القنصلية فوجدت أشرف فهمي واقفاً يتعارك مع حارس الأمن ووجهه أحمر من الغضب وبعض رذاذ ماء حول فمه وعلى شاربه، ثم رأيت سلمان أحمد واقفاً يصلي في الصالة. فقدت التركيز ثانية أو ثانيتين وأنا أنظر لسلمان أحمد، وحين برقت الإجابة في ذهني أظلمت الدنيا من حولي.

ماذا أفعل الآن؟ ما دمت أرى ضوءاً فلا بد أنني قريبة من سطح الركام. هل أزحف نحو هذا الضوء بين شقوق وقطع الجدار؟ قد ينهار أكثر. وذراعي المحشورة، لعلني أستطيع تخليصها أولاً. ولكني لا أكاد أشعر بها. حقبة يدي الجلدية ما زالت بجواربي. سحبتها بيدي اليسرى وفتحتها، هذا هو المندبل. مسحت الدم من على وجهي وتركت المندبل على خدي. سقطت الحقيبة بين الشقوق. أسعل، فيوخز الألم ظهري. لا بد أن هناك كثيراً من الضحايا، مساكين الموظفين الغلابة. كان هناك هذا الساعي السوداني الذي أحضر لنا الشاي في مكتب القنصل منذ يومين: رجل أسمر وطيب النظرة ومتقدم في السن، يده ترتجفان بصينية القهوة. قال القنصل بعد خروج الساعي إنه كبر على الخدمة ولكنه طلب البقاء بعد بلوغه سن المعاش لأنه لم يكن لديه شيء آخر يفعله بعد أربعين عاماً من الخدمة في القنصلية. ونشأت كان أيضاً هناك. رأيت شبحه الرقيق في آخر المعمر عندما دخلت من الباب الرئيسي للقنصلية. والتفت

وهو يدخل غرفة الانتظار فتقاطعت نظرتنا ونظرت في الأرض سريعاً متعنية ألا يكون قد رأي، ولمحت على وجهه شبه ابتسامة ظلت عالقة في مخيلتي ولم أرها حقيقة إلا بعد أن حولت نظرتي. لا بد وأن ابتسامته تلاشت ببطء كعادتها. أليكون الآن تحت الركام يتنظر مثلي؟ أليكون مصاباً؟ هل يمكن أن يموت نشأت الآن، على بعد أمتار مني؟

أصوات الصراخ والنداءات تختلط وتعلو ككتلة واحدة من الضوضاء غير المميزة. ضوضاء وطنين هادر وألم حاد في ظهري، وطنين هادر ومستمر كصوت محرك عملاق وصوت خافت لسيارة إسعاف بعيدة.



صوت سيارة الإسعاف يتردد في عناد أمام لا مبالاة السيارات الأخرى، صوت السائق يأتي خشناً عبر ميكروفون السيارة الخارجي، غير مفهوم، ينهر سائقي السيارات في ياس. سيارة الإسعاف تاراجع، تقف فجأة لتسير فجأة وأنا أترنح على نقالتي البائسة ويغوص قلبي أكثر. يد صغيرة تمسك بيدي. أبحث عن الهواء فلا أجده. أبحث ثانية فلا يستجيب صدري. كأن شفاطة الهواء في صدري توقفت عن العمل. يد الممرضة تلمس جبهتي وتمسحها بقطعة من القطن المبلل، تفتح زرقميصي المهلهل وتمسح رقبتني. ممرض آخر يعيث بشيء يصدر صفيراً متقطعا، ثم يأتي الهواء ويغمرني فجأة، يملأ رتي وصدري وقلبي ويحملني بعيداً عن السيارة والطريق. كأني أطير في

هواء بارد ورطب، وتزرق السماء أكثر. وأطير. ويملا الهواء رتتي فأطير أبعد. ثم يتناقص الهواء سريعاً وأنا أهوي نحو الأرض كصخرة. يزداد الصغير في أذني وأنا أسقط أسرع وأسرع. أسقط في بئر، وأسمع صوت ارتطام جسمي بالماء، وأظل أهوي والبشر يضيّق عليّ حتى يحشرنني وأنا أهوي سريعاً محتكة بجدران البئر وتشعل الحرارة في جسمي وأدوخ. أتثبت باليد الصغيرة كيلا أسقط أكثر، ويتوقف الهواء تماماً، تماماً، ثم أبدأ الدخول في الألوان. كرات صغيرة ملونة غزيرة تغمرنني وتنهمر فوقني وتربط وتنفك من حولي، وأدخل في دوائر ألوانها وهي تتلوى من حولي، كرات ثم كرات من الألوان. ثم يأتي ذلك الصغير المتقطع وصوت طفلة باك:

.. ماما

ثم الهواء مرة أخرى، يغمرنني فجأة، ويد صغيرة تمسك بيدي، والهواء يحملني، وأنا أترنح، وصوت سيارة الإسعاف يأتي ويغيب.

• • •

كنت جالسة على أريكتي اثني أحياء. مدة ساقى فوقها ومطلقة العنان لشعري تحت الفوطة المبللة. جلست ياسمين ترقبني من المقعد المقابل وهي تنظّاهم بقراءة مجلّتها الصغيرة. أستكمل طلاء أظافر قدمي وعيناها تروح وتجيء مع فرشاة الطلاء. رفعت عيني إليها فجأة فارتبكت وعادت للقراءة.

.. تعالي هنا.

تظاهرت بأنها فوجئت ثم انفجرت أساورها عن إهسامه مأكرة وهي تقترب من قدمي. كانت ياسمين تنظر لطلاء أظافري وكأنها تشهد عملية سحرية. كل مرة تسلل وتجد عذراً ما لتجلس بجواري بعد خروجي من الحمام ومعها قارورة الطلاء الصغيرة.

.. كده، ماتمليش الفرشة قوي. يادوبك تبليها ويعدين ثغرشيا على الضافرة، ويعدين تظيطي الجوانب.

.. ممكن أجرب واحدة؟

.. جربي في ضافري أنا، إنتي لسه صغيرة.

.. ١١ سنة وصغيرة؟

.. باللا وريني حاتمليها ازاي، أيوه. لا بالراحة علشان ماتنطرطش، أيوه كده.

دخل زياد وهو يرتدي بلوفر من الصوف البرتقالي أكبر منه بكثير، وتجول في أنحاء الغرفة ثم توقف عندي ليراقب التجربة التي تجريها أخته. اقترح أن يجرب هو الآخر فطردتهما هما الاثنتين، وضحكت عندما عاد مرة أخرى وهو يرسم وجوهاً متوسلة بوجهه الصغير الدقيق الملامح، وضممته بقوة حتى صرخ وفر هارباً، وارتطم وهو خارج من الغرفة بأمي التي نهرت لهجريه في الشقة دون ترو. الثروي هو مفتاح الكلمات كلها عند أمي.

.. انتي بتدلمي الولاد قوي يا داليا.

.. يا ماما ولا بدّلهم ولا حاجة.



- ياسمين، سيبينا لوحدنا دلوقت.

- حاضر يا نانا.

- مش معقول يا داليا! الولاد كده حايطللعوا ماعندوهمش  
manières خالص!

- مش قوي كده يا ماما، أنا بس مش عاوزه أعقدهم، خليه  
براحتهم.

- براحتهم؟ يعني إيه براحتهم؟ أمال فين التربية؟

- إتي شايغاهم بيعملوا حاجة غلط يا ماما؟

- أنا مش شايغاهم بيعملوا حاجة صح!

- دول لسه صغيرين.

- صغيرين؟ دانتي لما كنت قد ياسمين كتي  
Demoiselle accomplie

- أيوه يا ماما، فاكدة.

- وبعدين معاكى يا داليا؟

- ولا حاجة يا ماما، أنا بس راجعة من المحكمة تعبانة شوية. أنا  
طالبة التأجيل يا حضرة القاضي.

- خليكى كده هزري! وربي بكرة هانهزري إزاي لما ياسمين يقي  
ست ومش فاهمة حاجة في بيتها ومع راجلها ولا في المجتمع.

سحبت ماما الجريدة وظلت تقرأ فيها دقيقتين بينما عدت أنا لطلاء  
أظافري. الرحمة يا صاحب الرحمة! أحياناً أتساءل عما إذا كان الله  
يختبرنا بأمرنا طاعة الوالدين حتى النهاية. ربما كان هذا هو أفسى  
اختبارات إيماني. ماما هي أم «ماجدة» في فيلم «أين عمري»، حتى  
في مظهرها. ويرغم سنين عمري المقاربة على الخمسين، فإنها لم  
تتأس من دورها كأم امرأة ناهية، كأنها لا تريد أن تعتزل أبداً. كنت  
أنظر لامي وطلاء أظافري يجف عندما رفعت عينها عن الجريدة  
وحدقتني في يأس من فوق نظاراتها:

- manières إيه اللي حا تعليمها لبنتك إذا كتي بتعملي ضوافرك  
في غرفة الجلوس!

ثم تركت الجريدة ونظاراتها ومضت إلى غرفتها.

• • •

الضوء يعود لعيني. وتعود الأنفاس لتتلاهما. هذا الثراب قليلاً.  
تستمر الأصوات ولكنها تتباعد. صوت سيارات الإسعاف يأتي،  
يعلو، يطن في المكان كله، ثم يسرع بعيداً ويختفي. لا بد وأن عمال  
الإنقاذ قريبون، ناديت لكن لم يرد أحد. ناديت ثانية، وثالثة. لا شيء.  
تستمر الأصوات المتباعدة. لماذا يستغرق الأمر كل هذا الوقت  
يا ترى؟ أريد ماءً. وأريد أن أخرج ذراعي اليمنى من تحت هذا الجدار  
الذي يكاد يهصره. وأريد أن أعرف ما حدث. هل انفجر المكان أم  
سقط المبنى؟ وهل هو سلمان أحمد الذي فجر المكان؟ أريد أن  
أعرف ما حدث لأحمد كمال. على الأقل هو يستحق أن يموت تحت

هذه الانقراض البائسة. إن كان هناك من يستحق هذه المينة فهو ذلك المريض، بتهذيب الزائف، باهتمامه الباردة وهدوئه الإجرامي. كان المظروف الأصفر ملقى على المنضدة بيننا وأنا أنظر إليه ولا أراه. أنظر إليه وكلي غضب مكتوم. كنت جالسة على مقعد حديقة النقابة أنصّب عرقاً، وأحاول أن أتماسك. المظروف يقع أمامي ولا أقوى على لمسه. أعلم ما بداخله ولا أريد أن أراه. نظرت للعميد أحمد كمال وراعتني أن أراه يشتم:

- أنا أسف، حضرتك اللي اضطرتنا لكده.

كيف اضطرتكم لهذا؟ وبأي حق؟ من أعطاك هذا الجبروت؟ وباسم من؟ ومن أجل أي غاية؟ هل فكرت ولو للحظة أيها المغرور المتعالي أن هذه القوة ليست لك؟ أنك حلقة في سلسلة من العنف المنظم القاتم؟ هل هناك عقل داخل رأسك هذه أم فقط أمراض الكبير؟ كنت أغلي، ورأسي يكاد يتفجر، والعرق يتفصد على جبيني. مر أحد من معارفي وقال شيئاً، وقال العميد شيئاً، وكانت الأصوات تختلط وأنا جالسة أنظر إلى هذا المظروف على هذه المنضدة بيننا ولا أنبس بكلمة. قام واقفاً وسوى قميصه بيده وقال شيئاً ومضى. مددت يدي للمظروف وسحبته وفتحته. كانت الأوراق بالفرنسية. مستشفى «بيت الرب»، باريس، ١٩٧١. نظرت لاسمي المدون عليه ولتوقيع الطبيب المختص: كلود إيميه. ياه! كدت أن أنسى اسمه! كم مرة رأيتك في أحلامي تولدني يا كلود إيميه، وكنت تحمل المولود بين ذراعيك لتريني إياه. أنظر فلا أرى في اللقافة شيئاً. مرات أخرى

كنت أنظر فأرى مسخاً، فأصرخ، وأنت تضحك بجنون وتلقي به في وجهي. ومرات كنت تريني المولود وأنظر، فتجري وأنت تحمله ثم تختفي، وأظن أنا أبحث عنه وعنك، وأبحث ولا أجدكما، ثم أستيقظ وهذا الشعور بالفقد يجتاحني. فقد ما بعده فقد. كلود إيميه، لم توقفت عن زيارة أحلامي أيها القاتل؟

الضوء يخفت، والأصوات تعلو ولكني لا أميزها، والعرق يغمرني، وخدر في ذراعي يؤلمني. والهواء... أين الهواء؟ احتاج لمزيد من الهواء. ولكن شفاطة الهواء في صدري لا تعمل. يد تمتد وتمسح على جبيني، وأصوات هرولة وصراخ. والهواء يقل أكثر. وأغوص. أسقط في بئر يسحبني لأسفل بسرعة جنونية حتى إنني لا أرى جدران البئر بل ومضات من الألوان، ومضات زاهية ومتسارعة تصبح خطوطاً متصلة متشابكة ملتوية كأنها عنايق من الضوء الملون. وأغوص أكثر في هذه الخيوط التي تستحيل كرات ملونة. وصوت سيارة الإسعاف البعيد الملح ويد تمسك بيدي وماء يقطر على جبھتي. ثم دفعة فجائية من الهواء تأتي كأنها مظلة تنزعتني لأعلى، ثم قفزة أخرى لأعلى، ثم قفزة شاسعة تأخذني خارج البئر مرة واحدة لسماة زرقاء يغمرني فيها الهواء. ويحملني ويتغلغل فيّ ويأخذني لأعلى، ويملا الهواء رتي.

• • •

ورد على النيل. ورد زاهي الخضرة يفرش مياه النهر من الضفة للضفة الأخرى، ورجال باتسون في قوارب صغيرة محاصرون

بجحافل النبات الأخضر. يلقون بغراطين وبرايميل في الماء ويدورون حول أنفسهم كالثانين. أنا المرأة الوحيدة وأصغر الجالسين حول هذه المنضدة. الأربعة الآخرون تعدوا الستين، على الأقل. أستاذي المحامي الكبير، وأبي الروحي، يشارف على السبعين. تحمس لفكرتي، وهو الذي أقتع الآخرين بالحضور لمناقشتها. هناك اثنان آخران من قيادات الحركة المعروفين لكنني لا أعرفهما بصورة شخصية، وهما صامتان معظم الوقت وواحد منهم دائم العبث بلحيته البيضاء. الثالث رجل أعمال بارز. رجل الأعمال صامت وكأنه ينتظر صدور الحكم كي يبدأ في حساب التكاليف. والعاث بلحيته يبدو عليه التفكير العميق طيلة الوقت ويومئ برأسه، حتى عندما سأله عما إذا كان يرغب في كوب من الشاي.

بدأ أستاذي الاجتماع بعمل التقديمات اللازمة، ثم طلب مني عرض فكرتي على الحضور. الشاي والقهوة لا يتقطعان من على المنضدة المستطيلة الخضراء وأنا أشرح مشروعي لتحسين الدفاع القانوني عن شباب الحركة الذين يتعرضون للقبض عليهم:

«حاليًا كل اعتمادنا على عدد من كبار المحامين الذين يتطوعون في القضايا الهامة، أو المحامين الذين يتطوعون لقضايا فردية حسب الظروف. واقتراحي هو أن ننشئ شبكة توفر الحماية والمساندة القانونية لكل المقبوض عليهم، بحيث تعمل بشكل آلي فور القبض على الشخص، زي التأمين الصحي يعني. بعد كده، لو فيه حد يريد التطوع لقضية بعينها يبقى مطلوب، لكن يجب أن يجد المقبوض عليه

محام يحمي حقوقه فور القبض عليه ودون أن يحتاج أهله للبحث عن محام.

يس ده يستدعي موارد كبيرة وتنظيم محكم يا أستاذة! ده علشان الكلام اللي بتقوليه حضرتك ده يتم، محتاج عدد كبير جدًا من المحامين، ويكونوا مرتبطين بيّا بشكل دائم بحيث تقدر نكلفهم بقضايا فورية. يعني محتاجة تديهم مرتبات بشكل دائم كأنهم موظفين، ومحتاجة يكون عندك مؤسسة تدير العملية دي كلها، ومحتاجة يكون عندك مصادر في أقسام الشرطة تبلغك إن فيه حد تم القبض عليه من الشباب بتوعنا.

ما هو انا باتكلم عن مكتب للمساعدة القانونية، بسكرتارية ومرتبّات وناس تتابع العملية.

طيب وإيه عيب النظام الحالي إذا كان شغال وبيؤدي الغرض؟  
كمان عمل مكتب حاجيب لنا وجع دماغ وحاجب visibility زيادة للجماعة!

بالعكس، النظام الحالي هو اللي كده. دلوقت احنا معتمدين على مجموعة محامين كبار، وكل قضية بيدخلوا فيها بتعمل visibility عالية. كمان، مع احترامي للجميع، يمكن استهدافهم أو الضغط عليهم. لكن لو فيه شبكة كبيرة من المحامين العاديين شغلهم اليومي الدفاع عن الشباب، كيف يمكن استهدافهم؟

برضه بالضغط عليهم.

- أصعب، لأن الحكومة إيداعها كبيرة وثقيلة، فأسهل عليها تكسر  
الشجر من إنها تلم ورد.  
- مش فاهم.

- بص حضرتك من الشباك. شايف عمال المسطحات المائية  
دول؟ طول النهار يضربوا كردون حوالين ورد النيل بالبراميل،  
ويعدين يلموا الورد في مراكب ويتقلوه بره النيل. زي ما يعملوا  
مع شبابتنا بالنقب، بس كل يوم يطلع لهم ورد جديد بره الكردون  
اللي ضربوه، فيروحوا يعملوا كردون على الورد الجديد ويلموه،  
يكون طلع ورد في المكان القديم، وهكذا. لما الورد كثر عليهم،  
راحوا جابوا المكنة اللي شبه الونش دي، بس مش عارفين يعملوا  
إيه بيها! لو كان الورد ده شجر كبير كان الونش شاله في نص يوم،  
لكن حايمل إيه الونش في شوية ورد متناثر ومالي سطح النهر كله؟  
حاليًا إحنا نظامنا عامل زي الشجر الكبير، ممكن لا قدر الله الحكومة  
تهده بالونش. أنا عايزة أغير نظامنا من الاعتماد على الشجر للاعتماد  
على الورد، على شبكة من الشباب إن شاء الله تبقى زي الورد! من  
ناحية ثانية، احنا دلوقت بتدخل بعد التحقيق ما يكون تم، لكن لو  
فيه مساعدة قانونية متوفرة من لحظة القبض حانصعب على المباحث  
إنها تتجاوز في التحقيق، وحنقدم مساعدة فورية للمقبوض عليه  
ولأهله. في رأيي الفكرة دي لو تم تنفيذها حاتعمل نقلة نوعية في  
الوضع القانوني للكودال اللي تتعرض للقبض.

استمرت المناقشات حتى وقت متأخر. ثم ذهبوا على وعد

بالتفكير في الموضوع، وظللت جالسة في مكتب أستاذي القديم  
أرقب ورد النيل. لا فائدة في هؤلاء العمال، التخلف ليس صدقة  
مثلما كان أستاذي يقول دائمًا.

- أبشري يا أستاذة!

- فعلا؟

- إن شاء الله. هي بس الفكرة جديدة عليهم وجاية من واحدة  
ست، انتي عارقة، معظم التعاملات دي مع شباب ومش حايقبلوا  
ده بسهولة.

- أيوه بس كوني ست مش معناه...

- أنا عارف يا داليا! بس دول ناس كبار ودقة قديمة زي ما يقولوا،  
أو شباب من الفلاحين والصعيد. المهم خيلنا بس نحل مشكلة  
التمويل والجوانب العملية وده حايساعد على إقناعهم.

- التمويل محلول، وعندي تصور للميزانية السنوية، والمصادر  
موجودة، بس تاخذ أوكيه.

- طيب سيبني لي الموضوع وان شاء الله خير.

• • •

«باريس» ١٥ أكتوبر ١٩٧٠

عزيزي نشأت

هذا خطابي الأول لك منذ سفري، وقد ترددت كثيرًا قبل الكتابة،

وأعلم أنني سأتردد قبل إرسال الخطاب، وربما لا أكتب لك ثانية، وربما لا اقرأ خطابي، ولكنني أريد أن أكتب، لك. أنا في باريس، وقد بدأت الدراسة منذ شهر. الجو هنا يختلف تماما عن جامعة القاهرة، كأنه عالم آخر. مع أنني جئت كثيرًا لباريس لكنني لم أر الحياة الجامعية من قبل، المكتبة مذهلة، والعلاقة بين الطلبة والأساتذة رائعة. الطلبة مغرورون كثيرًا - الطالبات أفضل قليلًا لكن مزاجهن حاد وبارد. الجميع منخرط في مناقشات طول الوقت تجعل مناقشاتنا العادية بجامعة القاهرة تبدو بسيطة وهادئة. ما زالت ذكرى الاضطرابات التي وقعت العام قبل الماضي حاضرة في الأذهان: البعض يتحدث عن عودة دييجول وكأنه انقلاب والبعض يتحدث عن ثورة الطلبة وكأنها خيانة، وهاتك يا مناقشات وشيعة! كنت أظنهم أهدأ وأكثر احترامًا للرأي الآخر، ولكن واضح أنه عندما تسخن الموضوعات فإن الجميع يفقد الموضوعية.

لا أشعر بأن أحدًا ينظر إليّ، مهما كان شكل ملابسي. الجامعة كرنفال ملابس وقصات شعر. الطلبة الأجانب أكثر أناقة من الطلبة الفرنسيين. الطلبة الأفارقة مسلون جدًا، ولا يدخلون من غرور مصطنع، كأنهم نسخة غير متقنة من الفرنسيين (أخشى أن أقول باهتة فتتهمني بالعنصرية ثانية). وأنا؟ أشعر أنني حرة هنا أكثر من أي وقت مضى. الطلبة العرب أيضًا حكاية، وخاصة من الجزائر. آه من الجزائر.

السكن الذي أوجده لي بابارنتع، وقريب من الجامعة، وكل شيء.

متوفر حولي، حتى السينما والمحلات الكبرى (بما ينذر بحملات لا تنتهي من الشراء). ولكنني أفقد القاهرة، جدًا. وأفقد الجامعة، وأصدقائي ومدرسي، وسيارتي الفولكس البيضاء وفوانيسها المضحكة، وأفقد النيل وبيتنا وأسرة البواب اللطيفة، وأفقد شوارع الزمالك ليلاً، والقهوة في سميراميس صباح الجمعة.

وأفقدك كثيرًا، وعميقًا، كأن جزءًا مني انتزع، وأشعر بوجوده وافتقاده معًا. كأنني أراه ولا أستطيع لمسه ولكن بقيتي يحترق من الشوق لهذا الجزء المنتزع. يا ترى أين أنت الآن وماذا تفعل؟ وماذا فعلت حين اغتفيت أنا؟ هل حاولت أن تعثر عليّ؟ هل حاولت أن تعرف أين أنا؟ وهل قال لك أشرف الحقيقة أم نفذ الوصية؟ الله يسامحك يا حبيبي، ويسامحني. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ ليت الأمر كان بيدي. لو كان هناك أي شيء، أي شيء يمكنني فعله كي أعيدك وأستعيدك وأعذك لي لما ترددت لحظة واحدة، ولو مشيت حتى آخر العالم لأجذك. ولكن ماذا تريد أن أفعل إزاء هذا الحائط الراسخ بيتنا؟

أعلم جيدًا ما ستقوله، وقلته، وما قلته أنا. كم مرة تبادلنا هذا الحديث وكم مرة صرختنا بعضنا في وجه بعض؟ وكم مرة بكينا وتركتنا بعضنا بعضًا؟ وكم مرة انهارت مقاومتنا وعدنا؟ أعلم أنني أعلم من البداية من أنت ومن أنا، ولكنني كنت أمل سرًا أن تغير رأيك، أن تتغير أنت نفسك، أو أن تختفي المشكلة. لكن المعجزة لم تحدث، وكنت أعلم أنها لن تحدث ولكنني كنت أمل بالرغم من يقيني. من

قال إن الأمل واليأس ضدان؟ كنت يائسة وكان عندي أمل.

أنت حبيبي، وأنت تعلم ذلك. وليس هناك ما أضيفه. ويجب أن تترك بعضنا بعضاً، وأنت تعلم ذلك أيضاً. وليس هناك ما أستطيع فعله سوى أن ألتقي بالبعد عنك هذه الأعوام. فابق بعيداً، ابق بعيداً من أجلي، ولن أرسل لك عنوتي، بالطبع.

\* \* \*

يا أمي: هلا قلبت شيئاً غير «الأصول يا داليا» كل هذه الأعوام وأنت لا تكلين ولا تملين. الفائدة الوحيدة لهذا التكرار هو إصراري على ألا أذكر هذه الكلمة أبداً لا بتي. أريدها حرة كمصفور. أريدها أن تختار بنفسها وأن تتعش وتزدهر وتنمو وهي تختار. أريدها أن تختار الاختيارات الصحيحة بلا شك، وأريد أن أجنحها كل أذى وكل جرح وكل ألم. ولكني أريدها أيضاً أن تختار اختيارات خاطئة، وأن تتألم كي تتعلم. وإلا أكون قد حرمتها من الحياة نفسها، ودمرت فرصتها في أن تكون لها قدرة ذاتية على السير وحدها في هذه الدنيا، وحكمت عليها أن تصبح مخلوقاً تابعاً ينتظر نصيحة كي يسير وراءها مغمض العينين، ويعلم الله أن الخطر حينئذ أكبر.

أنا مش هاعيشك على طول يا قمر.

ما تقوليش كده يا ماما!

ماقولش كده ده إيه؟ انتي عبيطة؟ طبعاً مش هاعيشك على طول، وعلشان كده لازم تعرفي تختاري لوحذك.

أختار إيه؟

تختاري الصح من الغلط.

واعرف أزاى من غير ما أسألك أو أسأل بابا؟

تسألني قلبك.

طيب ما قلبي حايقوللي على اللي انا عاوزة اعمله صح حتى لو كان غلط!

لا ده مش قلبك، دي رغبتك، أو الشيطان اللي بيدخل جواكي.

واعرف مشين قلبي من رغبتى؟

قلبك جوه خالص حايبقي عارف إن ده غلط وإن انتي بشيويه لنفسك علشان عايزاه قوي وبعدين اللي حايتصر هو اللي كلامه حا يمشي.

يعني ممكن الشيطان يتصر؟

طبعاً، لكن انتي حاتعرفي إن ده غلط حتى لو عملتيه، المهم عندي إنك تعرفي الصح فين وتعرفي إنك دايمًا ممكن تعرفيه وممكن تعمليه.

طيب وإيه اللي يخليني أعمل الغلط لو أنا عارفاه؟

ممكن يبقى نفسك فيه قوي.

وبعدين؟

- ويعبدن حاتنديمي انك عملتيه.

- طيب مش أحسن لو أسأل حد عارف؟

- ماهو انتي حاتينقي عارفة، انتي عارفة الصبح فين، مش محتاجة اللي يقولك، انتي محتاجة اللي يقوي إرادتك إنك تعملي الصبح.

- ومين اللي يقوي إرادتي؟

- ربنا.

- إزاي؟

- لما نغمضي عينيك وتفكري في ربنا وفي إنك بتحببه وإنه بيحبك وإنك مش عابزة تغضبيه، حاتلاقي نفسك عاوزه تقربني منه وتعملي اللي هو عاوزه.

- طيب دي حاجة سهلة قوي يا ماما.

- سهلة يا حبيبة ماما، سهلة يا روح قلب ماما.

- امال ليه الناس ما بتعملش كده؟

• • •

أحدق من نافذة السيارة باتجاه حقول انطفأت خضرتها، ولا تمتد بعيداً عن حافة الطريق، وبيوت غامقة اللون غير واضحة المعالم. كنت دائمة التفكير في أن الريف أخضر زاهي، حقوله شاسعة وبيوته مبشمة وسكانه فلاحون جادون وطيبون، وها أنذا في قلب الصعيد، تحت شمس قاتظة، وكل ما حولي يبدو قاسياً جداً.

وأفكر، لماذا أنظر لحياتي وكأنها لقطات من فيلم؟ لماذا أخبط نفسي متلبسة دائماً بتأمل الأحداث التي أمر خلالها بدلاً من أن أنغمس فيها؟ لماذا أفكر الآن في هذه الأشياء بدلاً من القضية التي تركتها لتوي وبدلاً من القلق على الطريق الذي يجب أن أقطعه حتى أعود لبيتي وأطفالي؟ قالت ياسمين على التلفيزون إنها بخير وإنهم سيتناولون طعام الغداء بدون «نأنا» لأنها في مشوار. لم يكن الصوت واضحاً وكان الضابط يادي التلمعل وأنهايت المكالمة سريعاً. لم يكن هناك مجال لتبادل القبلات مع ياسمين على التلفيزون ولا حتى للسؤال عن التفاصيل كيلا يكتشف الضابط أنني أهاتف ابنتي الصغيرة وليس سكرتيرتي في المكتب مثلما افترض.

تتحرك السيارة مبتعدة عن قسم الشرطة وتأخذ الطريق العمومي وما زال المشهد قاتظاً وقاسياً. كان الشاب قد تعرض للضرب طيلة الليل - على الأقل، وكدمات وجهه وتورم جسده وعدم قدرته على الوقوف تشي بذلك. نظر لي الضابط - عمره في عمر الشاب المقبوض عليه - وهز كتفيه في نصف اعتذار، أعطيته نظرة الشذر المهينة التي حفظتها وصارت مثل كارت أصفر أخرجه للضباط في الأقسام دون تفكير، تركني أتحدث مع الشاب في شبه انفراد - كان هناك كثيرون بالغرفة ولكن على مبعدة. قال لي الشاب إنه تعرض للضرب «والتعذيب» - واحمر وجهه ونظر في الأرض في انكسار لمدة ثانية ثم رفع عينيه بسرعة وفي ومضة واحدة أبلغني «رسالة» لأحملها لأحد الإخوة. بُهت. كانت الرسالة جد خطيرة، ولم أكن قد قمت بشيء من هذا قبلاً. اعترضتُ بصوت خافت:

- لا، لا، أنا ماليش في الحاجات دي، أنا جايه علشان حمايتك القانونية.

نظر إليّ غير فاهم:

- حمايتي القانونية؟

قالها وصمت في بأس وكأنه اكتشف فجأة أنني مجتونة. نظرت إليه في عيبيه لحظة قبل أن يحرك نظرتيه نحو الضباط في آخر الغرفة:

- من فضلك يا أخت بلّغي الرسالة، دي حياة ناس.

كان قاطعاً في لهجته، كأنه أمر. نظرت إليه وسكت فجأة، لم أعطه المحاضرة المعتادة عن الفصل بين العمل القانوني والعمل الميداني. فجأة فقدت الرغبة في الشرح وظللت أنظر إليه. لقد تعرض للاعتداء الجنسي ولاشك، هذا ما يقصده الشباب عادة عندما يشكون من «التعذيب» في القسم، خاصة إذا ما كان الحجز لم يتم لأكثر من ليلة، وهذا ما نشي به حالته. وماذا يمكن أن توفر له الحماية القانونية التي أزعج تقديمها الآن؟ لم يضع وقته في مناقشة عبث هذه الحماية، ولم أضع وقتاً في إفهامه أن هذه الحماية وإن جاءت متأخرة له فإنها ستؤثر على معاملة المقبوض عليهم عامة ومع مرور الوقت. كنا كلانا متعبين، والضابط عاد إلينا ونظر متسائلاً ثم أشار لجندي جاء وسحب الشاب من يده نحو سيارة الترحيل. أكملت إجراءاتي المعتادة واطلعت على المحضر وأخذت صورة منه ومن الأرقام وأسماء مناوية الضباط والجنود وخلافه، ثم طلبت التليفون. وهامي السيارة تقطع الطريق الملتهب شمساً نحو بني سويف حيث

تم القبض على خمسة آخرين سأذهب لرؤيتهم، وأعود للقاهرة في المساء. هذا دوري في المرور على الأقسام، أقوم به مرة كل شهر كيلا أنسى وأفقد الصلة بالواقع على الأرض. عرضوا عليّ إعفائي من هذا العمل المضني والذي يقوم به صغار المحامين، أو على الأقل الاكتفاء ببعض الحالات في القاهرة الكبرى، ولكنني أصبرت على الذهاب للصعيد مثل الباقيين، فالمعركة الحقيقية هنا، والتجاوزات التي لا تصدق تحدث هنا، والمواجهة تقع هنا، وهنا يجب أن أتى كيلا أنسى لماذا أفعل كل هذا.

والآن، ماذا أفعل في رسالة هذا الشاب؟ كانت الرسالة جد خطيرة، وقد يترتب على عدم تسليمها تبعات على بعض الشباب المسلح. ولكني لا أستطيع نقل هذه الرسالة. لا أستطيع نقل رسائل ميدانية. لن أتحوّل إلى مقاتلة، ولن أشارك في استخدام العنف. كان موقفني واضحاً في هذه المسألة ومنذ اللحظة الأولى، وقلت للجميع إنني ضد استخدام العنف وأن العنف لن يؤدي لنشر الدعوة ولا لتقريب الناس من رسالة هي بالأساس رسالة روحية وأخلاقية. وربطت عملي مع الجماعة بقبولهم لموقفني هذا وبالفصل التام بين عملنا وبين استخدام العنف. قوتنا تكمن في ضعفنا. قوتنا تكمن في تفوقنا الروحي والأخلاقي، في قدرتنا على مواجهة الطغوات بالكلمة، لا بالسلاح. السلاح قوته هو، والقتل ميدانه هو، وسفك الدماء والإرهاب لعنته هو. نعم، قبلت الدفاع عن الشباب المقبوض عليه في قضايا عنف، فأننا أنفهم الظروف والأسباب التي حدثت بهم لذلك، وأنا أدافع عن حقوقهم أمام النظام القضائي وهو



أبسط حق للمتهم، ولكن هذا شيء والانخراط والتورط في أعمال القتل والنهب شيء آخر تمامًا. وكمن مرة امتحنوني وكمن مرة حملوني رسائل من السجن وأقسام الشرطة لأخرين، ودائمًا ما رفضت نقلها، ولن أريض الآن. لن أسلم هذه الرسالة ولا غيرها. على من اختاروا القتال أن يتديروا أمورهم بأنفسهم دون توريطي أنا. أنا محامية ولست مقاتلة، ولن أشارك في دائرة العنف والعنف المضاد.

• • •

«باريس، ١٢ ديسمبر ١٩٧٠»

عزيزي نشأت

ذهبت أمس مع مجموعة من أصدقاء الدراسة لحضور حفل لموسيقى الجاز يحيه مايكل ديفيس الذي جاء من نيويورك خصيصًا لهذا الغرض. وقد مهد بعض الأصدقاء لحضورى بإعطائي كتب عن الجاز وتسجيلات لبعض المقطوعات الشهيرة، وقد قرأت الكتب واستمعت للمقطوعات ولم تعجبني، ولكني قررت الذهاب استكمالًا للتجربة مثلما كنت تقول لي. وكانت حفلة صاخبة جدًا ورائعة بشكل من الأشكال، لكن قرارى النهائي هو أنني أكره موسيقى الجاز، وأسمع إيقاعاتها كأنها مسامير تدق قاع روحي وتثقبه وتحوله لمصفاة تتساقط نفسي من بين ثقوبها وتفتني. موسيقى الجاز هي اكتمال الخواء، هي استنزاف الروح، هي عكس الموسيقى وعكس الطرب. موسيقى الجاز هي علم الفوضى وهي النشيد القومي

للعدمية ونداء النهاية. الذي لا أفهمه حقًا هو هوس بعض العرب بها، من أين؟ ولِمَ؟

وإذا كانت هذه الموسيقى امتشرت في الثقافة الغربية مع انهيار القيم والمعايير وانتشار التخبط الروحي، فكيف تخاطب هذه الموسيقى مشاعر المصريين والعرب هنا؟ أم إنهم من ولهمم بالثقافة الغربية ورغبتهم الدليلة في تقليدها يقتنعون أنفسهم بأن هناك خواء في روحهم وأن هذه اللاموسيقى تخاطب أحاسيسهم؟ ولم هذه المهانة؟ ولماذا أكل هذا الملف والدوران؟ كانت لي صديقة في المدرسة اشترى لها أبوها معطفاً للمطر مثل ذلك الذي نراه في الأفلام الأجنبية، وكانت شديدة السعادة به لأنه - على حد قولها - يشعرها أنها في أوروبا. مشكلتها الوحيدة أن الدنيا لا تعطر في القاهرة أبدًا للدرجة التي تبرز ارتداءه، إلا أنها ظلت محتفظة به حتى سافرت لندن بعدها بعشر سنوات والتقطت لنفسها صورًا به. أليس هذا جنونًا مطبقًا واحتقارًا للذات؟ أبلغ بنا الافتتان بالصورة، صورة الغرب، صورتنا متحولين إلى غرب، هذه الدرجة الرخيصة؟ نستورد موسيقى لا هي موسيقانا ولا نحبها ثم نرغم أنفسنا على تعلمها وتعودها وإتقانها وإدعاء حبها؟

هل أعطيتك شيئًا جديدًا لتقول إنني متطرفة؟ أنا لست متطرفة، أنا أكره الفوضى. أكره أن أرى الإنسان يتدنّى ويلهث كالحيوان خلف غرائزه دون رادع أو وازع أو قيادة. المسألة بسيطة جدًا، تبدو فلسفية وعميقة لكنها بسيطة. هو سؤال واحد: ما هو الأساس الذي يقوم عليه نظام الأخلاق؟ ما هو الأساس الذي يحدد الصواب من

الخطأ؟ الغرب اللاديني قرر أن هذا الأساس هو عقل الإنسان - رويت  
لنفسه وللحياة، وهذه الرؤية هي التي تحدد ما هو الصواب وما هو  
الخطأ. في المقابل، رجال الدين طول عمرهم يقولون إن الأساس هو  
الكتب المقدسة. ولكن وقع الاثنان في جمود وفي فوضى. الغرب  
اللا ديني قادنا للفوضى الكاملة في مجال الأخلاق، فكل شيء لديهم  
جائز طالما تم بالتراضي: الزنا جائز، واللواط جائز، بل حتى زواج  
المحارم حلله البعض إن تم بالتراضي. أي فوضى وأي عمى وأي  
انقياد للغرائز أكثر من ذلك؟ في المقابل هناك جمود رجال الدين،  
وهو أمر نعرفه ولا حاجة للإطالة فيه. ولكن كلا الموقفين متطرف،  
والصواب يقع بينهما بالضبط. فالأساس ليس غرائز الإنسان وإنما  
روحه التي بثها فيه الخالق، وبالتالي فالأساس للأخلاق إلهي، يحمله  
الإنسان في قلبه ويعلمه في قرارة ضميره.

هل هذه مسألة معقدة؟ ومن المتطرف فينا، من يريد أن يعيد  
للإنسان، وللمرأة بالذات إنسانيتها ووجودها المستقل المستول؟  
هؤلاء الذين لا يرون فيها إلا شيء - جميل نعم - ولكنه مادة  
للاستهلاك وللرمي حين تستنفذ أغراضها ويخبر لمعانها؟ وكيف  
تفقد النساء وراء تلك الفوضى التي تهينهن وتغيبهن؟ هل الغريزة  
قوية لهذه الدرجة؟ هل غسيل المنع قوي لهذه الدرجة؟ وهل صار  
القلب بعيداً لهذه الدرجة؟

وهل صدعت رأسك بترهاتي مرة أخرى؟ لا بد وأنك كنت تتنظر  
مني خطاباً عاطفياً، ولا بد من أني قد خذلتك - ثانية. ولكن أليس  
ذلك قدرنا؟ أن أحبك وأخذلك وأن تحبني وتعذبني؟

أعتذر مرة أخرى أني لا أرسل لك عنواني، فأنا لا أريد تلقي  
رسائل منك، وسأسمح لنفسي أن أواصل الكتابة إليك فهي تعينني  
على فراقك ونسيانك - حتى وإن بدا لك هذا الكلام غير مترابط وغير  
منطقي. ويمكنك دائماً، مثلما كنت تقول، أن تمارس حقلك في عدم  
قراءة رسائلي؟.



كم أكره حديقة النقابة! مجرد المرور من الحديقة إلى مكتبي  
يشير في التنقز، أخشى هذه المسافة من الباب الخارجي وحتى عتبة  
السلم الأولى طوال اليوم، كأنه امتحان سأقدم عليه في نهاية اليوم.  
وجريت كل الحيل للتغلب على هذه الرهبة. قررت أن أسير ببطء  
وأُنظر للمجالسين أنفحصهم بل وألقي بالتحية على بعضهم. وجريت  
التحديق الصامت والواجم. وجريت عدم النظر والمرور بسرعة.  
وجريت النظر في الأرض وتجاهل الحديقة بأكملها. ولم يفلح  
شيء في التغلب على الضيق الذي يعتريني حين أمر من هذه الحديقة  
الصغيرة الحشيرة. من هم هؤلاء الناس؟ ولماذا يتلطمعون هنا؟ أليسوا  
محامين ولديهم أشغال أو أسباب للتواجد هنا أم إن النقابة صارت  
مقهى للمعاطلين والمتضجرين؟ ومن هؤلاء النسوة؟ وكيف تحولت  
الحديقة إلى مرتع للترخص؟ تسألني سارة في تحد:

- واني مالك؟ التي خائفة من البنات دول لأنك ما تقدرش تبقي  
زيهم، وخائفة من الرجال دول لأنهم مقتحمين.

- انا مش عايزة أكون زيهم يا حبيتي، وشوية المقاطيع دول

مايخوفوش قطعة، دول زي الكلاب اللولو لسانهم مدلدل بره بقهم، وأي واحد ممكن تودبهم وتجيهم، لكن المشهد كله يقرف.

- انتي اللي بتقرفي من الأنوثة وتعبيراتنا، عايزة تكبتي النسوان وتكبسي على نفسهم زي ما انتي كابتة نفسك.

- والنتي بلاش كلام فارغ، مش ناقصاكي. لو كنت كده ماكنتش عرفت واحده زيك.

- طيب ماتسيبي الناس تعمل اللي هي عايزاه.

- شايفاني ماسكاهم؟ مايروحوا يعملوا اللي هم عايزينه! بس بعيد عن النقابة.

- ده إيه بقى؟ فجأة بقيتي عضوه في يوليس آداب النقابة؟ ماتضمحكيش على نفسك يا داليا، انتي من زمان عندك مشكلة مع أنوثتك، مضايقاكي.

- أنوثتي لي أنا، وللرجل اللي أحب أعيشها معاه، مش للترخص باسم النضال. هي شطارة إن الواحدة منّا تبقى قاعدة كده عبارة عن هدف للصيد؟ مش معقول أبداً جمالي جزء مني ومن الأنا الجوانية فيا، مش وقود للمجتمع الذكوري الغرائزي الحيواني الجهول.

- خليككي كده مدياها الكلام الكبير بتاعك ده، بس مش عليّ أنا وحياة المرحوم والدك. بعيد عن المرافعات بتاعتك، انتي في النهاية حابسة نفسك في القفص الحديد اللي انتي عايشة فيه ده وخالقة غطاء أيدولوجي عشان تبرري المأساة دي لنفسك يا مسكينة. أنا

مش قاهمة جاي من ده عليكى بإيه؟ مالها العيشة والحرية والرجالة والرواقان؟ ماتفكيها يا حاجة علينا شوية، هو فيه إيه؟

- غطاء أيدولوجي؟! بذمتك مين فينا اللي مديها كلام كبير؟

- أبوه! ميعاد التريقة جه!

لك الله يا سارة! كثيرا ما سألت نفسي لماذا احتفظت بعلاقتي بك كل هذه السنوات رغم جنونك البين ورغم اختلافنا الذي لا يمكن جسره. كم من المرات ناقشنا بالساعات حتى نصل للطريق المسدود نفسه كل مرة؟ كم من مرة أعلنت بأسى من إصلاحك برغم روحك الطبية الدفينة؟ حتى صارت مناقشاتنا ترديدا آليا لمواقفنا وكأننا نسجلها للتاريخ. تلوح كل منا بمجموعة الكلمات التي ترمز لمواقفنا المتباعدة ولاختلافنا النهائي، ثم نتقل لموضوع آخر. وأنساءل أحيانا إن كنا قد تناقشنا فعلا بجِد ولو مرة واحدة؟ طبعا لامتني أمي على علاقتي بك التي ترمز في نظرها للانحطاط الكامل، وطبعا ألمحت أمي إلى أنك تثيرين مكانم الشرقي نفسي. أي مكانم للشر يا ماما؟ سارة هي الوحيدة التي استيقظت من عالم التوهان وغياب المعايير الذي كنت مرشحة له بحكم مولدي وتربيتي المتفرجة، وقد كافحت وحدي. ضدك أنت شخصيا. للاعتاد عن هذا العالم الذي بدا وكأنه لعبة مصصيني مهما فعلت. وكنت تستكرين ما أسميته ترمتي، أنذكرين كيف قاومت ارتدائي للحجاب؟ وكان رأيك أن الحجاب «لناس الأي كلام» وليس لبنات الناس المحترمة؟ وكيف قاومت عملي في الدفاع عن شباب الجماعات على أساس أن السيدات

الفاضلات لا محل لهن في الأقسام ولا يحق لهن الاختلاط بما أسميته حثالة النظام الاجتماعي؟ أين تجددين هذه التسميات يا أماء؟ وهل كنت تقبلين لي أي عمل سوى التدريس في الجامعة؟ كيف أشرح لك أنني لا أستطيع أن أعمل في نفس المكان الذي يعمل نشأت به؟ لم تفهميني ساعتها، ولم أستطع أن أشرح لك.

وصديقتي؟ أتذكرين امتعاضك من صديقتي كافة، بمن فيهم المدرسات في الجامعة؟ قلت إنهن مجموعة من الفلاحات اللواتي يحاولن الظهور بمظهر بنات الناس وإنهن متحذقات ويفترن جميعاً للذوق. ووجدت في ارتدائهن الحجاب الدليل الدامغ على ضعة أصلهن المفترضة. ولكنك على الأقل قبلت وغامرت مرة بالذهاب معي لحضور عرس إحدى بنات صديقتي: أتذكرين كيف راعتك طقوس الزواج الإسلامي ودق الدقوف؟ لماذا صدمتك الدقوف لهذه الدرجة؟ عبثاً حاولت إقناعك أن الناس أحرار. قلت إنك أيضاً حرة فيمن تخالطينه. وأردت أن أقول إنني أيضاً حرة فيمن أخالطه، ولكنني لزمته الصمت أدباً.

لك الله يا ياسمين يا بتي.



حين قرأت الخبر المنشور في الأهرام علمت أن مصيبة قد حلت عليّ. كان الخبر صغيراً وميسراً: «هاجمت قوة صغيرة من الشرطة وكراً للمطرفين في إحدى قرى أسيوط وقتلت أربعة وألقت القبض على ثلاثة آخرين». وتذكرت «الرسالة» على الفور، ثم دق النليفون

قبل أن تبدأ أفكارني في التسلسل، وفهمت حين دق أن إحسامي كان مصيباً: هناك مصيبة.

حددوا لي موعداً في نفس اليوم، ثم اتصلوا بي وأجلوه لليوم التالي. في اليوم التالي كانت الشرطة قد ألقت القبض على سبعة آخرين، وفي اليوم الثالث سقط تسعة آخرون من عناصر التنظيم في محافظات الصعيد، وخلال بقية الأسبوع كانت بكرة الخيط تكرر في كل محافظات الدلتا. وعندما عقد الاجتماع أعيراً كان مئة وخمسة وثلاثون قد ألقي القبض عليهم أو لقوا ربهيم. في الاجتماع، قالوا لي إن ما حدث كارثة بكل المقاييس، وكان الغضب شديداً إزاء ما وصفوه به عدم تحملي للمسئولية، واتهامات بأن الكبر والغرور قد نالا مني وجعلاني أظن نفسي معصومة من الخطأ. وذكرني محدثي بأن الضوء والإعلام والغرور قد نالوا من الكثيرين قبلي، وأناي لست في منأى عن هذا الخطر. وعندما استفسرت عما يقصده بذلك وإن كان هذا تهديداً، نظر إليّ نظرة لوم أبوي مصطنع وقال إن هذا الحديث لا مكان له بين الإخوة، وإنه ينقل لي نصيحة. قالوا لي إن الجماعة غاضبة جداً، وإن هناك من يرى ضرورة دعوة المحكمة الشرعية للانعقاد والنظر في مسئوليته عن مقتل الإخوة الذين سقطوا والقبض على من تم القبض عليه. ولأموني على عدم نقل الرسالة التي طلب مني نقلها، والتي كانت يمكن أن تمنع حدوث ما حدث. وقال أحد الحاضرين إن الامتناع عن نقل رسالة بهذه الخطورة يشكل خيانة للأمانة. وقيل لي فيما بعد إن الكبار الذين يعرفوني قد حموني من غضب الفاضبين ودافعوا عني

وأكدوا حسن نيتي. أعدت على مسامع الحاضرين موقفتي والذي أعلته مرازاً وتكراراً من معارضي لحمل السلاح، وضرورة الفصل الكامل بين حمل السلاح والعمل القانوني، فنظروا إلي تلك النظرة الأبوية الثلاثة وأعادوا ما ذكره من قبل. أخرج أحد الحاضرين من جيبه قائمة بمن قتلوا ومن «أسروا» وأسماء زوجاتهم وأبنائهم وأعدادهم وأعمارهم وشرع في قراءتها، سائلاً إياي عما إذا كنت أظن أن باسمين وزيد أفضل منهم أو أن روحي أعلى على الجماعة من أرواح هؤلاء الذين سقطوا. ثرت، وكذت أفقد سيطرتي على ما أقول: «هل تهددونني الآن؟ هل فقدتم عقولكم؟ هل تعرفون من أنا وما يمكن أن أفعله؟». وما كان ينبغي أن أصرخ، فقد قدمت نفسي لقمة سائغة للمتجسس الذي ابتغاه محدثي. «الغرور والكبر مثلما قلت لك، كلنا أعضاء في جماعة واحدة ذات رسالة نبيلة واحدة، وأمرهم شوري بينهم وقد قضت الأغلبية، ولا يجوز شرعاً الخروج على إجماع أمة الإسلام، وهل عملك في سبيل الله وأمنه أم في سبيل نفسك وأولادك وغرور اتباع فكرك أنت؟».

ثم نطق أبي الروحي، الذي تمهيدني بالرعاية منذ بداية نشاطي وطالما رعى استقلالي وتفردي. نطق بعد أن ظل جالساً قرابة الساعة يستمع لهذه الترهات في صمت، فقال إن الفارق بين المفكر وبين السياسي أن الأول متفرد في قراره، سيد، غير ملزم بشيء من خارج تفكيره، في حين ينخرط الأخير بالضرورة في جماعة ويتفاعل مع أقران واتباع وقيادات، ويلتزم حيناً بما يراه وأحياناً بما تجمع عليه الجماعة. واستطرد مطولاً في تاريخ الجماعة السياسي والموقف

الذي تواجهه حالياً والقمع الذي يهدد وجود الجماعة، وعاد إلى سجلات نظرية قديمة قتلت بحثاً عن مواقف الشيوخين حسن البنا وسيد قطب، وكيف أن هناك أوقافاً وأوقافاً، وأن الوضع الآن قد أصبح كذا، وأن الموقف قد تطور إلى كذا، وأن الأغلبية قد خلصت إلى كذا، وهكذا وهكذا، حتى دارت بي الغرفة وسقطت من على مقعدي.



أفتح عيني شيئاً فشيئاً. أشعر بوهن يزحف عليّ. لم أعد أشعر بفراعي اليمنى المحشورة تحت كتلة الأسمنت. ما زلت قادرة على تحريك ذراعي اليسرى وإن كنت قد أسقطت حقيبتني في مكان ما. لا أستطيع أن أدير رأسي للنظر. لا بد وأن هناك حفرة ما تحتي. جائعة. هذا هو الشعور المسيطر عليّ الآن: جائعة ودائخة. وبصيص الضوء الذي يأتي من الأعلى ما زال هناك، ولكن أصوات سيارات الإسعاف ذهبت وحل محلها صمت عميق. صمت يثير القلق. هل كنت جالسة عندما وقع الانفجار؟ لا أذكر. لماذا لا أشعر بتصفي الأسفل؟ الرحمة يارب. ماذا أفعل الآن؟ ماذا يجب أن أفعل؟ هل أظل هكذا واقفة ومحشورة في انتظار الإسعاف الذي لا يجي؟ كم الساعة الآن؟ لا بد وأن الخبر قد أذيع. هل الأولاد في المدرسة أم عادوا؟ وكيف وأين سيتلقون الخبر؟ باسمين هي التي تشاهد الأخبار، ولكن زياد بكثير من مشاهدة التلفزيون وقد يأتي على الأخبار عرساً ويسمع الخير. يارب معتز يسمع الخبر قبلهم ويمنع عنهم التلفزيون. ولكن ماذا

سيحدث غداً عندما يذهبون للمدرسة؟ إن شاء الله أكون بالمستشفى وأقدر أتصل بهم. ولكن ماذا يؤخر الإسعاف هكذا؟



كان اسمه إبراهيم معتر إبراهيم، وكان الجميع يتناديه باسم أبيه معتر، وصرت أناديه هكذا أنا الأخرى، لا أعلم لماذا. كان هادئاً، وقوراً في غير تجهم، قصيراً بعض الشيء لكن متجانس القوام، يرتدي نظارة سميكة قليلاً، ينظر في الأرض معظم الوقت، يسير بسرعة وينجز حاجياته بسرعة ولا يطيل الحديث، يتسم قليلاً، ويختفي فجأة مثلما يظهر. لم يكن له أصدقاء مقربون من المصريين أو العرب بالجامعة، وكانت علاقته بالفرنسيين متباعدة ولكن فيها احترام متبادل، وكذلك كان الأساتذة يحترمون عمله واجتهاده. سمعت أن أباه كان قد قبض عليه مع الإخوان المسلمين في مصر منذ عامين، ولكنه لم يكن يدع أحداً يقترب منه لدرجة تمكنه من السؤال دون أن يبدو ذلك تطفلاً. قال لي عرضاً ذات مرة إن أهله في السعودية وإنه ربما لا يعود لمصر بعد إنهاء الدكتوراه حيث إن هناك عملاً ينتظره في جامعة بالرياض، ووجدت ذلك غريباً بعض الشيء.

كنت منهكة، مجروحة، وقلبي يراوح بين الحياة والموت. كنت أشعر أنني ساقطة، قفرة، وفارغة من الداخل، وأني هشة للدرجة يمكن للريح معها أن تحملي لأدوي بعيداً. وربما كنت أتمنى أن تفعل الريح ذلك. قضيت شهرين أو أكثر في نقاهة لم تحدث، وعندما

عدت لباريس كنت في نفس الحالة التي غادرت عليها. قابلت معتر في جلسة للأصدقاء، ومن يومها وهو حولي، بأكثر الطرق أدباً، وتفانياً ورعاية، دون تدخل ودون اقتحام. أخذ بيدي ووقف بجانبني وأوقفني على قدمي وجعلني أسير، وظل خلفي في صلاة وهدوء وأدب جم كأنه شجرة أو حائط أو دعامه من الحديد. لم يكن يتحدث كثيراً، وأحياناً لم يكن يتحدث مطلقاً، ولكنه كان يأخذني إلى حيث ينبغي أن أكون، ويجعلني أقوم بالأشياء التي يتعين علي القيام بها. وكان جهله بما حدث لي وبأي شيء عني تقريباً نعمة. لم يكن يسأل أو يشجعني على الحديث حين كنت أقارب هذه الموضوعات. كان صمته رائقاً وشافياً.

انكبت على دراستي، وما كنت لأنجز الماجستير دون مساعدته، وما كنت لأبني لإتمام الدكتوراه لو لم يحدث ما حدث بعد ذلك. وتوقفت عن التجارب، وخففت الضوضاء، ودخلت نفسي لأنظر فيها ولأنفهم ما حدث لي وكيف حدث. ووجدت هدوءاً لم أعده من قبل، ووجدت نفساً لم أعرفها من قبل. كأن عقلي بدأ في التفتح والظهور، كوردة طال انحباسها تحت الركام ثم خرجت، بدأت أستعيد السيطرة التي فقدتها على نفسي وعلى حياتي، وبدأت رحلة استقلالي. وفي كل ذلك كان معتر واقفاً في الخلفية، مراقباً في صمت. وعندما طلب الزواج مني بدا لي ذلك أمراً طبيعياً، ربما متأخر بعض الشيء. كنت قد أعددت العدة لذلك في ذهني، وقررت ألا أعطي عنه شيئاً إن طلب المعرفة، ولكني لم أتطوع بمعرفة لم يطلبها. سألتني إذا ما كان ما حدث لي منذ شهر - أياً كانت التفاصيل - له

تداعيات على مستقبلي. كان هذا هو سؤاله الوحيد، وأجبت بالنفي، وتزوجنا في مصر بعدها بثلاثة أشهر.

• • •

كنت أنظر إليهن وأفكر في أنهن جعلتني أشيخ قبل الأوان. لم أفكر في نفسي قبل الآن باعتباري «كيرة»: كنت دائماً أشعر أنني ما زلت طالبة، حتى ذهبت ذلك العام لأدرس مادة التشريع الإسلامي في الجامعة الأمريكية لطلبة الدراسات العليا. حينها فقط أدركت أن هؤلاء الجالسين على الناحية الأخرى هم الطلبة، وأني كبرت. وبدوا لي صغاراً جداً وبعيدين عني. لم أكن أضحك ضحكهم ولا أبدو مثلهم ولا حتى ملابسي عادت تشبه ملابسهم - حتى المحجبات منهن. وذكرت نفسي بأن هؤلاء هم طلبة الدراسات العليا، كيف ياترى سأشعر لو كنت أدرس لطلبة السنة الأولى؟ لا أذكر شيئاً مما قلته لهم يومها عن القانون والتشريع الإسلامي، ولا بد أنني بدوت تأنه تأنماً، وربما كان ذلك جزءاً من ظنهم - على الأقل في بداية الفصل الدراسي - أنني متزمنة. ربما قصدوا تأنه. كلما تكلم أحدهم أعمت النظر فيه كأنه هبط لتوه من الفضاء، وبعد أسبوعين أو ثلاثة بدأت أتعود على أنني قد كبرت وأن هؤلاء هم الطلبة الحقيقيون. ولم أعد للتدريس بعد ذلك الفصل الدراسي أبداً، رغم إلحاح الجامعة.

صرت «أم البنات» وصار مكتب المساعدة القضائية «مدرسة للبنات». لا يوجد به سوى ثلاثة ذكور - إضافة للساعي والمحاسب، وبقية المحامين من الشابات اللواتي تخرجن حديثاً. لم أقصر التعيين

على بنات الحركة الإسلامية وإنما ضمنت كل من توسعت فيها الخير والقدرة وأبدت استعداداً للعمل في مجال المساعدة القضائية، برواتبها الضعيفة ومتاعبها التي لا تتوقف مع الشرطة والمباحث وخلافه. في البداية اعترضت قيادات الحركة تخوفاً من دس عناصر من قبل الأمن، لكنهم ائتمنوا بأن دس العناصر لا مفر منه في كل الأحوال، وربما كان خيراً الطمأنة الأمن أن المكتب لا يقوم بأعمال سرية أو منافية للقانون. ودارت الأيام وكبر المكتب واشتد ساعده وأصبح مدرسة حقيقية للمحاميات. كما انضمت بعض بنات المكتب من غير الملتزمات للحركة لاحقاً، وانضمت بعضهن دينياً حتى وإن بقين خارج الإطار التنظيمي. صرت أمّاً لهن، وصرن يشعرنني بأنني قد هرمت.

• • •

دخل قاضي الاستئناف قاعة المحكمة وأخذنا كلنا أماكننا. سيتطرق الآن بالحكم في القضية التي شغلت مصر كلها على مدار عام وأكثر قليلاً. وأنا أرتعش في داخلي وأتماسك كيلا يبدو عليّ شيء أمام كل هذه الكاميرات - كيف يسمح القاضي بكل هذه الكاميرات داخل المحكمة؟ كأنها قضيتي الأولى، وكان عمري لا يزال ثلاثين عاماً وانتظر تأكيد قدراتي المهنية من فم القاضي. وكأنني لا أدرك الأبعاد الأخرى المتداخلة في حكم القاضي. وكأنني لم أقم مصر وأقعدتها حول قضية الاحتماب هذه. اللهم لا فخر، ولكنني صاحبة هذا الاتجاه الجديد. قلت عشرات المرات للإخوة إننا يجب أن

نركز على النظام القانوني والقضائي والنضال من أجله وبشفافية و«عيني عينك» كي نثبت حقوق الله والناس. وهذه القضية ليست عن الزواج الذي أدعو القضاء لفضه، وإنما تأسيساً لحق الفرد في الاحتساب ودفع القضاء للتدخل لإصلاح منكر حتى ولو لم يثبت وقوع ضرر مادي مباشر على المدعي. هذه ثورة في النظام القضائي ولم أكن أحسبها تتم، لم أكن أحسب الدولة ترك هذا السلاح لنا. أخذته بيدي، أخذت الدولة بكاملها للمحكمة كي يكون لي الحق في أن أغير المنكر بيدي، ليس بقوة السلاح والعصا مثلما يفعل الجهلاء، ولكن بقوة الحجّة والقانون، بقوة الفكرة والرسالة. لئلا ماذا يقول قاضي الاستئناف الآن.

اتهمني أدياء الحرية بأنني أمارس وصاية كهنوتية على الناس وأنني أسعى للقضاء بين زوجين ضد إرادتهما باسم الدين. وكان أي اثنين يمكنهما الاقتران إن رغباً دون ضابط أو رابط اجتماعي! وماذا لو رغب اثنان من المحارم في الزواج؟ واتهمني أدياء الدين بأنني أضيق الوقت في «جدل»، وكان الجدل في حد ذاته جريمة، وأرادوا بدلاً من ذلك عقد «المحكمة الشرعية» وإدانة الزوج بالردة، ثم تعذيرهم بخطاب، وإنزال الحد عليه إن لم يعلن توبته، ثم على زوجته باعتبارها متزوجة بكافر. قلت لهم إن هذا لا يجوز، وإنه لا يمكن للجماعة التصرف وكأن ليس هناك ولاية للأمر ولا قضاء ومحاكم ودون إعطاء المتهم الفرصة الكافية للدفاع عن نفسه. قلت لا للاثنتين، لمدعي الدين ومدعي الحرية. نحن لسنا في غابة، نحن نعيش في مجتمع ودولة وهناك نظام وقانون وهذا ما ارتضاه الله لنا وارتضاه

الناس لأنفسهم تمييزاً لهم عن بني الحيوان. لسنا في غابة بلا قانون يصنع فيها كل منا ما يحلو له دون رادع أو ضابط. وإن كان البعض قد أحل نفسه هذه الحياة فهذا شأنه هو في حياته الخاصة، فلا يجب على المجتمع أن يسعى لمعرفة من يعاشر من وكيف. لكن أن يخرج الناس للعلن ويريدون استخدام روابط المجتمع بما يخالف قواعد هذه الروابط وضوابطها فهذا أمر يخص المجتمع وليس الفرد فقط. كون فلان يعاشر فلانة هو أمر يخصه وحسابها عند الله، أما حين يريد فلان وفلانة أن يعلننا ذلك باعتباره زواجاً فذلك أمر يخص المجتمع ككل، حيث إن الزواج له تعريفه وضوابطه ونتائجه على حياة المجتمع ككل.

على الجانب الآخر، لا يحق لمجموعة من الشباب المتدين أن تأخذ القانون بأيديها وتحل نفسها محل الدولة حتى وإن فُشلت تلك في أداء واجباتها، وإلا تحول المجتمع إلى غابة يقوم فيها كل صاحب وجهة نظر بتنفيذ قانونه الخاص. ثار الشباب وبعض القيادات. تناقشنا وتحاججنا، ثم قرروا - على مضض - إعطائي فرصة «للتجربة». ولكن لماذا أكرر الآن كل هذه المحجج والمبررات؟ سينطق القاضي بالحكم الآن ويبين ما إذا كنت أنا على صواب أم هؤلاء الشباب.



كان ذلك الصيف هو المناسبة الأخيرة التي رأيت فيها أبي. فبعد زواجي، قرنا - معتر وأنا - أن نقضي الصيف كله في مصر، متقلين بين «البوسيت» في مرسى مطروح، وبيت العجمي، وبيتنا الجديد في



روكي. وكنت أرى أبي عندما نكون بالقاهرة حيث رفض الانضمام إلينا في الإسكندرية متعللاً بانشغاله بعمله، وإن كنت متأكدة أنه لم يستطع التأقلم على الحياة تحت سقف واحد مع رجل يتام مع ابنته، حتى لو كان زوجها، الثغينة ثلاث أو أربع مرات على العشاء أو الغداء خلال هذا الصيف، ولا أذكر أننا تكلمنا أكثر من التعليقات العادية حول الطقس، والصحة، وتوسع الإرسال التليفزيوني والأثر المتوقع لذلك على الثقافة، والمقارنة بين الزمالة ومصر الجديدة وما آل إليه حال الزمالة برحيل معظم أهلها للخارج واحتلالها من قبل الطبقة الجديدة من ضباط الجيش السابقين ومستولي الدولة. لم تبادل حديثاً خاصاً واحداً هذا الصيف، ولا قبله فيما أتذكر. ثم سافرت مع معتر إلى البوسيت في مطروح لقضاء آخر أيام شهر العسل، وعلى الإفطار في صباح اليوم التالي جاء رجل أسمر وحنى أمامنا وقال إن لنا تليفوناً في الاستقبال. جاء صوت أمي أمراً بأن نعود بأقصى سرعة للقاهرة لأن بابا تعبان، وعندما وصلنا إلى باب الحديد أدركت من نظرة عم عبده السائق أن بابا قد مات.

ورحنا إلى فرنسا بعد الأربعين مباشرة، وظللنا هناك حتى أنهيت الدكتوراه. خمس سنوات جئت خلالها لمصر أربع مرات لحضور سنوية بابا، حتى لم أعد أذكر أمي إلا في سوادها الصارم وأوامرها للسفر جية والخدم وإيماءات صامتة ومكتومة الحزن للأقارب والمعزين. وفي الليل، بعد أن يرحل الجميع ويخفت صوت القرآن، كنت أتقلب وحدي في فراشي في صمت. وحدي في هذا المنزل الكبير الخاوي، في هذا الصمت المطبق، أتمنى لو أن أبي تحدث

معي ولو مرة قبل أن يرحل عنا إلى الأبد. أحاول أن أتذكر صوته فلا أستطيع.



«باريس، يونيو ١٩٧١

عزيزي نشأت

أتمنى من الله أن يصلك خطابي هذا قبل سفرك، وسأرسله فور إنهائي له بالبريد المستعجل. وصلني خطابك الأول والآخر مثلما أسميته، وشكرًا على إعادتك لكل خطاباتي السابقة. هل أفهم من هذا أنك - أخيرًا - ستدعني أذهب لحال سبيلي؟ وأنتك تعيد خطاباتي كي أمضي قدمًا في حياتي دون ارتباطات؟ كي لا يكتشف زوج المستقبل أنني كنت متيمة برجل آخر؟ رجل رفض أن يغير مبادئه - ولو مرة - من أجلي؟

طبعًا عرفت عنواني. كانت سذاجة مني أن أتصور أن أشرف فهمي سيحفظ السر، كان يجب أن أدرك أنه لن يبق في فمه الكبير مغلًا لمدة طويلة - برافو أنه صمت كل هذه الشهور. تقول في خطابك إنني ساذجة في ظني أنك لن تستطيع معرفة العنوان لو أردت، وأن كل الناس هنا تعرفني وتعرف أين أنا: الجامعة، المستشار الثقافي، الأصدقاء، وحتى باتعة الكنتا المشوي ستدرك أين تسكن المصرية السعراء في الحي السادس عشر بباريس! أنت وحدك الذي نظن أنني مركز الكون، لا أحد هنا يعرفني أو يابه بي (ولاحظ من العنوان - يا أستاذ - أنني أسكن في الحي السادس، لا السادس عشر).

ولكن لماذا تأتي؟ ما الذي تريد أن تتحدث فيه معي؟ ليس عنا بالتأكد.. هل عاد هناك شيء اسمه «نا»؟ هل يمكن أن نستخدم نون الجماعة حين نتكلم عني وعنك؟ هل تذكر حين كنت تسألني ما إذا كان المصريون جماعة أم مجموعات تتجاوز وتعايش؟ اسمح لي أن أعيد السؤال إليك، ليس عن المسلمين والأقباط، بل عني وعنك.

ماذا لدينا لتكلم عنه. ماذا بقي لنا سوى الألم والذكرى والألم مرة أخرى؟

أرجوك لا تأتي، لا داعي.

أو قل لي الآن وفورًا إن هناك شيئًا جديدًا يستحق مجيئك. أنا لا أريد أن أكون مي زيادة ولا أريدك أن تكون جبران. واعتذر على خطاباتي التي أرسلتها. كنت أظنها ستعطيني والآن أدرك أن ذلك كان عملاً أحق من المرأة المستهتره بداخلي، وأعدك ألا أكتب إليك ثانية، أبدًا. ولكن من فضلك لا تأتي. ليس بيننا ما يمكن الحديث عنه. لن أفعل ما تريد كي أكون زوجتك، ولن تفعل ما أريد كي تكون زوجي، وليس أمامنا إلا أن نمثل أدوارنا في فيلم الحب المستحيل.. ولكنني شمت هذا الفيلم وشمت الألم ولا أريد أن أمضي في هذا الطريق أكثر من ذلك.

لا تأتي. لأنني أحبك، ولأنني لن أستطيع أن أكمل طريقي إن ظهرت مرة أخرى في حياتي. اذهب لمكان آخر، اكمل دراستك في سويسرا أو في بلجيكا أو اذهب لأمريكا. إنجليزيتك جيدة، فاذهب هناك. اذهب لأي مكان ولكن ابتعد عن الحدود الفرنسية، لعام

واحد فقط كي أنهي ما بدأت. لا تأتي وتهدي عائمًا كاملاً من مقاومة نفسي ومقاومتك. من أجلي، لا تأتي، فأنا أحبك أكثر مما يمكنك أن تتصور، فلا تأتي.



فراشي حديدي أخضر اللون، ذو أعمدة وثقله متأثر رقيقة بيضاء شفاقة تعلوها ناموسية واسعة تخفف درجة الضوء داخل الفراش. معتر هو الذي أصر على شرائه، وشعرت بالخجل منه أمام نظرات أمي. لم أكن متأكدة إن كانت تعارض لأنه يشبه «سراير الفلاحين» مثلما قالت، أو لأنه يشي بالرغبة بشكل قاضح. لكنني أحببت الفراش فور أن رأيته، وتركت معتر يدافع عنه وحده حياة مني لا أكثر. ولم أرحبًا في أن يكون لي فراش مثير أرقد فيه مع زوجي. ومن قال إنني لا امتلئ أنوثة تريد أن تنفجر على أعتاب رجلها؟ ومن جاهل أحق قال إن الأخلاق والالتزام يعنيان أن تكون المرأة متحجرة وبلا مشاعر ولا رغبات؟

فراشي أخضر اللون ثقله غلالات رقيقة. شهد ضبعنا وشهوتنا، شهد عربنا، ولعبنا ولهائنا وانكسارنا باللذة والتعب. شهد أيامنا ولياليها الحلوة، سهراتنا للفجر وجنونا واكتشافنا لبعضنا. شهد مفامراتنا وامتلاطنا وانفجارنا. شهد هنامنا ووهنا ونومنا الحاني. شهد صبيحياتنا وقهوتنا التي كنت آتي بها لنا في الفراش. وشهد فنورنا ورتابتنا وضجرتنا وتهربنا وتجاهلنا بعضنا لبعض، وشهد انقطاعنا.

فراشي أخضر اللون ثقله غلالات رقيقة. شهد وحدتي قبل وبعد انتقال معتر للفرقة الأخرى، وشهد تقليبي الذي لا ينتهي طوال الليل.

شهد بكائي وارتجاف جسدي بالحمى والوحدة والحنين. شهد صراخي  
يرغني المكبوتة ويغضبي من ضعفي. شهد استسلامي المؤقت اليأس  
الغاضب وخجلي من نفسي ومن جسدي. فراشي أخضر اللون وهو -  
مثل فراشكم- ريفي، يعرفني أكثر من أي شيء أو أحد.

أعلم كيف ينظرون إليّ. وأعرف ما يطلقون عليّ من أسماء،  
وأعرف أنهم لا يعرفون عني حقاً إلا أقل القليل. يقولون المرأة  
الحديثة، الساعة السويسرية، الأيدولوجيا تمشي على الأرض  
وقائدة سرايا التعصب، الشيخة داليا. وحاولت إفهامهم أن المرأة  
يمكن أن تكون مؤمنة ومسلمة دون أن تكون قدت من حجر،  
أن الالتزام في جوهره فهم للذات ومرشد لها لا قفص حديدي  
نحشرها فيه حتى تقتلها أو تكسرها. حاولت إفهامهم لكنهم لم  
يريدوا أن يفهموا سوى أوهامهم وأفكارهم المسبقة. رجال لا  
تسمعون منهم سوى اللغظ أو الهراء أو الصراخ. ينظرون إليك  
ولا يروك، يستمعون إليك ولكنهم لا يسمعون، وكان بينك وبينهم  
جدار. حتى نشأت، يقع خلف جدرانهم ولا يصله صوت، حتى لو  
صرخت. ينظر إليّ في هدوء ويبدأ من جديد في الحديث، وكان  
ما قلته من كلام مجرد رغاوي لا علاقة لها بالموضوع. حتى زملاء  
العمل والنضال والناشطين - بالذات الناشطين - ينظرون إليك وتكاد  
ترين التناؤل عن صحتك العقلية في رؤوسهم. ولم أعد أعرف  
أبهم أكثر خطراً: أناس منحلون بلا قيد يلهم ولا قيم تردعهم مثل  
أشرف فهمي، أم «إخوة» يقودهم الجهل وضيق الأفق مثل سلمان  
أحمد؟ يفرقك الإخوة الجاهلون في آيات للقرآن اقتطعت من

سياقها اقتطاعاً. لا هم قرأوا تفسيراتها ولا يعلمون فيم أنزلت.  
ولكن زين لهم خوفهم من النساء ورغبتهم في إخضاعهن أن  
يستخدموا لفظها، وأحياناً مجرد أجزاء منها. ويفرقك الجاهليون  
الذين يودون اتباع غرائزهم دون رادع في مصطلحات التحرر  
الكبيرة التي تؤله المخلوق وتمجد أخطاءه بدلاً من تقويمها. وكيف  
تقومها إذا لم يكن هناك قاعدة نحتكم إليها؟

في كل الحالات رجال يقودهم العمى والعناد الذي تحكمه رغبة  
طفولية في أن تصفق لهم أمهاتهم وأن يشعروا أنهم أفضل من بقية  
الرجال. ويجرونا جميعاً خلفهم في هذا الغباء. وعبتا تحاول إفهامهم  
أن الله نور للهداية، وأن الإنسان فيه من طين الأرض وفيه نفع من  
روح الله، وأن القصة كلها تكمن في إعلاء الجانب الروحي من  
الإنسان وتمكينه من قيادة الجانب الآخر، وأن الغريزة طين، ولكنها  
أساس البشر، خلقتنا منها وبها نعيش، هي مركبتنا التي نمتطليها. لكنهم  
خبل. ويستولي الخيل عليهم أكثر إذا ما سمعوا هذا، وكأنهم يخافون  
فقدان السلاح الأكيد الذي وجدوه - فيما يبدو - لإخفاء النساء لا  
لتجميل الحياة وإصلاح الإنسان.

يا ابنتي، لا تسيري خلف هؤلاء الرجال. أحبي أنوثتك، أحبي  
جسدك وامتلاكك، ولكن قوديه ولا تجعله قائداً.

يا ابنتي، اجعلي روحك حكماً لك، واتبعي نور قلبك، اتبعي هدي  
الله في قلبك، ولو أفاتك الناس وأفتوك.



منذ وبحث قضية الاحتساب الأولى وأنا نجمة سلك المحاماة والأوساط الإسلامية في مصر. لم أكن أتصور أن يحدث كل ذلك بسبب قضية واحدة! كان باباً انفتح ودخل منه هواء كان محبوساً منذ عقود. كان سداً انهار وغمرت المياه الضفتين من بعده. فجأة، انهارت مقاومة القيادات الإسلامية المتحفظة على نشاطي، وانهار عليّ التأييد والدعم في كل صوره، وتم توفير الكوادر الشابة التي كنت أطلبها منذ سنة، وتم استكمال تمويل المكتب وإزالة العقبات الأخرى التي كانت تعترضه، وأصبحت تلك القيادات المتحفظة نفسها ترسل لي قضايا جديدة واقتراحات بقضايا كل أسبوع تقريباً، وبدأ وكان الإخوان قد قبلوا أخيراً وجود سيدة في القيادة.

والمحامون.... تلك قصة أخرى. لم أكن أدري أن الناس يحبون النجاح لهذا الحد، كنت دائماً أظن أن الناس يكرهون التاجحين، ولكن الذي حدث معي هو العكس تماماً، إذ صرت بين عشية وضحاها نجمة الوسط، مثل مشاهير السينما. أدخل مبنى المحكمة فيأتي شباب المحامين للسلام عليّ، وتسير البنات معي وكأننا صديقات قدامى، ويتوقف كبار المحامين لتحيتي، ويهز لي القضاء رؤوسهم بالتحية من بعيد، وتأتيني أفواج من المحامين للمكتب للتعرف أو الثروة أو أداء التحية وإبداء الاحترام أو اقتراح مشروعات أو التوصية على محامي أو محامية شابة. وكثرت دعوتي لل نقابة وجلساتي هناك (وبدأت محاولاتي «لتحرير» حديقة النقابة من المتطوعين والمتخصصات)، وبدأت أصوات تقترح عليّ الترشح لمجلس النقابة في الانتخابات التالية كمستقلة، ثم أخبرني أبي

الروحي إن أغلبية القيادة تستحسن فكرة ترشيحي في انتخابات النقابة على القائمة المستقلة.

وفوق كل ذلك جاء الإعلام العالمي. لا أذكر أنني تحدثت بلغة أجنبية كل هذا القدر منذ عدت من فرنسا! صرت خبيرة بالإعلام الدولي وأعرف مراسلي وكالات الأنباء وكبريات الصحف معرفة شخصية، بل وأعرف معظم صحفيي وكتاب محطات التلفزيون والإذاعة الأجنبية بالاسم، وبطريقة ما حصلوا جميعاً على أرقام هواتفني في المنزل والمكتب، بل أصبحوا أحياناً يطلبونني في النقابة في يوم لقائي الأسبوعي مع صديقاتي هناك. وبعد الصدمة الأولى، والتلعثم في البحث عن تلك الكلمة الفرنسية أو هذا التعبير الإنجليزي، واكتشاف أن المذيع يمكن أن يقطع الحديث قبل أن تنتهي جملتك وقبل أن تقول ما تريد، وأنت تشعر بالضيق وبالخديعة فور قطع الإرسال، وبعد تعلم ألا تنفقي الوقت كله في نفي التهم الموجهة إليك وأن تركزي على ما تريدني إيصاله للمستمع وليس على ما تريدني دحضه، وبعد تعلم أن تكون جملتك قصيرة، وأن تستعدي عن المناقشات الأكاديمية والمحاجات التي يتجاوز طولها ٣٠ ثانية، وأن تتجنبني القضايا الخلافية التي لا تقع في صلب الموضوع، وألا تضيفي أعداء لا لزوم لهم، وأن تخففي من اللغة مرتين: مرة لإزالة أثر البلاغة العربية ومرة كي لا تبدي متطرفة في أحكامك، وبعد أن تتعلمي تقادي التنبؤ بما يحدث في المستقبل، وأن توردي الاتهامات والأحكام القاسية باعتبارها «وجهات نظر» يرددها البعض، والكوارث المحيطة باعتبارها «مخاطر»، وأن تشكري

محدثك وتناديه باسمه الأول، عندما تقومين بذلك كله، تكونين قد بدأت تعلم كيفية الحديث مع الإعلام الأجنبي، وعندها تدمتك محطات التلفزيون والإذاعات والصحف.



- باقولك دي آخر محاولة، وديني لو فشلت ماحارجع إلا اما أفضلكم الجينة دي.

- استهدي بالله يا دكتورة، أدبنا قاعدين أهو، ودلوقت أصحابك المشايخ ييجوا يستولوا على القعدة.

- أنا عارفة هم اتأخروا كده ليه!

- إنتي خايبة الباقيين ياكلوكي؟ ده انتي عضو مجلس نقابة قد الدنيا.

- طيب بلذمتك بصي حواليكى، بقى ده منظر؟

- حايعملولك ليه أنا مش فاهمة!

وبدأت «المشايخ» في الوصول. لم يكن كلهن من المحجبات - برغم سخريه سارة التي تردد أنهن محجبات دون أن يعرفن. مجرد سيدات محترمات. هؤلاء هم من تبقى من صديقاتي، إضافة لسارة والتي أحبها مثل أخت ولكن لا أستطيع أن أكون مثلها، وأحياناً لا أستطيع حتى أن أجلس معها في مكان عام. قامت سارة بمجرد وصولهن وانتقلت لمنصدة أخرى في آخر الحديقة، وظلت تنظر إليّ من بعيد وكأنها تشجعني على المضي قدماً في مباراة ملاكمة

خيالية. كانت صديقاتي مندهشات من اختيار المكان، فلم نلتق من قبل في حديقة النقابة وهن يعلمن جيداً مدى كرهه للمكان، لكنهن وافقن على اقتراحي - فكرة سارة - أن نأتي ونحتل الحديقة مرة في الأسبوع بحيث نفرض وجودنا وإيقاعنا ولا نتركها للانحطاط الذي أشكوه. كان لطيفاً من سارة أن تتأمر معي على عالمها، فهي لا ترى عيباً في الحديقة ولا روادها ولا حالة الانفلتات السائدة فيها، وقالت لي إنها تفضلها مكاناً مفتوحاً ومن حق «المشايخ» أن يأتين «ويقرأن فيها إن أردن». وأعجبني الفكرة ووافقت صديقاتي. وهانحن هنّا، نرفع علمًا جديدًا في هذه الأرض الخربة.

ابستمت الدكتورة شيرين وهي تقص علينا أحداث الأسبوع بكلية الحقوق حيث تدرس القانون الدستوري. شيرين محببة، ممتلئة، حادة النظرات وصوتها رفيع ثاقب. كنت دائماً أتعاطف مع طلابها الذين يتبعن عليهم الاستماع لنبذة الصوت هذه لساعات لا بد وأنها تمر ببطء. قابلت شيرين أول مرة في فرنسا منذ عشر سنوات حيث كانت قد لحقت بزوجها الذي يعمل بالسفارة المصرية، وكانت شيرين محبطة وتشعر بالملل، كما كانت مجروحة بعد قصة حب فاشلة مع زميل لها بالجامعة غريب الأطوار اسمه فخر الدين أو شيء كهذا وانتهت القصة نهاية مأساوية - لا أذكر إن كان قد مات أو حاول الانتحار حين تركته شيرين، وهو ما أصابها بصدمة عتيقة زادت من أزمة فشل قصة الحب ذاتها. اقترحت عليها وقتها أن تكمل دراستها وبالفعل أتمت الدكتوراه في ثلاث سنوات وعادت مع زوجها وتم تعيينها بالكلية. كانت كأختي الصغيرة، ولكن سارة -

التي ما زالت ترمقنا من بعيد وتبسم وهي تحدث شخصاً مجهولاً - لم تكن تحبها. كان هناك أيضاً مني، طليقة الصحفي المعروف أشرف فهمي وأكثر من يكرهه في مصر. وقد تحجبت بعد طلاقها منه نكابة فيه لا إيماناً بالحجاب، وتحرص على لقائنا الأسبوعي لتتابع أخبار أشرف وتحرضني ضده. كنا ثلاثتنا - هي وأنا وأشرف - أصدقاء وزملاء بالكلية، وظلنا أصدقاء بعد زواجهما. ثم انقطعت علاقتي بهما حتى طلاقهما، حيث توليت إجراءات الطلاق وكيلة عن منى بناء على إلحاحها. كلما نظرت إليها تذكرت عدم قدرتي على فهم الرجال: لماذا تركها أشرف؟ ماذا فعلت؟ قيم قُصرت؟ وهل عجز عن احتمالها، مجرد احتمالها من أجل ابنته بينما يواصل نزواته التي تعرف بها مني وتتغاضى عنها؟ كانت مني وأشرف كمنصفين تما سويتاً وتداخلتا حتى صار المرء يعجز عن تمييزهما بعضهما عن بعض. هل يقطع الرجل جزءاً منه بهذه البساطة ويمضي قدماً غير عابٍ؟ ومن أجل ماذا؟

قطعت الضحكات الصاخبة الأتنية من متسدة مجاورة أفكارني وحديث مني، والتفتنا لمصدر الضحك ولمحت بطرف عيني سارة وهي تشير من آخر الحديقة إشارة التهدة. لك الله يا سارة، إنها تنظني فعلاً من شرطة الآداب! لا قائدة من الشرح، ستفهم سارة ما تريده، ولا بأس. رانيا، طبيبة أطفالني وأم لطفلين في مثل عمر أولادي، هي السيدة غير المحببة الوحيدة في المجموعة. وهي ثاني اللقائنا الأسبوعي «كفحة» بعيداً عن البيت والحياة الرتيبة لطيفة متزوجة من رجل أعمال كبير ويتمتع بعائلة ممتدة مليئة بالحموات

والسلايف وبنات العم والخال وغير ذلك من مصادر التعذيب العائلي. هي بالكاد متدينة ولكنها ملتزمة وحلوة المعشر. وأخيراً الشبهة الحقيقية - غيري - الدكتوراة منال أستاذة الفقه الإسلامي وأم لثلاثة أطفال ومناضلة حقيقية دخلت السجن على الأقل مرتين. وحين نكف عن حديث الأطفال والبيوت والأمهات وتعود للنسابة والمجتمع - في مواجهة احتجاجات مني ورانيا - فإن النقاش بين منال وشيرين وبيبي يسخن ويعلو صوتنا وننسى أين نحن. وعندما أنهت مني الجدال الحامي الرطيس بنكتة قتل المناقشة، اتينها إلى أن الحديقة قد خلت تماماً من روادها. نظرت لسارة فابتسمت ورفعت إيهامها لأعلى، علامة النصر.



ثم جاءت قضية الاحتساب الكبرى ضد أشرف فهمي. بدأت هذه القضية بإيعاز من بعض القيادات، ورفضت في البداية بسبب العلاقة الشخصية القديمة التي كانت تربطني بأشرف. صحيح أننا تحولنا لأعداء منذ سنوات طويلة، وأني اكتشفت منذ زمن أنني لم أكن له أي احترام في يوم من الأيام، إلا أنني لم أريد أن يتهمني أحد - أو أن يظن أشرف نفسه - أنني أدخل في هذه القضية لأسباب شخصية. ثم كان هناك نشأت، وهو محامي أشرف فهمي، واحتمال أن يتولى الدفاع عنه إذا رفعت أنا هذه القضية. وإن كان من الوارد أن يلجأ أشرف لمحام آخر نظرًا للبعد الديني للقضية، فإن مجرد احتمال أن أواجه نشأت في المحكمة كان كافٍ لامتناعي عن تولي هذه القضية.

لا شيء هناك، لا شيء سوى رغبتي في عدم الاحتكاك. أعلم أنني تجاوزت تلك القصة منذ زمن بعيد، ماتت هذه القصة وما كان قد بقي منها على يد كلود إيميه، ولكنني لا أريد اختبارات أخرى ولا أريد أن أثبت شيئاً، لا لي ولا للآخرين. كل ما أريده هو بعض الراحة وقدّر من السيطرة على الأمور من حولي.

رفضت الفكرة وقاومتها، وحاولت إحالتها على محامين آخرين، لكن الإلحاح كان شديداً. قلت إن القضية غير مضمونة، فما قاله أشرف عن الدين والدولة أمر كرره الكثيرون من قبل، ويمكن لأي محام شاطر إدخاله في باب التعبير عن الرأي ولا يتضمن بالضرورة ما يثبت أنه قد كفر بالله سبحانه وتعالى. لكنهم أصرّوا أن ذلك سبب ادعى لأن أتناول القضية بنفسي وأنها تحتاج لحكمتي أنا. قلت إن هناك كثيرين من أساتذة الجامعة قالوا وكتبوا أشياء أكثر تعريفاً بالعقيدة، فقالوا إن أشرف شخصية عامة وإن نجاحنا في فصله من رئاسة تحرير المجلة على خلفية خروجه عن العقيدة سيكون له أثر مدوّ وسيجعل الباقين يحسبون ألف حساب قبل الثفوء بما يخالف العقيدة. قلت إن القضية صعبة فعلاً وغير مضمونة. قالوا سنساعدك. قلت كيف؟ فابتسموا وقالوا لا تقلقي يا دكتورة، سنساعدك.

واصلت الرفض. كنت أشك في أنهم يريدون توريطي في قضية يعلمون مسبقاً أنها خاسرة كي أخسر معها الشعبية التي حققتها. كانت القيادات التي تلح عليّ هي نفسها التي طالما قللت من شأني وعارضت نشاطي باعتباره «شغل نساء»، نفس القيادات التي ترى

في القوة وحدها لغة للتعامل السياسي. لماذا يريدون مني الآن أن أرفع هذه القضية؟ وهل يستطيعون تحمل نصر كبير آخر لي؟ أم إنها محاولة لتديبني في قضية خاسرة وتقليص دوري في الحركة؟

أصررت على الرفض، فاستخدموا السلاح الثقيل ضدي. ذات يوم، دعا الاجتماع صغير حضرة عدد مختار من القيادات وحضرته أنا باعتباري مستشارة قانونية. كان موضوع الاجتماع هو أشرف فهمي، وظننت أنه مخصص لإقناعي برفع القضية وأعددت نفسي للدفاع عن موقعي. لكن تبين فور بدء الاجتماع، وسط الاتسمات الأبوية للإخوة، أن الموضوع مختلف تماماً. كانوا ثلاثة من قيادات الصف الأول، ومخولون باتخاذ قرارات تنفيذية، أما أنا فقد طلب تعقيبي القانوني فقط. في البداية، أحبط المجتمعون علماً بأن معلومة وصلت بنية خلية صغيرة لإحدى الجماعات المستقلة اغتيال أشرف فهمي، وطرحوا السؤال عن كيفية التصرف في ضوء هذه المعلومة وما إذا كان يجوز شرعاً إبلاغ الشرطة، أو إبلاغ الشخص المعني، أم يجب التفاوض عن المعلومة. وأسقط في يدي. فهمت على التو أي لعبة يلعبونها معي. وتساءلت في تهكم عن معنى دعوتي لهذا الاجتماع وماهية «الرأي القانوني» الذي يمكن إبدائه حول هذا الأمر. كانوا ببساطة يفهمونني أنني إن كنت أرفض الإذعان «للتعليمات» وأريد المشاركة في القرار فعلياً أن أقبل الثورط فيما هو أكبر. قال لي أحد المشاركين في الاجتماع - قبلها بعدة أيام - إنني أحاول جني ثمار عمل لا أشارك فيه بل وأنا على عليه وأنتقده. وإني ساذجة إذ أظن أن قوة الحركة تأتي فقط من العمل السياسي السلمي الهادئ الذي

أدعو إليه، وأن استمرار ذلك أمر غير مقبول وعليّ أن أختار: إما أن أكون في القيادة وأنحمل مسئولية عمل الجماعة ككل بما في ذلك الأشياء التي لا تعجبني، أو أن أعود لدوري كعضو يتلقى التعليمات وينفذها دون مناقشة ولغظ لا لزوم له.



عدنا إلى مصر بعد أن أنهينا الدكتوراه، كلاتا، في منتصف السبعينيات، على عكس خطط معزز الأصلية، وذلك لعدم رغبتني في الإقامة بالسعودية حيث يقيم أهله منذ منتصف الستينيات هرباً من وطأة الاضطهاد الأمني وقتها. كان لأهل معزز إمبارطورية حقيقة من الأعمال والمعارف في السعودية، وفي المرات القليلة التي زرتهم فيها، كنت أشعر أنهم سعوديون بالكامل، ومرات عديدة ظننت بعض أفراد عائلته ضيوفاً من الزوار القادمين للتحية - وكان هؤلاء كثر، ورأيت في منزلهم شيوخاً كباراً وأفراداً من العائلة المالكة. كانت حياتهم هناك مستقرة وتخلو من أي من مصادر الشكوى التي نسمعها عادة من المغتربين المصريين في بلدان الخليج، ولكنني كنت أريد العودة لمصر، ووافق معزز بكرمه المعتاد.

لم تكن قد أنجينا، بالاتفاق بيننا، حتى تنفرغ لإنهاء الدكتوراه، ولكننا لم نتمكن من الإنجاب بعد ذلك عندما أردنا. ومع فشل المحاولات المتكررة، ومع مشهد الدم الشهري المجهط، كان قلبي يغوص أكثر في اعتقادي بأن الله يعاقبني على جريمتي القديمة. هل يمكن للغلظة واحدة، زلة واحدة، أن تخنق حياتك إلى الأبد مهما

ندمت عليها؟ وكلما حاولنا، كان وجه كلود إيميه يأتي لزيارتي في المنام ويقض مضجعي. كم مرة صحت مذبذبة أصرخ، ومعتر النبيل يصحو ويضميني غير فاهم، غير راغب في السؤال. شهر بعد شهر، والصمت يكبر بيننا، ومحاولاتنا تستمر في الفراش، وتتحول شيئاً فشيئاً لمحاولات، لتجارب، بياس. وفراشي الأخضر يرى الصمت يستحيل بيننا فتوراً، واللذة ترحل ويحل محلها ممارسة أشبه بالرياضة، نحو الهدف، برقة وتصميم لكن دونما رغبة. ثلاث سنوات طوال من الاتحداً نحو الفتور الكامل. ثم حبلت. كما الوردة صرت. كالشجرة التي طرحت فواكه وورداً. أسير في البيت والشارع أنهادي فخراً. صرت أكثر حرارة، وأكثر أنوثة، وأكثر مرحاً، وأكثر عنفواناً، وأكثر كل شيء، صرت امرأة أكثر، وكان الدم في عروقي قد اختلف. وسرت موسيقى خفية من جديد في البيت وعلى وجه معزز الذي انفرجت خجلاته عن إهتمامات كنت أجهل وجودها. صار وجهه مختلفاً، كأن وجوداً جديدة نمت له، وأصبح تواجهني في البيت أطول، وعينه عليّ أكثر، وحين أنحني لالتقط شيئاً أجد يده تسبقني. وعاد اشتياقنا بعضنا لبعض، وعاد لعبنا في الفراش، وصرنا أشقى، وصرت أجن كل ليلة بجسمه ويجسمي الذي يتفجر تحت وفوقه وحوله، صرت عاصفة من الأنوثة اجتاحه كل ليلة، ويطلق صواعقي كل ليلة. وقالت الطيبة إن كل شيء يبدو طبيعياً. ثم نزلت ذات يوم أثناء قيلولتي، ومات الجنين في نفس الليلة.





لا شيء أحب إلى قلبي من مشهد النيل، وأحب مكتبي لأنه يطل على النيل. جالسة في الشرفة، وأصوات الشارع تأتي من أسفل وتصلد حتى الطابق العاشر، أنظر إلى ورد النيل المنتشر على سطح الماء: ورود خضراء زاهية لكنها تكاد تكون قاتلة. دخلت علي السكرتيرة:

- شفتي اللي حصل يا أستاذة؟

- إيه اللي حصل؟

- أشرف فهمي اتضرب بالنار.

- إيه؟

- طلعوا عليه ناس قدام مبني الأهرام وضربوا نار عليه، هو نجا ومات الاثنين.

- مين اللي مات؟

- اثنين، يقولوا كانوا معدين هناك بالصدفة.

في اليوم التالي جاءني مندوب من القيادة يطلب مني رفع قضية الاحتساب ضد أشرف فهمي. بلعت غصتي، وقبلت.

• • •

كلود إيميه يتسم لي. يحمل المولود بين ذراعيه ويعيل علي ليريني وجهه. أنظر فلا أرى شيئاً. يتسم أكثر، ويعيل علي أكثر. أنظر فأرى مسحاً. أصرخ وهو يضحك ويقربه من وجهي أكثر. أصوات

تأتي من الخارج، كأنها سيارات شرطة أو إسعاف، وأصوات شجار، وأمي يعلو صوتها. الضوء يخفت، والأصوات تعلو ولكني لا أميزها، والحر يشتد علي، والعرق يغمري، وخدر في ذراعي اليمنى يؤلمني. والهواء.... أين الهواء؟ احتاج لمزيد من الهواء، ولكن شفاطة الهواء في صدري لا تعمل. يد تمتد وتمسح على جيني، وأصوات هرولة وصراخ. والهواء يقل أكثر. وأغوص. أسقط في بئر يسحبني لأسفل بسرعة جنونية حتى لا أرى سوى ومضات من الألوان، ومضات زاهية ومتسارعة تصبح خطوطاً متصلة متشابكة ملتوية كأنها عناقيد من الضوء الملون. وأغوص أكثر في هذه الخيوط التي تستحيل كرات ملونة. وصوت الإسعاف البعيد الملح ويد تمسك بيدي وماء يقطر على جبهتي. ثم دفعة فجائية من الهواء تأتي كأنها مظلة تنترعني لأعلى. ثم قفزة أخرى لأعلى. ثم قفزة شاسعة تأخذني خارج البئر مرة واحدة لسماء زرقاء يغمري فيها الهواء. ويحملني ويتغلغل في ويأخذني لأعلى، ويملاً الهواء وتتي.

• • •

شكل موت الجنين ضربة قاصمة لي ولمعتز، لم نتج من آثارها بعد ذلك أبداً. قضيت حوالي أسبوعين في المستشفى غير قادرة على الحديث لأحد، وقالت لي الطيبة بعد ذلك إن التزيف استمر أربعة أيام كاملة وإن حياتي كانت في خطر. وقالت لي الممرضات إن معتز كان يأتي كل يوم ومعه ورد ويظل جالساً على باب غرفتي وأنا غائبة عن الوعي. وقالت أمي إن العوض على الله وإنه لا يجب

علينا أن نكبر الأشياء ونعطيها أكبر من حجمها. وقالت سارة إنها لم ترني هكذا من قبل وإنها لأول مرة تقلق على حياتي بجد. وظللت ساكنة، أستمع لهذه الأصوات وأرى شفاهًا تتحرك، وأرقب معتز ووجهه الصامت الخالي من التعبيرات، وهو يغير اتجاه نظره بسرعة للأرض ويغير مجرى الحديث/الصمت. وطلقت أفكر: هل كان يعرف ما جرى في فرنسا؟ لم نتحدث عن هذا الأمر منذ سألني سؤاليه الغامض قبل أن يطلب يدي للزواج، وظننت أنه يعرف أو يخمن ولا يريد معرفة التفاصيل، ومن يريد معرفة هذه التفاصيل؟ ظننت أنني تجاوزت تلك القصة، ولكن الله لم يصفح عني، وعاقبتني، وما زال جرمني بطاردني، وسيفظل يطاردني حتى يقضي عليّ. يا ربي، هل يمكن لخطئي أن يقتني أثري أينما ذهب هكذا؟ ألا توجد وسيلة، شيء ما أفعله، كي أمحو هذا الخطأ؟ وأين الصفح والمغفرة؟ أم إنني لم أنتهز تمامًا بعد؟

انهارت قواي. لم أستطع مواصلة احتمال ذلك الأمر وحدي. حكيت كل شيء لمعتز، كل التفاصيل، كل شيء: نشأت، هربي لفرنسا، مجيء لفرنسا بعد ذلك بعام رغم توسلاتي، فقداني السيطرة لأول وآخر مرة في حياتي واستسلامي لعاطفتي وسقوطي المدوي، حملي وعودة الوعي لي، كلود إيميه ومستشفى «بيت الرب» وثورة نشأت الذي لم يعلم إلا بعدها، كل شيء، بالتفصيل، ومعتز جالس يستمع إلى دموعي الصامتة ويكاثي المكتوم ونشيجي وإجهاشي ونحيبي المتقطع، ولا تعبير يبدو على وجهه، ونظرته بعيدة، بعيدة. ويعد أن توقفت عن الكلام وعن النحيب، مد ذراعه وضمني إليه

فأجهشت بالبكاء من جديد. بعدها بستين أنجبت ياسمين، وبعدها بستين أنجبت زياد، ولكن الصمت بيني وبين معتز لم ينقطع.



ربحت قضية الاحتساب. جلس القاضي على المنصة وسط كاميرات وكالات الأنباء العالمية وتعلق بالحكم لصالح دعوى الاحتساب المرفوعة من الدكتوراة داليا الشاوي ضد الأستاذ أشرف فهمي. ولمحت بطرف عيني -وسط تهليل وتكبير مساعدي واحتضان بعضهم لي- أشرف فهمي جالسًا في الناحية الأخرى ساهمًا تمامًا وكأنه لم يسمع الحكم. كان نشأت واقفًا بجواره، يهز رأسه في أسي ويقول كلمة أو كلمتين لأحد مندوبي الإعلام، ثم يميل على أشرف ويهمس في أذنه شيء ما، ولا يبدو على أشرف أنه يسمعه. مجرد حكم ابتدائي، لا بد وأن هذا ما يقوله. لقد أدار معركة جيدة، نشأت، واستخدم فيها كل الأسلحة، من الإعلام للضغط السياسي، للتعاون مع أجهزة الأمن، وكذلك فعلنا، دخلنا كلنا في حلبة مصارعة رومانية بلا قواعد. لطلخنا بعضنا بعضًا بالطين وبكل ما استطعنا، وخرجنا نحن منتصرين في الجولة الأولى، ولكنني كنت باتسة. سواصل المصارعة وتلطّخ بعضنا بعضًا بالطين لجولة أخرى أو جولتين، لسته أشهر أو ربما عامًا آخر، وسأواصل القتال حيث لم يعد لي مخرج إلا بالنصر.



كانت المكالمات التليفونية مع العميد أحمد كمال قاسية، كسكين تشق ملابسني ولحمي. شعرت أكثر ما شعرت أنني أسير عارية في الشارع وفي حديقة القنابة حيث ذهبت للقائه. لم تكن المرة الأولى

التي يحاول فيها التحدث معي. وفي كل مرة كان ردي أشبه بالصغمة، ولكنه لم يكن يكل أو يمل. هذا الصفيق العاجز الذي يعوض رجولته المغفودة بالسلط على خلق الله. ولكن هذه المرة أصابني في مقتل. كان صوته بارداً كقطعة حادة من الجليد. قال ببساطة قاتلة إن لديه ما يدينني أخلاقياً وسياسياً وأنه يريد أن أتعاون معه. أنا أتعاون معه؟ هل فقد عقله؟ المظروف الأصفر الذي يحتوي على «أدلة» ملقى على المتضدة بيننا وأنا أنظر إليه ولا أراه. نظرت إليه محاولة السيطرة على غضبي المكتوم. أتصيب عرقاً وأحاول التماسك. المظروف أمامي ولا أقرى على لمسه. أعلم ما بداخله ولا أريد أن أراه. نظرت للعميد أحمد كمال وراعتي أن أراه يتشم:

«أنا آسف، حضرتك اللي اضطرتنا لكده.

ما أنت إلا مجرد ترس في آلة من العنف المنظم. وما لا تعلمه هو أنك تدفعني دفعاً لحماية نفسي بعنف منظم مضاد! كان رأسي على وشك الانفجار وأنا أنخيل الانسامة الأبوية للإخوان وهم يهزون رؤوسهم ويقولون: «ألم نقل لك؟ لا حماية لأحد ضد الجيروت إلا بالتعاقد بيننا جميعاً، بكل عناصرنا وأسلحتنا». مر أحد معارفي وقال شيئاً، وقال العميد أحمد كمال شيئاً آخر، وكانت الأصوات تختلط وأنا جالسة أنظر إلى هذا المظروف على هذه المتضدة بيننا ولا أنبس بكلمة. قام واقفاً وسوى قميصه بيده وقال شيئاً ومضى. مددت يدي للمظروف وصحبته وفتحته. كانت الأوراق بالفرنسية. مستشفى «بيت الرب»، باريس، ١٩٧١. نظرت إلى اسمي المدون

عليها وإلى توقيع الطيب المختص: كلود إيميه. ياه، كدت أن أنسى اسمه! الضوء يخفت، والأصوات تعلو ولكني لا أميزها. رائحة كولونيا نفاذة ووجه مألوف يتشم لي:

«سلامتك يا دكتورة. إتنى دختي ولا إيه؟

سويت جلستي في مقعد الحديقة وشريت كوب الماء الذي أعطته لي.

«أنا شفت راسك خبطت الترابيزة فجأة افكرت أغمي عليكى.

«لا بسيطة، دي دوخة بتجيلي لما الضغط يوطى، أصلي ماكلتش من الصبح.

«أجيلك حاجة من البوفيه؟

«لا، أنا قايمة رايحة المكتب، السواق واقف برة.

في المكتب تناولت بعض الساندوتشات والقرفة لرفع ضغطتي قليلاً. وضعت المظروف في خزانتي الخاصة وجلست أفكر فيما يجب عمله. لا بد من أن أتحدث مع أبي الروحي، وسأشرح له الوضع ولا بد أننا سنجد طريقة للتعامل مع الموضوع. وبينما كنت أفكر في الطريقة التي سأروي له بها المشكلة، دخل عليّ من الباب. دهشت لمقدمه بدون موعد، ريت على يدي وابشتم وقال إنه جاء لوداعي. نظرت إليه غير فاهمة. فقال إنه مسافر إلى قطر وسيستقر هناك لبعض الوقت، وإن المظروف في مصر قد تغيرت ولم يعد يشعر أنه يجب أن يستمر هنا. صعقت، وضغطت عليه كي يفصح أكثر. كان

يتسم ابتسامته الأبوية، العارفة ببواطن الأمور، وقال لي إنه لم يعد في وضع يمكنه من تسيير الأمور في الاتجاه الذي يراه صواباً، ومن ثم يحسن به الاعتزال لفترة وترك الأمور للآخرين. ربت على يدي ثانية وقال إن الأيام القادمة ستكون صعبة عليّ، ولكنه يعلم مدي فطنتي وقدرتي على المزج بين الصلابة والمرونة، وسلم عليّ وذهب.

هل أحلم؟ هل هذا اليوم يحدث فعلاً؟

ثم جاء الآخرين، بعدها بساعة، ونظرا مطولاً في عيني وقالوا أشياء كثيرة، منها أن الظروف قد تغيرت - نعم، أعلم ذلك، وأن الخناق يضيق على الجماعة، والمحنة تشتد، ولم يعد هناك مجال للاجتهاد والخلاف في مواجهة الطاغوت، وأنه يجب على الجميع من الآن فصاعداً الالتزام بخط الجماعة وعدم شق صفها، وأن الجماعة لن تسمح لأحد مهما كان قدره أن يخرج على إجماع الأمة، وأن عقوبة الخارج ستكون شديدة، مدوية. نظرا إليّ مطولاً، وقالوا لي وعيونهما لا تبارح عيني إن عليّ أن أبلغ رسالة لشخص ما بالخرطوم أثناء تواجدي بها لحضور مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. لشخص باكستاني اسمه سلمان أحمد، من جماعة تسمي نفسها «جماعة خير». وأن الرسالة في مظروف مغلق. مد أحدهما يده بمظروف أصفر كبير وضعه أمامي على المكتب. كان المظروف الأصفر ملقى على المنضدة بيننا وأنا أنظر إليه ولا أراه. نظرت إليهما وكلي غضب مكتوم. أتصعب عرقاً، وأحاول أن أتماسك. المظروف أمامي ولا أقوى على لمسه. كانت الأصوات تختلط وأنا جالسة

أنظر لهذا المظروف على هذه المنضدة بيننا ولا أنبس بكلمة. قاما واقفين وقالوا شيئاً ومضيا. الأصوات تعلو ولكني لا أميزها، والعرق يشتد عليّ، وغدري في فراغي اليمنى يؤلمني. والهواء.... أين الهواء؟ احتاج لمزيد من الهواء، ولكن شفاطة الهواء في صدري لا تعمل. يد تمتد وتمسح على جيبتي، وأصوات هرولة وصراخ. والهواء يقل أكثر. صوت سيارة الإسعاف يتردد في عناد أمام لا مبالاة السيارات الأخرى، صوت سائق يأتي خشنا عبر ميكروفون السيارة الخارجي، غير مفهوم، ينهر سائقي السيارات في باس. السيارة تتأرجح، تنفث فجأة لتسير فجأة وأنا أترنح على نقالتي البائسة ويغوص قلبي أكثر، يد صغيرة تمسك بيدي. أبحث عن الهواء فلا أجده. أبحث ثانية فلا يستجيب صدري، كأن شفاطة الهواء في صدري توقفت عن العمل، يد المعرصة تلمس جبهتي وتمسحها بقطعة من القطن المبلل، تفتح زر قميصي المهلهل وتمسح رقبتني، ممرض آخر يعيث بشيء يصدر صفيراً متقطعاً ثم يأتي الهواء ويغمرنني فجأة. يملأ رتني وصدري وقلبي ويحملني بعيداً عن السيارة والطريق. كأني أطيّر في هواء بارد ورطب. وتزرق السماء أكثر وأطيّر ويملأ الهواء رتني فأطيّر أبعد. ثم يتناقص الهواء سريعاً وأهوي نحو الأرض كصخرة. يزداد الصغير في أذني وأنا أهوي أسرع وأسرع وأسقط في بئر وأسمع ارتطام جسمي بالماء وأظل أهوي والبشر يضيق عليّ حتى يحشرنني وأنا أهوي سريعاً محتكة بجدران البئر وتشتعل الحرارة في جسمي وأدوخ. أتشبث باليد الصغيرة كيلا أسقط أكثر. ويتوقف الهواء تماماً، تماماً. ثم أبداً الدخول في الألوان. كرات صغيرة ملونة غزيرة تغمرنني وتنهمر فوقني

وتربط وتنفك من حولي، وأدخل في دوائر ألوانها وهي تتلوى من  
حول، كرات ثم كرات من الألوان. ثم يأتي ذلك الصغير المتقطع  
وصوت طفلة باكية: «ماما». ثم الهواء مرة أخرى، يغمرنى فجأة، ويد  
صغيرة تمسك بيدي، والهواء يحملني، وأنا أترنح، وصوت سيارة  
الإسعاف يأتي ويغيب.

(٤)

جدار لا ينكسر

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^RAYAHEEN^

سقط الجدار.

أخيراً سقط الجدار.

سقط الجدار، وانتهى الأمر.

هاليلويا.

سقط الجدار و- يا للمفاجأة - لم يحدث شيء. لم يحدث لي شيء. حتى سقوط الجدار الذي كنت أعول عليه لم يمسي، لا بسوء ولا بخير، وها أنا ذا، مرة أخرى، أجلس وسط الخرائب أرقبها دون أن تصل إلي، دون أن تمسني، وكأنني أشاهد فيلمًا، مأساويًا دون شك، وربما تتحرك مشاعري وربما أبكي وتتهمر الدموع من عيني، ولكن لا شيء يمسي. لا شيء يحدث لي. لا شيء يحدث داخلي.

والآن ماذا؟ ماذا سيحدث؟ سأجلس هنا في هذه الغرفة التي صارت بلا مخارج ولا مداخل كنزائنة محكمة الإغلاق، وأنتظر؟ سيأتون ولا ريب. عمال الإنقاذ سيصلون إلي، فنحن في الطابق الأرضي، والقنصلية من طابقين، والجدران متماسكة لم تنفت وإنما هوت بكاملها تقريبًا. سيأخذون وقتًا طويلًا حتى يصلوا، ثم وقتًا

آخر ليقرروا ماذا سيفعلون بالضبط، ووقتاً آخر حتى يخلوا الجرحى ويسحبون من يستطيعون سحب من تحت الأنقاض المتحركة. وبعد أن يفرغوا من كل هذا سيدأون في تحريك الكتل الأسمتية الكبرى، وعندها سيصلون إليّ. كم سيستغرق هذا؟ ربما يوماً، ربما يأتون الليلة أو غداً صباحاً، أو بعد ذلك بقليل.

أمامي إذاً أربع وعشرون ساعة في هذه المساحة الضيقة المحكمة الأخلاق. ولديّ زجاجة المياه المعدنية التي أحملها في حقيتي دائماً - شكراً لاستحالة الشرب من الصنابير في مدينة الخرطوم الشقيقة - وقطعة الجيوب بالمكسرات والعسل التي أحملها كوجبة سريعة صحية حتى أعود للفندق في المساء. ولدي الكمبيوتر الشخصي في حقيتي وبعض الأوراق والأقلام، ولديّ بعض الضوء المتسرب من تشققات في الجدران، وهذا المقعد الذي كان جزءاً من صالة الاستقبال بالفنصيلة. لا بأس إذاً، يمكنني الصمود هنا أربع وعشرين ساعة حتى يصل عمال الإنقاذ.

ماذا سأفعل الآن؟ أريد قهوة، يا إلهي كم أريد قهوة! خرجت هذا الصباح على عجل. صحت متأخراً قليلاً وتلكأت في الفراش، فكان عليّ أن أركض حتى أصل قاعة المؤتمر في موعدي، ومن ثم لم يتسع الوقت كي أنتظر البطء والبرود الذي لا يصدق للنادل في مقهى الهيلتون. غادرت الفندق دون تناول قهوتي الصباحية على أمل أن أجده قهوة في قاعة المؤتمر. كان ذلك خطأً. في كل مرة لم أتناول فيها قهوتي قبل الخروج من المنزل - أو الفندق الذي أقيم

فيه - لا بد أن تحدث لي أشياء تحول دون عثوري على قهوة. وأنا لا أستطيع أن أمضي في يومي دون قهوة، يقتلني الصداع وسوء المزاج وشعور عام بالغضب - على نفسي في أغلب الأحوال. أصبح متأخراً قليلاً، وأهرع إلى المطار على أمل أن أجده القهوة هناك، ثم أفاجأ أنهم أخذوني لقاعة كبار الزوار حيث لا يقدمون قهوة بالحليب أو حتى إسبرسو وإنما لديهم «نسكافيه». كيف يمكن لأحد أن يشرب هذا الشيء؟ فأعتذر - متعكر المزاج، على أمل أن أجده قهوة في الطائرة، فهذه رحلة في الدرجة الأولى، ولكن المضيق الممتلئة والمتملعة في رداء مصر للطيران غير المتناسق الألوان تعتذر، لديهم نسكافيه. خمس ساعات أخرى، وفي مطار شارل ديغول، حين يكون الصداع قد فثك برأسي وحصل ما حصل، أجده «كافيه كريم» فقط، لا يوجد إسبرسو مزدوج بالحليب. وحينها يبلغ غضبي على نفسي مداه: ما دمت مزعجاً وتطلب شيئاً خاصاً لا يتوفر في مطارين في قاربتين مختلفتين، فالأحرى بك أن تعدد لنفسك قبل أن تغادر منزلك. وأعد نفسي ألا أكرر هذا الخطأ وأنا واقف في الصيدلية أغلي من الغضب على تقصيري وأناؤاض مع الصيدلي على إعطائي جرعة من الحبوب الطبية المعالجة للصداع دون وصفة من طبيب.

واليوم، ارتكبت نفس الخطأ. ولن يمر وقت طويل حتى يصل الصداع، أما سوء المزاج فقد حل بالفعل، وبعض الغضب على نفسي. سوء المزاج؟ أحقاً أفكر في سوء المزاج الناتج عن عدم تناول قهوتي الصباحية وأنا جالس هنا تحت أنقاض مبنى تم تفجيره؟ شيء لا يصدق! صحيح إذاً أنني بلا قلب مثلما يدعي أشرف

فهمي. ولكن لم؟ نقص القهوة سيحطم رأسي، ويطلق غضبي على نفسي ويحبطني حتى الغد. أما الانفجار فلم يصبني بخدش واحد، لم يصبني حتى بصدمة. أكاد أكون لم أفاجأ به، بل أخذت أشاهد تداعي السقف والجدران من حولي، ورأيت هذا الجدار يتحرك نحوي فتحركت بسرعة كيلا يسقط عليّ، ورأيت بعض الأشياء تطير في الهواء، وكنت هادئاً وأنا أفكر أين سيذهب السقف وما إذا كانت هذه هي نهايتي. ودار بخاطري على الفور تداعيات موتي وكيف ستلقى أمي الخبر وما سيحدث للمكتب من بعدي. ثم توقفت السقف في منتصف الطريق، فعلمت أنني قد نجوت مؤقتاً، وبدأت أفكر فيما سيحدث بعد ذلك.

سأقسم زجاجة المياه على الأربع والعشرين ساعة، أو من الأفضل أن أقسمها على ست وثلاثين ساعة، لعلهم أقل كفاءة مما أظن. كانت الساعة العاشرة عندما انفجر المبنى، والزجاجة البلاستيكية مقسمة بعلامات إلى اثني عشر قسمًا، وإن كان القسم الأخير أكبر من بقية الأقسام. سأشرب إذا قسمًا كل ثلاث ساعات، وسأتناول قطعة الحبوب ذات المكسرات على أربع مرات، في الظهيرة، وفي السابعة مساءً، وفي الصباح، ثم عند الظهيرة غداً. ولن أحتاج للتبول كثيرًا بما أنني لن أشرب ماءً كثيرًا، ويمكنني التبول عند نهاية الجدار الساقط على الجدران الأصلية، عند نهايته، حيث يوجد شق بين الجدران.

خلعت جاكيت البدلة وابتسمت وأنا أفكر «ستحتاج إلى تنظيف، هذا إن لم تلف كلبه»، ووضعتها على ظهر الكرسي الوحيد المتبقي.

فككت ربطة العنق وأرحت ياقة القميص وشمرت الساعدين. لا بد وأن الحرارة ستشند مع تقدم النهار وغياب تكييف الهواء، وإن كان مبنى القنصلية قديمًا وغالبًا ما سيكون أقل اعتمادًا على التكييف. سترى ذلك في حينه. ولكن ماذا سأفعل الآن؟ لن أكل، ولن أشرب الآن. ماذا أفعل؟ يبحث عن الكمبيوتر وأخرجته من الحقيبة، بحث عن علبة الكهرباء. هل يمكن أن تكون هناك كهرباء سارية في المبنى؟ أكيد لا، أكيد سيفصلونها إن كانت ما زالت تعمل. أبحث عن علبة الكهرباء، لا يوجد هنا. بطارية الكمبيوتر لا تعمل أكثر من ساعة. هل لدي شيء على الكمبيوتر أريد قراءته أو كتابته؟ لا، ليس الآن. ماذا أفعل إذن؟ لا شيء سوى التفكير. أفكارني لا تجري أمامي كشريط سينمائي مثلما يحدث في الروايات عندما يجد البطل نفسه وحيداً في وضع للتأمل، وإنما تأتي كومضات سريعة، تضيء وتخفي قبل أن تتمكن من الإمساك بها، يمكنني أن أفعل ذلك الآن: لدي أوراق وأقلام ووقت وكرسي ولا شيء آخر يمكنني فعله. يمكن إذاً أن أطارد هذه الومضات وأكتب بعضاً منها، لعل هذه الإقامة الجبرية تحت جدار القنصلية المصرية المفجرة في الخرطوم تكون ذات فائدة. وإذا لم بات عمال الإنقاذ لأي سبب ما؟ هل أترك هذه الأوراق أم أمزقها؟

سأقرر ذلك فيما بعد. أما الآن، فهذه هي الأوراق، وهذا هو القلم الأسود «اليونيول» مقاس سبعة من عشرة، وهامي الحقيبة نحيتها جانباً، والكمبيوتر الذي كلفني شراؤه ثلاثة آلاف دولار حولناه إلى لوح للكتابة أسند عليه أوراقني الصغيرة. من أين نبدأ؟



وإن مت، ونجا الباقون، ماذا سيحدث؟

ستكتب الجرائد المصرية عناوين ميلودرامية حول العمل الإرهابي الإجرامي الجبان الذي استهدف النيل من مصر ومواقفها، وستنشر تصريحات لوزراء يؤكدون أن مصر ماضية في طريقها ولن تؤثر فيها هذه الأعمال، وستشير العناوين إلى الضحايا بالعدد وليس بالأسماء، فلن يكتبوا مثلاً مقتل نشأت غالب ومحمد إبراهيم والسعيد نور وغيليل إسحق، وإنما سيقولون مقتل أربعة مصريين وجرح العشرات. ربما تكون قد فقدت عبثاً وساقاً وذراعاً، ولكنك تظل واحدًا من هؤلاء العشرات المجهولين، ولن يابيه بك أحد، أيضًا لأنك لم تقتل. ستذكر الجرائد - ربما في الصفحة الأولى في مكان أقل بروزًا - شيئًا عن الشخصيات الشهيرة التي لقيت حتفها في الحوادث، وربما صورة من يتيسر للمحرر غير المحترف والجريئة التي لا تملك أرشيفًا العثور عليها في الوقت الضيق السابق على الطباعة. في اليوم التالي، ستذكر الصحف أشياء أكثر تفصيلية عن القتلى والجرحى، وتبدأ سلسلة من شهادات الناجين ومن التحقيقات حول الشهداء، وربما يصور التلفزيون عودة البعض إلى المطار، مرهقين وغاضبين ولكن التلفزيون يجتهد في العثور على زاوية لتصويرهم كأبطال واقتطاع أجزاء إيجابية أو درامية من ردودهم العنيفة أو الغاضبة والمقتضبة على أسئلة المذيعين المستفزة. هل ستذكر الصحف أنني قبلي أم سيلجأون للتعمية على هذه المسألة لنفاذي الحرج؟ نشأت غالب، يمكن أن يكون مسلمًا أو قبطيًا، ربما ستنشر الصحف القومية الاسم دون تعليق، وربما تلجأ بعض

الصحف التجارية إلى نشر الاسم كاملاً: نشأت جورج صليب غالب - ليس هناك فرصة للبس مع اسم كهذا. وستنشر الصحيفة الأكثر إثارة تحقيقًا عن ردود الفعل لدى كبار الأقباط على مقتل نشأت غالب في التفجير الذي قام به أصوليون مسلمون، ولكنهم - كالعادة - سيلجأون لبعض رموز الكنيسة باعتبارهم يمثلون الأقباط، ولما كانت علاقتي بالكنيسة على ما هي عليه، فربما يقول القسيس الضيف للمذيع قبل بدء التسجيل «أحسن أنه مات، غار في داهية، ياريت تموتوا الباقين من أمثاله وتخلصونا»، ثم يقول في التسجيل إن «هناك قلقًا على أمن وسلامة الشعب المصري كله، الذي يتعرض لهجمة من قبل الإرهاب، وأن الأقباط شأنهم في ذلك شأن إخوانهم المسلمين، ضحية لهذا الإرهاب الذي لا يميز بين المواطنين على أساس الدين، وإنما يضرب بيد عمياء قلب الشعب كله».

ثم تنشر الجرائد صورًا للضحايا الانتفجار من العاملين بالقنصلية، وربما تقام لهم مراسم خاصة للدفن، أو تسمي قاعات أو شوارع بأسمائهم. وستغطي الجرائد كل ذلك باقتدار، ولكن هل ستوضح الجرائد ما حدث بالضبط؟ هل سيشرح أحد - أو حتى يفهم كيف وقع الانتفجار ولماذا؟ لماذا تستهدف جماعة - أغلب الظن أنها أصولية إسلامية - قنصلية مصر في الخرطوم؟ هل تقوم القنصلية بعمل استخباراتي يقض مضاجع الأصوليين لدرجة تستدعي تفجيرها؟ أم إنها انتقام من عمل ما قامت به الحكومة ضد هذه الجماعات؟ لا أذكر أن الحكومة قامت بشيء محدد ضد الجماعات مؤخرًا، بل على العكس، هناك حوارات وأحاديث عن عفو وتوبة وإفراج عن سجناء

ومصالحات ومبادرات لإنهاء العنف وغير ذلك. هل هي رسالة من هذه الجماعات؟ أم هو نوع جديد من الجماعات؟ أم خطأ؟ هل يمكن أن يكون التفجير ثم عن طريق الخطأ؟ يكون من قام بالتنفيذ قد ظن أن هذه هي القنصلية الأمريكية مثلاً أو الباكستانية؟ ونكون نحن - القتلى وعشرات الجرحى بدون أسماء - ضحايا خطأ؟

ولكن، ألم يكن العميد أحمد كمال يبحث عن غيب ما في الأيام الأخيرة قال إنه قد يكون له علاقة بعمل إرهابي كبير في الخرطوم؟ هل كان يعرف؟ ولكن العميد أحمد كمال كان هنا في القنصلية عند وقوع الانفجار، لقد رأيته قبلها بعشر دقائق أو شيء كهذا وأنا جالس أنتظر تخلص أوراقي الثوبية كي أقدمها لسكرتارية المؤتمر. هل كان يعرف؟ وكيف يمكن أن يعرف ولا يستطيع إيقاف الانفجار؟ أليس هو ضابط المخابرات هنا والمستول عن الأمن؟ على الأقل كان يمكنه التوجه بتفتيش الداخلين لمبنى القنصلية؟ أم إنها سيارة مفخخة انفجرت عند المدخل؟ ربما يكون ذلك هو الأرجح، وهذا هو تفسير عدم تدمير المبنى بالكامل. قد تكون سيارة محملة بالمتفجرات، تم تفجيرها عند باب القنصلية في اللحظة التي يقترب فيها رجال الأمن للتفتيش. وربما يكون تفجيراً مزدوجاً بسيارتين: تفجير الأولى عند المدخل في لحظة التفتيش ثم تندفع الثانية في الفوضى والدمار الناتجين عن الانفجار الأول فتفتح المبنى وتفجر داخله. هذا ما فعلته منظمة الجهاد الإسلامي هذا العام في تفجيراتها بإسرائيل، وربما يكون من فجروا هذه القنصلية قد استعاروا نفس الطريقة.

فيم كان يفكر ضحايا هذه التفجيرات المزدوجة في إسرائيل؟ هل كان هناك من ظل واعياً هكذا مثلي يفكر ويكتب ملاحظاته في غرفة مغلقة منتظراً رجال الإنقاذ؟ ولماذا لا نسمع أبداً عن هؤلاء الضحايا؟ هل لأنهم إسرائيليون وبالتالي مذبون بالمطلق؟ وهل يمكن أن يكونوا كلهم مذبين؟ أو ليس من الممكن أن يكون بينهم شخص مثلي؟ أستاذ مثلاً بجامعة حيفا من المؤرخين الذين أعادوا كتابة تاريخ الحركة الصهيونية بشكل نقدي؟ أو ربما شخص متعاطف مع الفلسطينيين؟ أو حتى فلسطيني دخل إسرائيل للعمل؟ أو ربما أي شيء، ما الفائدة من هذه الأفكار؟ كلا، بل هناك فائدة، لأنني حين أتحدث عن عالمية حقوق الإنسان، عن حق كل إنسان في الحياة وفي الحرية فإني أتحدث عن كل الناس، وليس عن فئة دون الأخرى، وبالتالي فليس هناك فرق بين تفجير هذه القنصلية على رأسي وتفجير حافلة في شمال إسرائيل على رأس ركابها. لو قلت ذلك لاتهموني بالهرطقة. لكنهم يهتمونك بالهرطقة من زمان فلم لا؟ نعم، لم لا؟ إن نجوت، سأكتب مقالاً للأهرام - أو أدلي بحديث للتلفزيون باعتباري من الناجين، أقول فيه ألا فرق بين ضحايا هذا التفجير والتفجيرات التي تستهدف المدنيين في إسرائيل، ولتر ما إذا كانوا سينشرون هذا الكلام! يقول أشرف فهمي:

- يا أخي وهي حيك؟ يعني انت خلصت قضايا حقوق الإنسان في مصر ودلوت بتدافع عن حقوق الإنسان في إسرائيل؟ إنت اتجننت؟ مش تخليك في المهم ولا هو جر شكل؟ ما تركز في حقوق الفقراء في عشوائيات القاهرة، اللي مش لاقين مية نظيفة يشربوها.

ولا حقوق أطفال الشوارع التي يتضيق حياتهم منهم في الإجرام والتسول والجهل. ولا حياة البنات التي يبست في المحلات الصغيرة ويتعرضوا للتحرش كل يوم. ولا حقوق الزوجات التي ينضربوا ويتفلسفوا في حوادث وحكايات متعلقة بالشرف أو بقلته؟ ولا يا أخي في حقوقي أنا التي بادفعلك قد كده كل سنة عشان تحميني من داليا الشاوي وأمثالها؟

وسيقول أحمد كمال:

- الإسرائيليون يا دكتور؟ احنا دلوقت حنذاف عن الإسرائيليين؟ انت عارف يعني إيه الإسرائيليين؟ إنت دخلت الجيش ولا مؤاخذه؟ حاريت يعني ولا كنت سعادتك في باريس أيام الحرب؟

وستقلق أمي، وتقول إن هذه شجاعة تحترمها في، وإنه عليّ ألا أبه بما يقول المتخلفون والمتعصبون، ثم ستضيف وهي تنظر إليّ من تحت نظارتها:

- لكن الحقيقه أنا مش متأكده إن دي فكرة كويسة. ماتنشاش يا نشأت المجتمع اللي احنا فيه ودرجة تقبله للأمر.

ثم تنظر لكتابتها، ثم تنظر لي مرة أخرى وتضيف:

- «ومتشاش إن احنا أقلية في البلد دي».

وستتابع القراءة دون أن توضح من المقصود بكلمة «إحنا»: المثقفون؟ الليبراليون؟ أم المسيحيون؟ ولن يكون هناك داع لسؤالها. وربما تكون أمي على حق، وربما يكون الجميع على حق، وربما من

الأفضل أن يكون المرء أكثر دبلوماسية في اختياره لمواقفه، وأن يركز على الأولويات التي تهمة وليس على المبادئ العامة، من أجل أن ينجح في تحقيق أهدافه ويتفادى المعارك التي لا طائل ولا مصلحة من ورائها. لكنني لو فعلت ذلك لكنت سياسيًا وليس رجل قانون، ولكنت شخصًا آخر. أحيانًا أود لو أنني كنت كذلك، وربما يكتبون جزءًا من هذا في نعيي: كان دائمًا يدخل في معارك لا طائل من ورائها.

• • •

أين عمال الإنقاذ؟ مرت ساعتان منذ الانفجار ولا أسمع شيئًا بعد. لا أصوات سيارات إسعاف ولا صياح على الناجين ولا أصوات تحريك للأقاض المنهارة. ما تفسير هذا الصمت؟ أين الباقون؟ أين داليا؟ وأشرف وأحمد كمال؟ هل أصيبوا؟ هل.. هل يمكن أن يكون أحد منهم قريبًا مني؟ لا، لا أعتقد وإلا كنت قد سمعت صوتًا. هل أنادي عليهم؟ لكن أين سيكونون وكيف سيسمعونني وهذا الجدار يسد كل شيء عني؟

• • •

ماذا ستقول داليا الآن - إن نجونا؟ هل ستشعر بالذنب؟ هل ستعترف أن هذا هو آخر الطريق الذي تسير فيه؟ هل ستقر أنه لا يمكن للعقل أن يسيطر على جهلاء لديهم إيمان مطلق بصحة ما يفعلون؟ هل ستفتنع أن الجهل والتطرف أقوى من المواقف الوسط؟ وأن الوسط مجرد مرحلة في طريق انتصار التطرف؟ وأن كل التنظيمات

الدينية والأيدولوجية يداها معتدلون يكون دورهم مجرد مرحلة تزودي بالضرورة إلى التطرف والجهل والإرهاب؟ هل ستفهم أخيراً أنها أصبحت أداة في يد الإرهاب والإظلام؟ أم إنها ستواصل التماس الأعداء لنفسها ولهذا الشباب «المتحمس» وتقول لنفسها إن هذه غفلة في طريق النضال من أجل استعادة هوية المجتمع المشوهة؟ ساكون ميتاً حينئذ، ممدداً في تابوت من الخشب الجيد ومرتبداً بدلة سوداء، يحملونني في سيارة سوداء كبيرة، ثم يوقفونني أمام مستغري الأخير ويبدأون المراسم. هل ستأتي دالياً لتعزي أمي؟ وهل ستري الدم الذي يقطر من يديها؟ هل يمكن لداليا، تلك التي عرفتني، التي أحبتها وعانقتها وسكتها وسكتني، تلك الساحرة اللطيفة الراقية ذات الحس الفكاهي الملكي، تلك العاقلة الذكية المثقفة، هل يمكن ألا ترى مسئوليتها الشخصية عن هذا التضجير الأعمى؟ وأيا كان التبرير الذي ستعطيني لموتي، فهل سيمكنها مواصلة العمل في خدمة هذا الإظلام؟ هل ستستطيع أن تصحو من نومها في اليوم التالي وتذهب إلى مكتبها كي تساعد شباب الجماعات الأصولية - وربما بعض من شارك في هذه العملية تحديداً - في التحايل على القانون واصطناع البراءة؟ وهل ستدلي بتصريحات لوكالات الأنباء العالمية - وهي في فراشها الطبي في المستشفى تتعافى من أثر الحادث - تبرر هذا التضجير وتلقي باللوم على النظم الديكتاتورية في المنطقة وعلى حالة الغضب الشعبي في المنطقة إزاء ضلوع الغرب في استلاب فلسطين؟

أم ستقول لنفسها إن ما حدث جريمة، وإن هناك مشكلة حقيقية

في التيار الأصولي، وإن الجهل والتخلف الذي يعثري بعض أعضاء التنظيمات الأصولية يشكل خطراً على هوية الأمة لا يقل عن خطر التعريب والاستلاب. ربما ستقول ذلك في اجتماع عاجل تدعو إليه مع قيادات الحركة، وسيستم رجال عجائز في الحركة، ويمتعش شباب، ويؤيدها بعض الأعضاء من السجن، ثم يتحي بها أحد قادة الحركة الكبار ويشرح لها أهمية الحفاظ على التوازنات داخل الحركة ومن ثم ضرورة الحفاظ على وجود هؤلاء الذين تصفهم هي بالجهل من أجل الحفاظ على قوة الحركة ككل، وسيشرح لها أن ذلك أفضل من فصلهم أو من دفعهم للانشقاق، «وماذا ستفقد إذا ذهبوا وشكلوا تنظيمات مستقلة أكثر عدوانية وشراسة ودون أي تعقيل سياسي وتؤيري من جانبنا؟». وستردد داليا. ستقول لنفسها إن هذا المنطق له وجهته، وإنها يمكن أن تستقيل من منصبها وأن تعزل العمل العام وترك الحركة، ولكن ذلك سيؤدي لنقصان الأصوات العاقلة صوتاً، وألا خير يرتجى من ذلك. هذا ما ستقوله داليا، وما ستفعله، عقلها، ذلك الجهاز المركب داخل رأسها، سيقمع قلبها وسيطر على عواطفها، حتى وإن كنت أنا الضحية، حتى وإن كانت هي الضحية. أولم يكن ذلك هو منطقتها من قبل؟ وهل هذه أول جريمة قتل تشارك فيها داليا؟ خسارة.

• • •

وماري آن، هل سيبلفها الخير؟ ومتى؟ ستحزن ولا ريب، وتشعر بصدمة عميقة، وستبكي. ثم ستخلص في هدوء إلى أنها كانت محقة حين رفضت أن تعيش في مصر، حين رفضت أن تقرر حياتها بأحد

أبناء هذه البلاد المضطربة. ثم ماذا؟ ثم لا شيء. لن تأتي ماري آن إلى مصر بحثاً عن جثتي، ولن تهاتف أُمِّي لتعزيها. لن تفعل أي شيء، سوى أن تحزن، ثم ستقوم من أمام الجريدة في مطبخها الممتلئ بضوء الشمس، وتذهب للاطمئنان على الطفل الذي لا بد وأنها أنجبت، وعندما تلتقي زوجها في المساء، يسألها عما بها، وستقول إنها متضايقه بعض الشيء. فقد سمعت خبراً سيئاً عن صديق، ثم لا شيء. هكذا، ستكون متضايقه بعض الشيء.

\* \* \*

كنت أحب هذه المرأة، لا أستطيع أن أتغلب على هذه الحقيقة، وعلى أنني ربما لم أشفى من حبها. بعد أكثر من عشرين عاماً من فراقنا النهائي، ما زالت دالياً في أفكاري، وما زالت تأتيني في أحلامي. لم أعترف بذلك لأحد، ولكنني حين أنام، لا أحلم بامرأة سواها: كل امرأة أحببتها أو رغبتها وجاءتني في المنام، كانت تتحول في الحلم إلى داليا الشاوي. كنت أفيق في بعض الليالي مذعوراً: امرأة ما نائمة بجواري، وأنا أحلم بداليا. تستولي على نساتي وتحل محلهم. داليا هي هي، مثلما عرفتها منذ عشرين عاماً، مثلما أحبنا بعضنا بعضاً منذ عشرين عاماً. وأضطرب: كيف الخلاص منك؟

أحياناً تختلط عليّ الأمور ولا أذكر ما جرى بالضبط. أحاول استعادة السبب الذي من أجله تركتني داليا. أحاول استعادة مناقشاتنا المطولة حول إمكانية زواجنا وتداخل عليّ الحجج والدفع والمرافعات والمناورات. هل كنت أنا السبب مثلما قالت وقتها؟

قالت لأشرف فهمي وقتها إنني لم أكن مرثياً بما يكفي، وإنني اتخذت موقفاً مثالياً متعصباً ورفضت أي حل وسط. ولكنني أذكر جيداً أن ذلك كان في البداية فقط، وكان الحديث افتراضياً، فلم تكن قد تخرجنا بعد. وكان موضوع زواجنا ما زال مجرد فكرة للمستقبل. في هذا الوقت قلت كلاماً مما يقوله الشباب وهم في العشرين من عمرهم، وخاصة في أواخر السنين حين كان شباب فرنسا يقود شبه ثورة ضد النظم الاجتماعية والسياسية السائدة هناك، وكان الشباب الأمريكي يقود الحملة ضد فيتنام، والسود يقودون حركة الحقوق المدنية، وعبد الناصر - رغم كل شيء - ونكروما ونهرو وعدم الانحياز والاتحاد السوفيتي والعالم الجديد، والبيتلز يغنون من لندن. في هذا الجو، قلت كلاماً من قبيل إن الزواج مؤسسة برجوازية، وأنا أفضل وأسعد وأكثر حرية وأكثر حياً لو اخترنا الحياة سوياً ويومياً دون إلزام. في مرة أخرى قلت شيئاً عن تعدي التدخل الاجتماعي في شئون الفرد، وأنا كمسيحي وهي كمسلمة من حقنا أن نتزوج إن شئنا دون أن يغير أحد ديانته لأن الدين شأن فردي وليس من شأن المجتمع. دخلنا وقتها في جدال قانوني - وكنا مجموعة من أربعة أو خمسة طلبة - حول التكيف القانوني لزواج مسيحي من مسلمة في النظام القانوني الدستوري المصري، وقلت إن عقد الزواج نفسه سليم قانوناً وإن القانون لا يوجب تغيير عقيدة الرجل غير المسلم للزواج من امرأة مسلمة ولكن المشكلة هي رفض المجتمع من الجانبين المسيحي والمسلم للزواج المختلط، وإن هذه مشكلة مهمة ولكنها مشكلة لا تتعلق بالقانون وإنما بأهل العروسين ومدى قبولهم

أو رفضهم للزواج. وأذكر في هذا اليوم أنها بدأت معي في المناقشة ثم - شيئاً فشيئاً - ركنت إلى الصمت، ثم وقفت واجمة تماماً ترقب الجدل بيني وبين الثلاثة الآخرين. أذكرها جيداً في التأثير الرمادي الأنيق وعقد من الفضة حول رقبتها، وشعرها الأسود ملموم في ضفيرة واحدة سميكة مستقرة خلف رأسها. وعندما تركنا الأصدقاء ومشينا سألتني إن كنت أعني فعلاً ما قلته أم إنني أجادل فقط لأزعج الزملاء الثلاثة الآخرين، وقلت إنني أعني ما قلته، فاتفجرت في البكاء وأشارت لتاكسي ورحلت مسرعة.

لكنني لم أقل إنني أرفض تغيير ديانتي من أجل الزواج بها هي، لم أقل ذلك أبداً، بل إنني عندما طرحت موضوع الزواج قبيل تغر جنا مباشرة أوضحت استعدادي لتغيير الديانة من أجل إتمام الزواج دون مشاكل، فالأمر بالنسبة لي لا يتعدى كونه إجراء إدارياً صعب نفسياً لكنه ضروري، مثلما جواز سفر يحصل عليه المرء ليتمكن من الدراسة أو العمل في بلد ما. لكنها اتفعلت ورفضت بشدة، وقالت إن ذلك يكون خداعاً وتزييفاً ويظل حراماً ويكون في عرف الدين زناً وليس زواجاً. قالت لي هذا زنا وليس زواجاً، بهت، ثم غضبت، وظللنا صامتين فترة، وكانت تلك هي الفترة التي بدأت داليا فيها تقول إن دوام حبنا مستحيل، وهي ذات الفترة التي بدأت فيها انفجاراتها العصبية وفقدت القدرة على فهمها.

أذكر أنني سألتها، مراراً، عما تريد مني فعله كي نظل سوياً، بزواج أو بدون زواج. هل تريد الهجرة والاستقرار في باريس - ونحن على

وشك الانتقال لفرنسا للدراسة؟ هل تريد أن أغير ديني وأنزوجه؟ أم تريد أن تنزج دون تغيير للدين؟ وكانت تقول كلاماً طويلاً عن مدى حبها لي، يتخلله بكاء وتشنجات وانفجارات عصبية، ثم تهدأ وتقول - وكأنها تلخص أمراً جلياً اجتهدت في تفسيره لشخص لا يفهم - إن استمرارتنا في أي علاقة مستحيل، لأنها لا تستطيع أن تعيش مع رجل دون زواج، ولا تستطيع أن تنزج بغير مسلم، قلت: «وما المطلوب مني أنا إن؟» أن أؤمن من أعماق قلبي بالدين الإسلامي؟ وهل يمكن لشخص أن يؤمن هكذا بالأمر؟ وكيف؟ هل هناك حبوب تخلق الإيمان؟. أذكر أنني وقتها اتناهت هذا الشعور أنني أمثل دوراً في فيلم، وأن هناك جدلاً من زجاج بيني وبين الواقع، وكنت أكاد أرى نفسي من الخارج وأنا أقول ما أقوله، وفشلت تماماً في أن أشعر بأي شيء، وكان هذه المناقشة العيشة لا تخص مستقبلي. وقد انفجرت هي بالكامل عندما ذكرت مسألة حبوب الإيمان هذه. عليها شعرت بأنني أسخر من عواطفها، وربما كان معها حق، فكفت فجأة عن الحديث واتهالت دموعها على خديها، وقامت دون أي كلمة وذهبت. أعتقد أن هذه كانت آخر مرة تحدثنا فيها عن هذا الموضوع.



مرت ساعتان أخريان، وما زال هذا الصمت الغريب سائداً. ماذا يمكن أن يكون سبب هذا الصمت؟ هل اتهاز الطابق الأرضي لدرجة أنني صرت الآن في جوف الأرض ولا أسمع ما يدور فوقها؟

صعب، لأن أرض الغرفة تكاد تكون سليمة. هل رجال الإنقاذ لم يصلوا بعد؟ مستحيل فقد مرت أربع ساعات منذ الانفجار، ولو كان الدفاع المدني يوظف سلاحاً لكنا وصلوا! هل الحكومة السودانية متواطنة ولا تريد أن ترسل الإنقاذ؟ ما هذا الهراء؟ حتى لو كانت متواطنة لأرسلتهم. ربما أمن القنصلية هو الذي يرفض دخولهم أرض القنصلية باعتبارها أرض مصرية. ربما قرروا أن يرسلوا الاستدعاء فريق إنقاذ من مصر! لو كان الأمر هكذا، فأنا ميت لا محالة. لأتناول بعض الطعام: قسمة من ذلك الشيء الذي أحمله، ورشفة ماء أخرى.



أذكر جيداً ما حدث في تلك الليلة. لم يكن قدمي على وصولي لباريس أكثر من أسبوع، وكانت داليا مقيمة في باريس منذ حوالي العام حيث بدأت الدراسة للماستير. خلال هذا العام أرسلت لي عدة خطابات من خلال أشرف فهمي دون أن تخبرني عن عنوانها. وطبعاً لم يصمد أشرف طويلاً تحت الضغط وأخبرني بعنوانها، وكتب لها مرة واحدة أطلب لقاءها كي نتحدث على الأقل لمرة أخيرة ونرى ما إذا كان هناك حل، ولكنها رفضت. واحترمت قرارها، ولم أرد الاتصال بها ضد إرادتها. لكنني عندما وصلت لباريس لم أستطع مقاومة رغبتي في رؤيتها. كنت أبحث في كل الوجوه عنها. عندما أركب المترو أو أسير في الطريق أو أذهب للجامعة، أظل أنفوس فيمن أقابلهم عليها تكون بينهم. أفكر في اللحظة التي سأنتقي

بها، وكيف ستقف مشدوهين، ثم سترتعي في أحضاني وأعانقها. كنت شبه موقن أنني سأراها، وكانت المسافة التي أقطعها من خطوة للخطوة التي عليها مليئة بالترقب. يكاد يؤثر التوقع الدائم يقتلني. كل يوم يمضي بشكل عبثاً إضافياً فوق قلبي حتى لم أعد أحتمل، فقررت أن أذهب إلى بيتها وأدق الباب وأراها. وفي نهاية هذا اليوم، وأنا جالس أشرب القهوة بجوار مبنى الكلية أفكر كيف سأفعل ذلك وماذا سأقول لها وكيف ستقابلني، وماذا لو غضبت، وماذا لو وجدت لديها أصدقاء أو أقارب، وماذا لو وجدت مع شخص آخر تحبه، أو لو صفتت الباب في وجهي، رأيته. بالصدفة.

كنا في الخريف، في الأسبوع الثاني من سبتمبر، وكانت ترتدي تايير كحلي وقرطاً وعقداً من الفضة المشغولة التي تحبها، وحذاء جلدياً رقيقاً وشراباً بلون بشرتها، وشعرها متهدل على ظهرها، تلعب بعض شعيراته وهي تهتز، وكانت تسير في هدوء وثقة. ظلمت أنظر إليها وهي تسير باتجاهي حتى كادت تتجاوز المقعد الذي أجلس عليه وهي تنظر إلى الأمام دون التفات، فهمت بصوت لم أسمعته أنا نفسي: داليا! التفتت ورأيتني. لا أذكر ملامح وجهي أنا ولكنني أذكر جيداً نظرتها التي تغيرت من المباغتة - لأن شخصاً ما أوقفها في الطريق، إلى التعرف على وجهي والمفاجأة الشديدة، ثم إلى الفرح في عينيها اللتين انفجرتا بشكل لم أره منذ سنوات الحب الأولى على السلم الخلفي لقبة جامعة القاهرة، إلى الارتباك، إلى التحفظ مرة أخرى والانسحاب بقدر مسيطر عليه، ثم أومات ولم تمد يدها أو تقترب مني كي أعانقها، أومات وقالت:

.. آه، إنت هنا!

ظللتنا واقفين دون حديث لفترة، وأنا أنظر إليها، وهي مبسمة، وعيناها تجول عليّ. أشرت لها في اضطراب كي تجلس في المقعد المواجه لي، وجلست. بعد عدة ساعات، ربما أربع أو خمس، كنا أمام بيتها. مشينا من المقهى، ثم بجانب النهر، ثم توقفنا وأخذنا ساندوتشا في الحي اللاتيني من باعة الشاورما اليونانيين، ثم مشينا حتى شارع مونيارناس، وأخذنا شايًا في مقهى هناك، وانتهى بنا الأمر أمام باب بيتها. الساعة تقارب العاشرة مساءً وليس لدى أي متاعب في ترك الآخر. ابتسامتها اتسعت وتخلت عن محاولة السيطرة على فرحتها. كانت تشع انطلاقًا وحيوية لم أرهما فيها منذ سنواتنا الأولى. وتحدثنا عن كل شيء، عدا علاقتنا وكيف انتهت، عن الأهل والأقارب والدراسة وفرنسا ومصر والتطورات السياسية والحياة والناس والقانون وكل شيء. وقفنا أمام البيت ثم قالت فجأة وأنا أهم بالرحيل: «مش عايز تشرب قهوة من إيدي؟» فدخلت، وجلست على أريكة صغيرة في صالة صغيرة بها أريكة وكروسي ورايو ومكتب وأشياء أخرى. بدأت تضع حاجياتها على المكتب والأريكة والمنضدة وتذهب لإعداد القهوة وأنا لا أعرف هل أقف أم أجلس، وعيناي لا تفارقان هذه المرأة التي امتلكت قلبي ومشاعري وخيالي منذ تعرفت عليها من خمس سنوات. ثم جاءت باليوم للصور تريني شيئًا وهي تعد أن تبدأ بعد ذلك فورًا في إعداد القهوة. اقتربت مني ومعها الصورة، لم تكن قد لمسنا بعضها، لم تبادل السلام وكان منع تلامس أيدينا قرار تم اتخاذه. اقتربت بالصورة أكثر فتلامسنا. وقفت بجانبتي أمام صديري، ثم تلامس جانبها

وصديري، ثم اقتربنا أكثر، واحتضنتها، ولم تقل شيئًا، وظللتنا في هذا الحضن صامتين، ثم بدأت دموعي في السيل على خدي دون أن أحاول إيقافها. هذا الشعور، احتضنتها، لا يعرفه إلا من أحب واقتد احتضان حبيبته طويلاً حتى يصبح هذا الاقتاد ألمًا في جسمه وفي روحه، حتى يصبح حفرة توجعه وتقصم صدره وتوسع فراغًا يهوي فيه دون توقف. ثم فجأة وعلى غير توقع، أجدها، بكاملها، واحتضنتها، وأقبل شعرها وعينيها وخديها ورقبتها وأسفل ذقتها، هي، بكاملها، احتضنتها، ولم أكن لأثرها، ولم أستطع أن أتركها حين فكرت أنه يجب أن أتركها. ولم تحاول هي أن تتركتي، وذينا بعضنا في بعض، شيئًا فشيئًا، دون كلمة واحدة، وكأننا تمثالان من الجليد يذوبان في حرارة اتبعثت فجأة، وكأننا مياه تنساب بلا إرادة، انساب كل شيء في هدوء وفي عشق وفي تيسم وفي وجد، وكنت أعيلها، وأعيد كل جزء من جسمها، وكنت أموت وأصحو بها وفيها، وكنت ما لم أكنه من قبل ولا من بعد سوى في حلمي المتكرر بها، ونمنا طويلاً على تلك الأريكة، واستيقظنا في عتمة الليل وكان النور ما زال مضئًا، فأغلقت النور وحملتنا إلى غرفة النوم، ونمنا مرة أخرى، ثم استيقظنا، واحتضنتها واحتضنتني، وسكتها وسكتني، ونمنا حتى الصباح.



الساعة السادسة.

ظلام بخيم في الغرفة كلها، وصمت مطبق. لا بد وأن أحاول النوم قليلًا. لا أستطيع أن أظل يقظًا هكذا حتى الصباح. لكن كيف أنام؟



وماذا لو وصل رجال الإنقاذ وأنا نائم ولم يدركوا أنني هنا؟ أتحب،  
تأتي كحتي مبحوحة. أنادي: «يا زول!». ما جمع زول؟ «يا جماعة  
باللي هنا!». لا أحب المناداة، ولا يوجد من يسمعي على أي حال.  
جانح، ويجب أن أنام. ولكن كيف؟

• • •

الشهور الثلاثة التي تلت كانت أسعد أيام حياتي. والأسبوع الذي  
تلاه كان أسوأ أيام حياتي، ثم تلا ذلك بقية حياتي.

افتتحت داليا أسبوع الآلام بأن اخضت تمامًا. بلا أثر. لا في  
الجامعة ولا بيتها أو لدى أي من الأصدقاء. وبعد يومين من القلق  
الشديد، والبحث في المستشفيات ولدى الشرطة، ظهرت. لكنها  
كانت قد تحولت إلى إنسانة أخرى غير التي عرفتها على مدى الشهور  
الثلاثة الفائتة. باردة وصلبة كالصخر، جافة كأنها إسفنجة ناشفة  
تعصرها فلا تنزل منها قطرة ماء واحدة، وبعيدة. ظهرت في بيتها،  
وكانت تبدو مريضة، وعيناها غائرتان مما ولا شك أنه نتيجة البكاء  
المواصل. فتحت لي باب بيتها وكان شيئًا لم يكن، وكأنها لم تكن  
مختفية لأسبوع كامل. وجدت حقيبة صغيرة على الأرض دفعتها  
داليا ناحيتي ففهمت أن بها أشياءي التي كانت في شقتها. طلبت مني  
أن أتركها وحدها بعض الوقت لأنها بحاجة لتفكر. حاولت أن أفهم  
ما يجري لكنها لم تقل شيئًا، لم تقل شيئًا بتاتًا. لم تقل إنها تحمل  
في بطنها طفلًا لنا، ولم تقل إنها أمضت اليومين الماضيين في بكاء  
واختبارات طبية، ولم تقل إنها قد قررت، وحدها، ودون إشراكي

معها، أن تقتل هذا الجنين. لم تقل شيئًا، ولم يخطر على بالي أن  
يكون هذا هو الأمر، ظلمت أطيل جلستي على تلك الأريكة في بيتها  
علها تفك قليلًا وتخبرني بما يدور في ذهنها، حاولت أن أحضنها  
فقفزت وكان ثعبان لدغها، فابتعدت. كانت مصمتة، ولم أر بد من  
الرحيل حتى تهذا قليلًا. لم يخطر ببالي أبدًا - أقسم بشرقي إنني لم  
يخطر ببالي للحظة واحدة - أن تكون على وشك قتل طفلنا.

لو خطر الأمر ببالي لما رحلت. لما غادرت تلك الشقة الصغيرة.  
لما ابتعدت عنها لحظة واحدة. ولتزوجتها ولو بالإكراه. ولمنعها  
بكل السبل الممكنة من قتل هذا الطفل الذي كان سيكون لنا سويًا،  
الذي كان أنيًّا ليكون أنا وهي معًا، هذا الجنين الخارق الذي تغلب  
على احتياطات منع الحمل، هذا الجنين الذي هو حياتنا معًا، حينًا  
ومستقبلنا الذي يؤكد أننا نستطيع، أننا يجب أن ننظر سويًا ونقتسم  
هذه الحياة. هذه الإشارة من السماء إن كنت مؤمنة بالسماء، يا قاتلة.  
لو كنت أعلم، لوضعتها تحت الحراسة حتى تلد هذا الطفل، لغيرت  
الديانة فورًا واتصلت بأمرها لأخبرها أنني أريد الزواج بابنتها المجنونة  
وأنني غيرت ديني من أجلها وأنها حامل في طفل لنا ولكنها تأبى.  
لو كنت أعلم لادعيت أنني آمنت من أعماق قلبي بأي شيء تريدينه،  
كي نظلي معي، كي نحيا هذه الحياة الأولى التي سيختبرنا الله على  
أساسها، يا قاتلة.

كيف استطعت؟ كيف؟ ماذا فعلت؟ هل ذهبت إلى الطبيب وقلت  
له من فضلك أجهضني؟ ثم دخلت المستشفى ونمت وتشتت البنج

وأنت تعلمين أنك حين تفيقين سيكون الطبيب قد شغط الجنين من رحمك وكأنه بلغم وأخذ «ينتظف» الرحم من بقايا الجنين الذي يتعلق بهذا الرحم ولا يريد أن يغادره ليجد نفسه ينقطع به الغذاء والأكسجين ثم يلقي به في قمامة المستشفى؟ هل يلقون به في القمامة؟ في الحوض؟ أم يحتفظون به في متحف يقيمونه للجنة القتل؟ لمشروعات الأطفال التي لم تكتمل؟ أم يضعونه في وعاء زجاجي ويعطونه للام القائلة كي تدفنه في فناء منزلها مع قط العائلة الأخير؟ وماذا تكتب على شاهد هذا القبر: مشروع طفل لم نعطه اسمًا؟

كيف فعلت ذلك بي؟ ألم تفكري في أنا؟ عندما علمت، وبعد أن أفقت من الصدمة ومن الصمت المطبق الذي حل عليّ لأيام، عندما تمكنت من النظر إليها ثانية سألتها. قالت كلامًا مقتضبًا ذكرني بحواراتنا السابقة في آخر أيامنا بالجامعة. وأدركت وقتها أنني لم أكن قادرًا على التواصل معها أبدًا من خلال الكلام، وأن المناقشات بيننا كانت دائمًا تأتي كترجمة لحالتنا النفسية. حين نكون متواصلين نفسيًا وعاطفيًا تأتي مناقشاتنا إيجابية، أما حين تكون هي في واد آخر، حينما ترحل إلى الكوكب الآخر، كوكب النظام والأصول والسيطرة والأحكام النهائية، فإن خيط الاتصال ينقطع تمامًا. كأنها خارج نطاق الجاذبية. قالت كلامًا وقلت كلامًا. وقلت لها إنها قائلة، وإن الله الذي تخافه كل هذا الخوف لا يمكن أن يقبل القتل. وإنها قتلت مرتين، الجنين وأنا، وتعدت على حقي، وقتلت طفلي، وإنها مجرمة وغير بشرية. قلت كلامًا كثيرًا وكانت

جالسة بلا حراك في أريكتها، وقعت وغادرت الشقة وأنا أغلي من الغضب، ولم أرها بعد ذلك في باريس سوى صدقة، وأشحت بوجهي عندما رأيته.

هل كنت أنا بلا خطيئة في ذلك كله؟ هذا ما سألته لنفسي طيلة هذه السنوات، وما زلت أسأله الآن. هل كان يجب أن أعلم أنها حامل؟ هل كان يجب أن أتحدث لذلك وأفكر فيه؟ هل كنت أستطيع؟ هل كان يجب أن أفهمها هي أكثر وأحاول أن أعرفها هي أكثر وأحاول أن أفهم منطقها؟ لماذا لم أحاول العبور لكوكبها وأحاول تفهم مدى احتياجها للسيطرة وللأصول والنظام والقواعد الحديدية بدلًا من أن أسخر من كل ذلك وأحاول إبقائها على كوكبي؟ هذا الكوكب الذي كانت تصفه بكوكب الفوضى والغرائز وكان ذلك يثير غضبي وكنت أرى أن هذا الاتهام يعني أنها لا تفهمني البتة. ألم يكن من الأجدي أن أتجاوز الغضب وأحاول أن أفهمها أكثر؟ هل كان يجب أن أفرا الإشارات في الهواء؟ أن أحاول حقًا أن أراها هي وليس أن أراها كما أحبها وكما أريدها أن تكون؟ هل خلقت وهما وأحبته وقاومتها حين كانت نفسها الحقيقية تغفو على سطح الزهم؟ هل أحببتها هي أم أحببت ما أريد منها؟

ولكن، كيف كان يمكن لي أن أفعل أيًا من هذا وأنا في الرابعة والعشرين من عمري؟ ولكن ماذا عن الأعوام العشرين أو أكثر التي تلت؟ هل كنت خالي الذنب تمامًا؟ هل كنت أنا فعلاً الضحية مثلما اعتقدت طوال هذه الأعوام؟ أم إنني شاركت في قتل هذا الطفل

الذي لم ير التور؟ نفس الأسئلة، ونفس الحلم: وداليا الشاوي لا تغادرنى قط.



ظلام. وصمت. ولا أستطيع النوم، الساعة ما زالت التاسعة، وأنا مجهد، وجائع، وقلق، ولا أستطيع النوم.

أين رجال الإنقاذ يا جبهة الإنقاذ؟ هذا ليس وقت الدعابات. أين الجميع؟ أين أنا؟ أصرخ، وأركض في المساحة الضيقة المحاصرة بالجدران، وأدق على الجدار حتى تولمني يدي. أين أنتم؟ أين ذهب الجميع؟

لا، لا يمكن أن يخفني الجميع هكذا، لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية. هذا ليس وقت الغباء وسوء الإدارة. أين رجال الإنقاذ؟ هل يوجد مدينة واحدة في العالم ليس بها فريق إنقاذ؟ وأين أحمد كمال والقنصلية؟ ألم يكن يعلم أن هناك متفجرات في الخرطوم؟ هكذا قال، فماذا فعل؟ ألا تعلم حكومته أن مصالحها مستهدفة؟ ماذا فعلوا؟ يا داليا! يا قاتلة، ماذا تقولين الآن؟ هل تحيين شريعتهم الآن أكثر؟ أين أنت؟ أم إنك التي حملت المتفجرات بنفسك إلى هنا، يا قاتلة! داليا يا قاتلة!

صمت، لا أحد يرد. صمت وظلام، وإعياء يستولي علي.



إذا مت هنا، ماذا ستفعل أمي؟ هل ستظل في مصر أم تغادرها؟

بالتأكيد ستغادرها. هي التي أنت إليها متأففة ومشككة وغير مصدقة أنها ستعيش في هذا البلد. لكنها أحبت مصر، وقعت في غرامها بعد شهر أو أقل، هكذا كان والذي يقول. قال إنها في الأسبوعين الأولين كانت متأففة، تخاف أن تشرب المياه وتصر على شراء مياه «إيفيان»، ولا تأكل أي منتج محلي إلا مضطرة، ولا تقرب الخضراوات الطازجة أو الفاكهة التي لا يمكن تقشيرها، وأصرت على الإقامة في فندق لحين انتهاء أعمال السباكة والدهان في منزلنا القديم بالزمالك. وكانت تجلس في سيارات التاكسي وكان عقرباً سيلدورها لو تحركت. وظلت تنظر بامتعاض مهذب إلى فوضى المرور وفوضى الشارع وفوضى نادي الجزيرة (الذي قالت عنه إنه أكثر تواضعاً مما تصورته) وبغية أنواع الفوضى، وتحاول ألا يبدو عليها ما تفكر فيه. وفي الأسبوع الثالث بدأت تنبأ بسلوك الناس، فأصبحت تبتهج لقدرتها على المناورة في وسط تجهله تماماً، وشيئاً فشيئاً أصبح الأمر وكأنه لعبة تلعبها مع المجتمع المصري. ولأنها امرأة، وجميلة، وبشوشة ونظرتها حانية وطيبة، فقد أحباها كل من تعامل معها وساعدها، وأصبحت تشعر وكأنها طفلة بدلها الجميع. ثم وصلت سيارة أبي من المعياء وبدأ عم سيد سائقنا القديم في العمل عليها، ومن ثم تحسنت حياتها في القاهرة تماماً، وأصبحت تستطيع الذهاب لأي مكان بحرية، وأصبح عم سيد يقوم بالأعمال المعزجة نيابة عنها، بل وتحول إلى دليل سياحي لها، بإنجليزته المحدودة جداً. يعلم الله أي قصص رواها لها عن مصر، وعن العائلة التي عاش عمره يرقبها من امرأة السائق.

قالت لي أمي إنها شعرت بالاندماج في المجتمع المصري

عندما بدأت تتعلم العربية، وعندما بدأت التدريس في الجامعة الأمريكية. وقال أبي إن أمي أحبت القاهرة حين تعلمت كيف تتعامل مع فوضاها، بل وأصبحت تجد في هذه الفوضى حرية أكبر من تلك التي وجدها في باريس حيث كان أبي يدرس الطب والتقاها وهي تعد الدكتوراه في الأدب الفرنسي. وشرح لي أبي نظريته في القاهرة التي أسماها «نظرية الجمل». قال إنه يمكنك أن تفعل أي شيء تريده في القاهرة ولن يوقفك أحد. لا توجد هنا تلك اللاتاحة الطويلة من التعليمات واللوائح والقوانين المقيدة لسلوك البشر مثلما هو الحال في باريس. الناس في الغرب أصبحوا كأنهم نيترونات أو كواكب صغيرة: يدورون في أفلاك لا يمكنهم الفكك منها. في نيويورك أو واشنطن مثلاً، لو تركت سيارتك في مكان غير مخصص لك، لأخذها البوليس في أقل من نصف ساعة، أو أوقع عليك غرامة باهظة، وربما يتطور الأمر إلى قضية في المحكمة، ولو رفضت الدفع لحكم عليك بالسجن، ويمكن فعلاً أن تذهب للسجن بسبب هذا! في القاهرة، لو اشتريت جملاً وركبته وأوقفته أمام بيتك لما عارضك أحد. أقصى ما يمكن أن يحدث أن يأتي إليك شرطي المرور ويقول لك بأدب شديد: «من فضلك طلع الجمل قدام شوية علشان الطريق!!»

ماذا ستفعل أمي؟ وماذا ستقول؟ غالباً ستغضب. أقول «تغضب» وليس «تحزن». طبعاً ستحزن، ولكن ذلك سيأتي فيما بعد. في البداية ستغضب، على الجماعات الأصولية التي قتلتني بلا ذنب اقترفته، بل على العكس، برغم كوني من الذين وقفوا مع حقوق أعضائها حين كانت الحكومة تنتهك هذه الحقوق. وستغضب على الحكومة لأنها

في رأيها مسئولة عن نشأة واستفحال الأصولية، وعن عدم حمايتي ومن مثلي، وعن التقصير في حماية سفاراتها لدرجة تعرض فيها لمثل هذا التفجير. وستغضب عليّ أيضاً، لأنني تصرفت بغير مسئولية وسافرت لبلد غير آمن. وستغضب مني لأنني لم أستمع لها وأتزوج وأترك طفلين ورائتي. ثم ستغضب على أوروبا التي لا تفعل شيئاً لمساعدة هذه البلاد التي تمر بأوقات عصيبة رغم الرخاء الذي تتمتع به والذي يضع عليها مسئولية أكبر. وستغضب على أمريكا التي تشمل سياستها الحمقاء نيران الأصولية في العالم كله. وستعبر عن غضبها، للجميع، لمن سيأتي من قبل الحكومة ليعزيها، وللصحفي الذي سيجري حوارات معها، وللسفراء الغربيين، وربما كتبت خطاباً للمحرر في الهرالد تريبيون.

ثم يأتي الحزن. وسيكون حزنها عميقاً ولكن برفعة. ذهب ابنها، بعد أن ذهب زوجها من قبل. وماذا يبقى لها في هذا البلد؟ بعض الصديقات، وبعض تلامذتها القدامى، وبعض من عملوا مع زوجها حين كان وزيراً، ثم لا أحد. لا شيء يبقياها هي في مصر. لا شيء يبقياها في الحياة سوى ذكريات. لن تبكي، ولن تتحدث عن ألمها. ستبدو متماسكة للجميع، وستماسك أيضاً في المنزل. ستبكي في هدوء. ستكون الأرملة الصامتة، المتماسكة، التي تنسحب إلى تفاصيل العزاء والاعتناء بالضيوف، دون أن يقلل ذلك من حزنها، هي التي ترفض كل أشكال الهستيريا والمبالغة في إظهار المشاعر.

ثم ماذا؟ سترحل. ربما تذهب إلى فرنسا، إلى ذلك البيت

الصيفي في الجنوب الذي اشتراه أبي قبل وفاته بشهرين ولم نذهب إليه سوى مرة واحدة - في الشتاء! سترك التدريس القليل الذي ما زالت تقوم به في الجامعة، وتقلل ارتباطاتها في القاهرة، عدا بعض المتعلقات التي ستبقيها كرمز لعودتها المحتملة، كأنها ليست مغادرة للابد، ثم ترحل، ولن تعود، بالطبع. سترك أمي عن مصر، وستصفي ما بقي مني، بقية حياتي، ذلك الجزء الذي يمتلئ المرء أن يتركه من بعده.

وأصدقائي؟ راحوا جميعًا في زحمة الطريق. ما بين سفري وعودتي اكتملت دوائر حياتهم بدوني. تزوجوا وأنجبوا وصادقوا ودخلوا في تجارب واكملت حياتهم بدوني. وحين عدت اكتشفت أنني لم يعد لي مكان فيها. بقي من الصداقة الود، والسؤال عند الشدائد - عندما نعلم بها، أما أصل الصداقة - الصحة اليومية والشك في الشوارع والمقاهي والمناقشات والشكوى والإقضاء - فقد ذهبت. بقي ود قدامى الأصدقاء حين يلتقون في عزاء صديق مشترك، والانشغال الاجتماعي اليومي مع زملاء العمل، مع أشرف فهمي وقضاياه التي لا تنتهي، وأحمد كمال الموزع بين إنسانيته ووظيفته، وعدد قليل جدًا من البشر القاء، ويمضي عادة، راحلاً إلى بلاد الشمال من حيث أتى.

لن يبقى بعد موتي شيء يذكر بي. لن يتبقى مني سوى عدد من المقالات، وثلاث كتب في القانون لا يستحق أي منهم القراءة من قبل أحد غير تلاميذي. ومكتب للمساعدة القانونية في قضايا حقوق

الإنسان غالبًا ما ستغلقه الحكومة أو تورثه لمحام قريب من الأمن. ومزنا القديم في الزمالة، وعم سيد المتهالك بلا أحد يقود له، وعدة تحقيقات صحفية عن موتي في الانفجار الذي وقع بالخرطوم عام ١٩٩٥.



ضوء باهت يتسلل من بعيد ويوقظني. هل تمت؟ هل كنت أحلم أم كنت يقطاً أفكر؟ الضوء ينمو ويغمر الغرفة شيئاً فشيئاً. هذه هي القطعة الأخيرة من وجبة الحبوب، ورشقة ماء.



في أول العام الدراسي الثالث لي بالجامعة، قابلت «ماري أن». كنت واقفاً أنتظر المصعد الصغير الذي يقود للطابق الثالث حيث مكتبي بقسم الدراسات العليا، حين جاءت فتاة لا تتجاوز الثانية والعشرين ووقفت بجوارني في انتظار المصعد. كانت نحيفة، ذات شعر كستنائي طويل وناعم، وعينين خضراوين كالفيروز، وملامح وجه دقيقة، بيضاء، ذات شفيتين رفيعتين، وبعض المرح يطل من عينيها، وترتدي جاكيت أخضر شتوي ما زال ميكراً ارتداؤه، له باقة من القطيفة البنية المخططة، وتحمل بعض الكتب على صدرها مثلما تفعل سعاد حسني. قلت لها صباح الخير فردت مع ابتسامة ودودة. دخلنا المصعد وسألته أي طابق، قالت الثالث فضغطت عليه وصمتنا. أزيز المصعد يزيد من التوتر والحرج الملازم لرجل وامرأة في مصعد صغير. وصلنا الطابق الثالث وتوجهنا للممر، ظلت أمشي

وهي تمشي في نفس الاتجاه حتى وصلنا باب مكتبي، نظرت لها فنظرت لي وضحكت وقالت: «إنت نشأت غالب؟»

وماري آن كيبيكية، هكذا تحب أن تعرف نفسها. قلت لها ألا أحد خارج كندا يعرف معنى هذه الكلمة، فردت ساخرة إن ذلك قد يكون صحيحًا في مصر، ولكن بقية العالم يعرف ما هي كيبيك. لو قلت إنها فرنسية - كندية لا عرضت وقالت إن هذه التسمية لا معنى لها، فهناك كنديون كثيرون ناطقون بالفرنسية، في كيبيك وخارجها، والكيبيكيون يشكلون أمة متميزة ليس فقط عن بقية كندا وإنما أيضًا عن الناطقين بالفرنسية في بقية أنحاء كندا، كما أن هناك ناطقين بالإنجليزية من أبناء كيبيك، ومن ثم فهي كيبيكية، ولا شيء آخر. ماري آن الكيبيكية تعد رسالة الدكتوراه بإشراف مشترك بين أحد أساتذة القانون بالسربون وأحد أساتذة العلوم السياسية بجامعة مونتريال حول المفاوضات العالمية الرامية لوضع قوانين دولية تحكم موضوعات حماية البيئة والعلاقة بين دول الشمال والجنوب في هذه المفاوضات، وهو مجال بحثي جديد، بدأ الاهتمام به مع عقد مؤتمر كبير للبيئة في استكهولم قبلها بعام. قالت لي ماري آن إنها ذهبت لاستكهولم لمراقبة المؤتمر في إطار البحث الذي تقوم به. وأعجبنى هذا المزج بين القانون والعلوم السياسية، وهذه الجراحة التي تدفع بفتاة في الواحدة والعشرين (مثلما تبين) للسفر للمشاركة في مؤتمر ليست مدعوة له، ثم الاستقرار في باريس لإنهاء رسالة الدكتوراه بإشراف من جامعتين وقسمين في بلدين مختلفين.

جاءت ماري آن لتساعدني في تدريس مادة تدور حول كيفية تحويل قواعد القانون الدولي إلى قوانين في التشريعات الوطنية المختلفة، باعتبار أن هذه المادة تنماس هي ورسالة الدكتوراه التي تعدها. وكان القسم قد أبلغني بأنهم سيرسلون «شخصًا» ليعمل كمساعدتي. وسرني أن تكون هذه البنت الرقيقة هي هذا «الشخص». ونمت بيننا سريعًا صداقة حميمة، تجمع بين الشراكة في العمل والتفاهم الشخصي. وحكيت لها عن قصصي في مصر، وعن داليا. وحكت لي عن حياتها وعن كندا (وكيبيك) وعن «شريكتها» مارك، الذي تحبه ويحبها، والذي قرر البقاء في مونتريال.

• • •

الثانية ظهرًا.

ثمان وعشرون ساعة منذ الانفجار.

نقد الطعام منذ الصباح. أكلت كل فتافيت الحبوب التي أمكنتي العثور عليها في الكيس. ولم يأت أحد بعد. لا يهم، فلن أموت من الجوع. الماء هو المهم، ولكن الإعياء، الإعياء....

• • •

أحب أن أراها، وأشعر بالسكينة في وجودها، وأحب أن أسمعها تتكلم: أحب صوتها ولكنها الكيبيكية، وأحب ملابسها البسيطة التي أراها وحدي أنيقة، وأحب طريققتها في رؤية الأمور وعرضها: بسيطة دون تعقيدات، منطقية، وإيجابية. أحب بشاشتها وقدرتها على جعل

من حولها يتسمون، لطفها مع الباعة في المحلات والجرسونات في المقاهي، الوحيدة التي رأيت سائقي الحافلات الفرنسيين يقولون لها «تهارك سعيد» حين تصعد للحافلة! أحب جدتها في العمل مع الطلبة دون مبالغة ولا سلطوية أو عقد. أحب قلقها وشكها في قدرتها على التدريس وعلى الدراسة وعلى إنهاء الدكتوراه، ثم قيامها بكل ذلك باقتدار. أحب طبيعتها وإحساسها الفطري بالحق وبفضها للظلم على أي مستوى وبأي مقدار كان. أحب صدقها، واحتقارها للكذب والمراوغة. أحب تعاطفها مع الضعفاء، وقوتها. أحب رقتها المتناهية، ونظرة عينيها. وأحب نفسي حين أكون معها. وأشتاق لها حين تغيب. وأنتظر يوم الثلاثاء حين تأتي للتدريس. وأخترع مناسبات للتضيق المشترك أو التنسيق - فقط كي أراها يومًا إضافيًا. وأستمع بلا ملل لحكاياتها عن نفسها وعن شريكها مارك، ولا أفهم كيف قرر أن يتركها ترحل وحيدة وأن يبقى بدونها في مونتريال. وأسعد حين تتصل بي بأكبة لتشكو لي أمرًا، سواء شعورها بالجرح لأن طالبًا إفريقيًا اتهمها بالانصرية ظلمًا أو لأن مارك لم يتصل بها في مناسبة ما مهمة لها.

أصبحت ماري آن المعين النفسي لي على اجتياز محنتي في باريس، وعلى محاولة تجاوز ما فعلته داليا بي. كانت دائمًا تحاول أن تجعلني أرى الأمور من وجهة نظر داليا، ليس من باب الدفاع عنها وإنما إقارًا لاختلاف الرؤى بين الرجال والنساء. وكانت ماري آن أول من لفت نظري لحقيقة أن الرجال والنساء يرون الأمور بشكل مختلف جذريًا، وهي وجهة النظر التي تطورت فيما بعد إلى كتاب

«الرجال من المريخ والنساء من الزهرة». وكنت قبلها أؤمن فعليًا بأن الرجال والنساء متطابقان، وأن الفروق بينهم بيولوجية وليست فكرية أو عقلية، وعلمتي ماري آن أن المساواة لا تعني التطابق، وأن ذلك لا يعني أن تصرفات المرأة عاطفية أو غير عقلانية، وإنما أن هناك عقلانية أخرى تفسر هذه التصرفات.

- العقلانية ليست مرادفًا للتفكير الخطي الذي يركز على الانتقال من النقطة أ إلى النقطة ب بأقصر طريق ممكن، واستخلاص النتائج من المقدمات الظاهرة والانتقال لتنفيذ توصيات تتعامل مع هذه المقدمات. هذا تفكير عقلائي ولا شك، ولكنه ليس التفكير العقلاني الوحيد. هناك عقلانية أخرى، تقوم على التواصل بين الأفراد وأخذ حاسباتهم في الاعتبار، تقوم على الاستكشاف والاستماع لوجهات النظر المختلفة، تجمع بين الرؤى المختلفة، إدماج الحساسيات العقلية والنفسية التي تقف خلف هذه الرؤى بحيث تتطور تدريجيًا لنسق واحد جديد ينشأ عن هذه الرؤى، بحيث تجد المكونات الأصلية لهذه الرؤية جميعها مكانًا لها في الرؤية النهائية المنبثقة عنها. هذا ليس أقل عقلانية، وفي الحقيقة، فهذه الطريقة توفر إجماعًا أكبر على الرؤية النهائية، في حين أن العقلية الرجولية، الخطية، هي بطبيعتها عقلية تصادية تقوم على فرض رؤية واحدة وإقناع الرؤى الأخرى بالانسحاب أو قمعها.

من أحاديثي المطولة مع ماري آن، أدركت كيف أن الرجل والمرأة يتحدثان بلغتين مختلفتين، وأنه برغم استخدامهما نفس المفردات

فإن كلا منهما يعني شيئاً مختلفاً بهذه المفردات، وهو مصدر الخلط والتصادم في كثير من الأحيان بينهما. وصرت المستشار الرجولي لها، أشرح لها كيف يمكن لمارك أن يفسر كلامها وأفعالها، وأفسر لها ما يمكن أن يقصده مارك بأفعاله وكلماته، وهي تشرح لي الرؤية النسوية للأمور من خلال إعادة مناقشة ما حدث مع داليا أو من خلال قصصها هي مع مارك. ولكن مشورتي، مع إخلاصها، لم تغلح في تحسين الأمور بينها وبين مارك.

بعد نهاية الفصل الدراسي والتدريس المشترك، بدأنا في العمل سوياً. هي تحضر مشروع رسالة الدكتوراه وأنا أوصل البحث اللازم لكتابة رسالة الدكتوراه الخاصة بي. لم تكن نعمل كفريق، بل كنا نجلس سوياً في مكتب صغير حصلنا عليه من القسم ونعمل كلاً على حدة. نأتي للمكتب في الصباح ونبدأ العمل مع القهوة، ثم نذهب في الظهيرة لتناول غداء سريع في كافيتريا الكلية أو في أحد المطاعم أو المقاهي بجوار الجامعة، ونعود للمكتب لمواصلة العمل حتى السادسة مساءً تقريباً، ثم يذهب كل منا في حال سبيله. لم أكن من اقترح هذه الخطة، لم أكن لأجرؤ على ذلك. هي التي اقترحتها في بساطة وعفوية شديدة. وتلقت الاقتراح ثم خاطبنا رئيس القسم الذي متحننا هذا المكتب. صرت أراها كل يوم، وتحسنت أحوالي النفسية، واستطعت ألا أفكر في داليا وفيما حدث طول الوقت مثلما كنت أفعل، وأن أعمل بجدية أكبر وأنجز أسرع. كنت أرفع عيني عن الأوراق وأرى ماري آن جالسة تكتب، أو تفكر وهي تضع القلم الرصاص بين شفتيها، أو تعد قهوة وخصلات من شعرها الكستنائي

تهبط على ماكينة القهوة، وأدرك أنني أقع في حبها. هل كانت تبادلني الحب؟ فيما بعد - حين سألتها - أنكرت. وقالت إنها لم تكن تفكر إلا في مارك، وأنها تجد في صديقاً مقرباً لا أكثر. ولكن.

ولكن كان هناك شيء ما في طريقتهما، في بقائها المستمر معي، في الطاقة المتباعدة منها تجاهي، في قربها، تقول لي إن هناك ما هو أكثر من الصداقة. حرصت على عدم إظهار مشاعري إزاءها، ولكنها كانت ولا ريب تدرك، بحسها الأثري وحس بنات برج العذراء الذي قلما يخطئ، أنني أحبها. ولم تحدث في هذا الأمر آنذاك. كانت علاقتها بمارك تسوء تدريجياً منذ سفرها. وصبيحة ذات يوم من أيام أكتوبر، أبلغتني في منتصف حديث عابر أنها متسافرة إلى مونتريال وتعود قرب نهاية العام، بعد أعياد الميلاد مباشرة، وذلك لترتيب الأمور مع مارك وإصلاح ما أفسده البعد والوقت، وقضاء عيد الميلاد مع أسرتهما ثم العودة لباريس كي نواصل العمل سوياً. وقع الخبر عليّ كالصاعقة، وحاولت أن أجد حججاً يمكن أن تمنعها من السفر دون أن تضغط عما يدور بقلبي: الدكتوراه، التقدم الذي أحرزناه، ألا تخشين لو سافرت أن يتقطع جيل عملك وتضيعين وقتاً ثميناً للعودة مرة أخرى لهذه النقطة؟ وحتى الجو البارد بمونتريال، وألم تقولي إن والديك أرادا القدوم لباريس لعيد الميلاد؟ وهل يمكنك إصلاح ذات البين بقضاء شهرين هناك؟ ثم ماذا يحدث عندما تسافرين مرة أخرى؟ ولماذا لا يأت مارك إلى باريس؟ ألم تقولي يجب أن يشعر الرجل أن امرأته غير متاحة كي يريدها؟ وأسألك هنا: ماذا سيقول؟ وكتبك وأوراقك: هل تأخذينها أم تتركينها؟ وماذا لو فقدتها في المطار؟



وربما يأخذون منا هذا المكتب إن رحلت وصرت أنا وحدي، ثم كيف تتركين صديقك الذي اتفقت معه على العمل وحده؟ أليس هذا تخلي عن الأصدقاء؟

لم يجد شيئاً من هذا نوعاً. رحلت ماري آن إلى مارك على أن تعود. ثم أرسلت لي خطاباً تقول فيه إنها لن تعود في نهاية ديسمبر مثلاً قالت، ثم قالت إنها لن تعود، وستعمل من جامعتها بمونتريال وتظل بجانب مارك لأنها تدرك أن البعاد سيقضي على علاقتها دون شك. غضبت. وعبرت عن هذا الغضب، وقلت لها إن هذا كلام عيال، وإن بيتنا عملاً واتفاقاً، وإني اعتمدت عليها، ولم أفصح عما أغنيه بذلك، ولكنني كنت أعرف أنها تفهم. اعتذرت مطولاً، وعبرت عن التعاطف الشديد، ولكنها لا تستطيع - قالت - العودة لأسباب عديدة. قالت إن هذا هو الحل الوحيد إذا أرادت إنقاذ علاقتها بمارك وإعطاءه فرصة حقيقية، وإنها لو تركته فيجب أن يكون ذلك نابعاً من رغبة لديها أو لديه بالأكمال معاً، وليس نتيجة لبعدهما بعضهما عن بعض. كلام منطقي وسليم، ولكن هذا الكلام تركني وحيداً في باريس، أواجه عالمًا غير ودود، ودكتوراه لا تنتهي، ووحدة مطبقة، في الجامعة وفي الحياة، وداليا مؤلمة، وطفل مجهض، وحزن يتعصرني. حين قالت ماري آن إنها لن تعود فهمت إلى أي مدى أصبحت سندي النفسي، الخيط الذي يربطني بالحياة، الذي يمتحنني الطاقة اللازمة لاستيعاب في الصباح وأخرج من فراشي، لأرتدي ملابس وأذهب للجامعة، لأجلس في هذا المكتب المعتم وأعمل لمدة تسع ساعات كل يوم لا يقطعهم سوى فتجائين من القهوة وغداء معها. وعندما سحبت هذا الخيط، هويت، دون تمهيد، في وحدة مطلقة.

الجوع لن يقتلني، ولكنه سيفتك برأسي. يقلل الجوع من قدرتي على التركيز، يجعلني عصيباً، ويصيبني بصداغ. سيحل ظلام آخر، قريباً. وما زال الصمت الغريب مطبقاً وبلا تفسير. أأكون أحلم؟ هل مت؟ هل فقدت الوعي مثلاً وأنا الآن أحلم في حين أن عمال الإنقاذ قد جاءوا بالفعل وأخرجوني؟ أأكون الآن في طريقي للمستشفى، أو على مائدة الجراحة. في الخرطوم؟ لا، لا أرجوك، لا جراحة في الخرطوم. ربما أكون في حالة فقدان للوعي وعلى متن طائرة تحملني إلى باريس للعلاج. ولذا لا أسمع شيئاً. كثيراً ما كنت أحلم وأدرك في وسط الحلم أنني أحلم، وأحاول أن أمد الحلم لكنني أصحو غصباً عني. إن كان هذا حلمًا، فهل يتوقف؟ كيف أخرج منه؟ وإن كان هذا حلمًا فلن أموت، لا من الجوع ولا من العطش. ولكنني أكتب، وأمس الورق والقلم بيدي، وأمس هذا الجدار الذي يحيط بي، وأسير في هذه المساحة الضيقة، وأجرح يدي بالدق على الجدران. ولا ينتهي الحلم. أأكون قد مت وهذا هو المطهر؟ بدون ملائكة، ربما رفض الملائكة القدوم للخرطوم، أو لمسيحي لا ترضى الكنيسة عنه. ربما يكون هذا هو عذابي، أن أظل هكذا في هذا القبر بلا شيء أفعله، أراجع حياتي وما فعلته من صواب ومن خطأ، وأفكر، وأشعر بالجوع والعطش والصداغ والملل والخوف والقلق والترقب حتى يوم القيامة. ربما.

• • •

عندما افتتح باب المصعد الصغير الذي يقود للطابق الثالث

حيث مكثي يقسم الدراسات العليا، رأيت فيه فتاة لا تتجاوز الثانية والعشرين، نحيفة، ذات شعر كستنائي طويل وناعم، وعينين خضراوين كالفيروز، وملامح وجه دقيقة، بيضاء، ذات شفتين رفيعتين، وبعض المرح يطل من عينيها، وترتدي جاكيت أخضر شتوي مازال ميكزاً ارتداؤه، له ياقة من القטיפيئة البنية المخططة، وتحمل بعض الكتب على صدرها مثلما تفعل سعاد حسني. عندما انفتح باب المصعد ورأيتها ذهلت، ونظرت إليها غير مصدق، قابستمت وألقت بنفسها بين ذراعي وعانقتني. خرجنا من المصعد، ووقفنا أمامه متلعثمين. قلت ماذا تفعلين هنا؟ هل عدت؟ وقالت وأنت ماذا تفعل هنا؟ غلنك عدت إلى مصر؟ قلت كنت ذاهباً إلى كذا وقالت كنت في طريقني إلى كذا، واتفقتنا أن نلتقي على قهوة في الخامسة من مساء ذلك اليوم.

كانت منهارة. انتهت علاقتها بمبارك منذ شهر، اكتشفت بعد عدة شهور من عودتها أنه كان قد ارتبط بفتاة أخرى ولم تواته الشجاعة ليعترف لها بذلك فظل على علاقة بالاثنتين (ويعلم الله ماذا كان يقول للفتاة الأخرى)، ثم واثته الشجاعة واعترف، وقطع علاقته بالأخرى. حاولوا أن يعيدا بناء حياتهما ولكن شيئاً ما كان قد تغير بينهما. لم يعد حريصاً عليها مثلما كان، لم تعد تجد في عينيها نظرة الإعجاب نفسها، وإنما نفاذ صبر وتوتر وتهكم، وشكوى من شكواها المستمرة. وبدأ يرى في حبها «مطالب عاطفية» إزاءه، وكانت تلك هي علامة النهاية، واتفقا على الفراق، لكنها كانت منهارة.

— هذا اتفاق في الشكل فقط، ولكن الحقيقة أنه هو الذي تركني،

تركتني من داخله، ولم يبق أمامي إلا أن أتركه أو أقبل أن أعيش مع رجل لم يعد في داخله يريدني، وهو طبقاً — مثل أي رجل — لم تواته الشجاعة لتركني، بل ظل يترك الحياة بيننا تتدهور على أمل أن تصل للدرجة لا أستطيع تحملها فأتركه ويشعر هو براحة الفسيفساء لأنه لم يتركني. جيان.

.....

— ولكنني ما زلت أحبه.

ثم نوبة طويلة من البكاء، يعقبها استئذان، ودخول حمام لفترة تطول، ربما يتخللها نوبة بكاء وتشنج أطول وأكثر حرية، ثم عودة من الحمام محمرة العينين والأنف، وابتسامة مختصة وجلوس شاحب. تركا بعضهما بعضاً، وجمعت حاجياتها ووضعتها في بيت أهلها بمدينة كيبك، وقررت عدم استكمال الدكتوراه وجاءت إلى باريس لتسحب أوراقها وتجمع بقية حاجياتها.

— ولماذا لم تصلي بي؟

— كنت أظنك قد عدت لمصر، كما أنني خشيت ألا ترد علي. آخر مرة تحدثنا كنت شديد الغضب علي.

وابتسمت، وانفتح قلبي على الفور ودون انتظار ودون مساومة ودون وعود منها. وبعد مناقشة طويلة أقتنعنا بالبقاء واستكمال الدكتوراه. قالت إنها لم يعد لديها فكرة عما حدث في موضوع دراستها منذ حوالي عام، وأنه سيتعين عليها البدء تقريباً من جديد،

وإنها لم يعد لديها خطة للعمل أو البحث أو تصور للكتابة، ولم تقرأ كتابًا واحدًا منذ ستة أشهر، ولا تجد في نفسها طاقة للقراءة أو البحث أو العمل، وليس لديها سكن في باريس ولا موارد مالية تكفي للحصول على سكن يشبه ذلك الذي كانت قد حصلت عليه من الجامعة وفقدته بسبب سفرها، ولا تستطيع أن تذهب للإقامة في الضواحي البعيدة، وإنها استمرت من الاكتاب في قطار الضواحي لو اضطرت لركوبه لمدة ساعة مرتين في اليوم، وإنها تبكي طوال اليوم في نوبات متصلة، وترادها أفكار في الانتحار ولولا حرصها على مشاعر أمها لفعلتها، وغير ذلك مما يقوله المحبون بعد الفراق.

وحملتها. حملتها في قلبي وعلى كتفي. وضعنا سويًا خطة للعمل والكتابة ضيقت من نطاق البحث قليلًا ولكنها جعلته أكثر واقعية وأكثر قابلية للتنفيذ دون أن تفقده قيمته العلمية. وصرت أبحث لها عن الكتب وأجلها من المكتبات المختلفة، وأخذها إلى مكتبات أخرى لتشترك فيها وتطلع على ما عندهم. وعرفتها على رفاق لي في جامعات أخرى ليساعدها أيضًا، وساعدتها في قراءة بعض الكتب، بل وقمت بتلخيص بعض الكتب لها، وكانت تضحك وتقول إنني أكثر مساعد باحث خبرة وتأهلًا، وكنت أبسم ولا أعلق. ووبرت لها شقة على مقربة من الجامعة تقطنها زميلة مصرية كانت مسافرة لشهور، ولم تطلب الزميلة تفوقًا لأنها كانت تحتفظ بالشقة في كل الأحوال، وتركتها لماري آن ريثما تستقر أمورهما مقابل أن تعني بالنباتات وتدفع فواتير المياه والكهرباء والتليفون.

في الصباح، أمر عليها لأخذها إلى المكتب، ونظّل نعمل طوال النهار مثلما كنا نفعل منذ أكثر من عام. كانت نوبات البكاء تأتي في وسط العمل، فتتوقف وتحدث قليلًا، وأؤكد لها أنها جميلة، وأنها امرأة رائعة، وأن الجميع يقدرها ويحبها، وأنها ستسنى هذه القصة. وتقول لي: «أعتبر هذا وعدًا؟» وأقول نعم ونضحك، وتعود للعمل، ثم للبكاء. كتبت هذه العبارات بخط كبير على لافتات ووضعتها بجانبني، وكلما بدأت أعراض نوبة البكاء رفعت هذه اللافتات الواحدة تلو الأخرى: «أنت جميلة»، «أنت أفضل طالبة دكتوراه على الإطلاق»، «كلنا نحبك»، «ستكونين بخير»، ثم: «اعتصري هذا وعدًا». وتضحك وهي تبكي، وأبسم أحيانًا وأزجرها أحيانًا، وتعذر وتنصاع وتعود للعمل، ثم تتوقف وتسالني عن كيفية تفكير الرجال، ثم تعود للعمل، ثم تذهب للغداء، ثم تعود للعمل، ثم أخذها لمنزله وأتركها تستريح، وأعود إليها في المساء لأصطحبها إلى السينما، أو لمعرض فني، أو لزيارة أثر ما، أو لحضور حفل موسيقي، أو للرقص، أو لتمشية على النهر، ثم أعيدها في الليل وأقبلها على وجبتها وأتركها تنام.

تحسنت. وصارت نوبات البكاء أكثر تباعدًا ثم توقفت، وقلت توقفتها المفاجئة عن العمل وأسئلتها عن طبيعة الرجل في وسط النهار، وعادود الاتصال بأصدقائها القدامى، وتعرفت على أصدقاء جدد، ثم بدأت تدعوني للمنزل وتعد لنا العشاء أحيانًا، وتدعو زملاء معنا في أحيان أخرى، واستأنفت التقدم في العمل، وحين عدنا للنشاجر حول تكييفات القانون الدولي مرة أخرى. تأكدت أنها عادت لحياتها الطبيعية.

عادت بعض الحمرة إلى وجبتها، وعادت عناها لتلعمان في شفاوة ودلع من وقت لآخر، وصارت تبقى بجواري لفترات أطول، لصيقة بي، ويعطول عناقها لي لحظة زائدة، وأحياناً تخفض عينها في خجل بعدها، ويدأت تقول إنه خسارة أنني سأعود لمصر قريباً. وذات مساء، أوصلتها لشقتها في الواحدة صباحاً بعد أمسية قضيناها في المسرح. سألتني إن كنت أود البقاء لشراب أو لقهوة، فشكرتها وقلت إن الوقت تأخر ويجب أن نكون في المكتب في الصباح. وربت على كفتي وابتمت، ثم شئت قليلاً وطبعت قبلة سريعة على وجتي. قبلتها بمثلها، وتمنيت لها نومًا هادئًا، ورحلت عائداً لبيتي.

في الصباح، وبينما كنت أعد القهوة في المكتب أثناء استراحتنا الأولى من العمل، نظرت إليّ وقالت إنها كانت تود لو أنني قد بقيت معها تلك الليلة ولم أعد لمزلي. شعرت وكأن ساعة هبطت عليّ. اتعقد لساني، وظللت أنظر إليها ولا أستطيع الرد. لا يعلو وجهي أي تعبير. أنظر إليها وأحاول النهوض من على الأرض التي كومتني عليها المفاجأة. ثم قلت شيئاً لا أعتقد أنها سمعته، فهزت رأسها مستهفمة - وكانت كل هذا الوقت تنظر إليّ في إبتسام وترقب لرد فعل من جانبي - فغمغمت شيئاً، ثم قلت لها إنني أحبها، وإنني أحببتها منذ كنا نشترك في التدريس، ومنذ أيام المكتب العام المنصرم، وإنني، فصمتت تماماً، ولم تعلق. ثم قامت ووضعت يدها على كفتي وقالت إنني شخص عذب للغاية، وإنها تحبني كثيراً، ولكنها ليست في حالة حب معي، وإنني أقرب إنسان لها، ولكن ذلك ليس الحب، وقالت إنها أسفة، وإنها تشعر بأنها استغلتي، ولكنها قد خرجت لتوها من

تجربة مريرة وليست مستعدة لتقع في الحب من جديد. أجهز ذلك على ما تبقي فيّ من قوة، وشعرت بأن الأرض تعيدي، حرقياً، وأن يدها الموضوعة على كفتي تحرقه، ودوار لا يتوقف.

غمغمت شيئاً لم أسمعه أنا نفسي، وابتمت مرتبكاً، ثم أكملت صنع القهوة. جمعت بعض الشجاعة، وقلت لها إن ما تقوله غير حقيقي، لا تقولي لي إن مشاركتي ناحيتي هي مجرد صداقة! هل كان من باب الصداقة أن نقضي كل هذا الوقت معاً في العام الماضي؟ إننا لم تكن نرى بعضنا غير بعض، لم تكن نتحدث مع أحد غيرنا، لم تكن نفعل شيئاً دون وجود الآخر. وهذا القرب، هذه الحميمية، هذا الانجذاب، وهذه الطاقة التي لا يتكراها إلا مكابر، هل كانت من باب الصداقة؟ ظلت صامتة، وتلعمت، ثم قالت إنها تعترف أنها تكن لي مشاعر تفوق الصداقة، ولكن رؤيتها لنفسها ومستقبلها لا تتضمن أن تكون مع عربي، وقطعاً لا تتضمن أن تعيش في بلد كمصر. ومن ثم فقد قررت ألا تترك أي فرصة لهذه المشاعر كي تنطور إلى الحب. توقفت عن صنع القهوة، ولم أستطع النظر إليها. صمت لبرهة، ثم قلت لها إنني لا أستطيع أن أواصل. قالت إن اليوم ما زال في أوله، فقلت إن ما عنيت هو أنني لا أستطيع أن أواصل معها عامة وليس اليوم فقط. بدت عليها الصدمة، وأخذت تتمتم ببعض الكلمات بينما جمعت أشياءي من المكتب، ورحلت، وقطعت الاتصال بها كلية.



كيف انهارت الأمور في مصر إلى هذه الدرجة؟ كيف ضربت

القوضى والإهمال والتسيب وانحدار الكفاءة في كل شيء. هكذا وبهذه السرعة؟ من الرقابة على الغذاء إلى فشل الطب، وتلوث الهواء، والإشعاع في الأغذية، وانهيار التعليم من المدرسة إلى الجامعة والبحث العلمي، والاستبداد السياسي، والتمييز الديني، والتعذيب، وسيطرة الأمن على الجامعة وبقية مؤسسات المجتمع والدولة، وسيطرة التخلف على عقول الطلبة، والتخية، والإرهاب الفكري، وتدهور مستوى الثقافة، الشعبية منها والرسمية والتخبوية، وانتشار الهبل في الصحف والراديو والتلفزيون، وإعلاء قيمة المال حتى أصبح المعيار الأول لتحديد الأولويات للفرد والمجتمع والدولة، والكسب السريع، والانفتاح الاستهلاكي، وانهيار دور الدولة في إدارة الشؤون العامة من تنظيم المرور إلى تنفيذ أحكام القضاء، واستيراد أسوأ ما في الغرب والوقوف ضد أفضل ما فيه، واحتفاظ المهنية في سائر المهن من السباكة إلى التدريس بالجامعة، واختفاء الجمال، من تصميم البيوت والمباني والشوارع والحدائق إلى مظهر الرجال والنساء والأطفال، والصخب، والتفاهة، والميلودرامية، وطفولية البالغين، وإدمان النكد والشقاء، والوقوف بالعرض في كل شيء. كيف؟

أيي وأمي والجيل الذي يمثلونه يلومون الثورة واستيلاء الضباط على السلطة في المجتمع ككل والإطاحة بالطبقة الوسطى العليا والقيادة الاجتماعية التي أنشأت جامعة القاهرة وقادت حركة التنوير. وزملائي بالجامعة ممن درسوا معي يلومون السادات والانفتاح وسقوط المشروع القومي وتفكك المؤسسات الاجتماعية الذي نتج

عن الانهيار المفاجئ للقوانين والمعايير، وطبعاً نعلم ما ستقوله داليا وأعرانها، وعشرات من المؤلفين والكتاب ممن وضعوا كتباً في هذا، وأنا منهم. ولكن هذا ليس السؤال الذي أطرحه الآن. أنا لا أتحدث عن النظرية، ولكني أسأل كيف حدث هذا الانهيار بهذا الحجم وبهذه السرعة وفي كل مناحي الحياة؟ أحياناً أفكر أننا لو أردنا أن ننظم انهياراً لمجتمع ووضعنا كل قدراتنا في هذا الأمر لما نتجنا في إحداث انهيار مماثل لما جرى في مصر بهذه السرعة.

ثم إن هذا الانهيار جرى تحت سمع وبصر النخبة التي كانت قائمة قبل ذلك والتي تنبأى الآن على غيابها. فكيف تركت هذه النخبة الأمور تتدهور لهذا الحد؟ وكيف تعطل المشروع القومي ثم اختفى تماماً هكذا تحت سمع وبصر أصحاب المشروع؟ كيف انهارت الجامعة مثلاً؟ كيف انتقلنا من كلية الحقوق القديمة التي تخرجت أنا فيها إلى هذا المكان الذي أعمل فيه؟ ولا أتحدث فقط عن الطلبة، ولكن عن الأساتذة قائلهم؟ لا يمكن أن يكون هذا التحول قد حدث فجأة. لم ننم ونستيقظ فوجدنا البلد في هذه الحالة. لقد وقع هذا الانهيار شيئاً فشيئاً وتحت بصرنا جميعاً، فكيف لم نفعل شيئاً لوقفه؟ أين كنا نحن حين حدث هذا؟



عندما انتفح باب المعصد الصغير الذي يقود للطابق الثالث حيث مكنتي بقسم الدراسات العليا، رأيت فيه فتاة لا تتجاوز الثانية والعشرين، نحيفة، ذات شعر كستنائي طويل وناعم، وعينين

خضراوين كالفيروز، وملامح وجه دقيقة، يضاء، ذات شفيتين رفيعتين، وبعض المرح يطل من عينيها، وترتدي جاكيت أخضر شتوي مازال ميكراً ارتداؤه، له ياقة من القطيفة البنية المخططة، وتحمل بعض الكتب على صدرها مثلما تفعل سعاد حسني. عندما افتتح باب المصعد ورأيتها هزرت رأسي مستكراً وقلت لا، ليس للمرة الثالثة. ابتسمت، ونظرت إليّ في حذر وكأنها لا تدري هل سأعاقبها أم سأصغفها. ابتسمت لها وأنا ما زلت أهرز رأسي وطبعت على وجنتيها قبلة باردة، وقاومت مشاعر تتحرك في قلبي لرؤيتها وللشعور بقرب وجهها. قالت إنها قادمة من استكهولم حيث كانت تجري بعض المقابلات البحثية، ومارة من خلال باريس لمدة يوم واحد للقاء أستاذها المشرف على الرسالة، وستسافر في الغد إلى مونتريال للقاء أستاذها المشرف الآخر وإجراء بعض البحوث في المكتبات الكندية، «حتى إني تركت حقيبة سفري في المطار لدى شركة الطيران، وليس معي غير أشياء بسيطة لقضاء الليلة»، وأشارت لحقيبة يدها الكبيرة. وقفنا متلثمين لحظات بعد انتهاء هذا الحوار القصير، ثم قالت إنها ستلتقي بمشرفها الفرنسي في الثالثة، وليس لديها ارتباطات بعد ذلك، وسألني إن كنت أحب أن نلتقي، ربما من أجل تناول «العشاء الأخير»، فضحكت وقلت أتمنى ألا أكون أنا من سيلعب دور المسيح، فنحن نعرف كيف ينتهي الأمر بصاحب هذا الدور.

والتقينا، للمرة الألف، على قهوة في الخامسة. وتحدثنا عما دار بيننا، وأعدت على مسامعي قصة مشاعرها إزائي التي تتجاوز

الصداقة ولكنها تمنعها من بلوغ درجة الحب لأنني عربي ولأنها لا يمكن أن تعيش في مصر، وقلت لها لأي مدى أجد حديثها منفراً وعنصرياً، بل وغير قابل للتصديق، وقالت إن الأمر لا علاقة له بالعنصرية، ولكنه يتعلق برؤيتها لنفسها ولحياتها ومستقبلها ونوع الحياة الذي تريده، وقلت إني لا أريد الإطالة في هذا الموضوع، وإني لا أريد أن أربط بامرأة لا تريدني، أيًا كانت أسبابها، ولكنها تخطئ إذ تحاول التحكم في مشاعرها بهذا الشكل، فابتسمت وقالت ألا حيلة لها في ذلك لأنها من مواليد برج العذراء، وابتسمت وانتقلت للموضوع آخر. تحدثنا عن عملها والبحث الذي تقوم به، وإلى أين وصلت في كتابة رسالتها وما فعلته منذ افترقا، وعن رسالة الدكتوراه الخاصة بي التي أنهيتها وسلمتها للقسم، وموعد سفري القريب للقاهرة، وأني أفكر أن أؤجل عودتي عدة شهور لحين مناقشة الرسالة بحيث لا أضطر للعودة لباريس بعد عدة شهور، وربما أتمكن من اللحاق بنصف العام الثاني بحيث أبدأ التدريس في جامعة القاهرة في يناير. وسألني عما إذا كنت قد فكرت في الاستجابة للعرض الذي قدمه لي القسم بالبقاء في باريس والتدريس بصفة دائمة هنا. فقلت إني فكرت ملياً في ذلك وقررت الاعتذار، وإن جامعة القاهرة أولى بي، وبخاصة أنهم أعطوني هذه المنحة الدراسية طيلة هذه السنوات، فقالت إن السربون سيسدد قيمة المنحة في حالة قبولي الوظيفة، فقلت إني أعرف، ولكني ملتزم بالعودة، وإني أريد أن أكون وسط أهلي وفي بلدي، وأن أدرس في الكلية التي تعلمت فيها، وإن وجودي في مصر له معني أكبر بكثير لي من أن أصبح أستاذ قانون مشهور في جامعة

فرنسية. وشرحت لها أنني أنوي فتح مكتب للمحاماة يتخصص في قضايا حقوق الإنسان وتقديم المساعدة القانونية للضحايا. طال الحديث وانتقلنا للعشاء. وقالت لي إنها ما زالت لا تدري ماذا ستفعل بعد أن تنتهي الدكتوراه، وإنه من الممكن أن تدرس بجامعة مونتريل ولكنها لا تريد التدريس كمهنة، ولا ترى نفسها إلا في عمل يتضمن التعامل المباشر مع الناس والعمل في فريق، وإنها سمعت من أن تعمل وحدها في البحث والكتابة وتريد أن تقوم بشيء ملموس. اقترحت عليها العمل في البرنامج الجديد الذي أنشأته الأمم المتحدة لحماية البيئة، وهو مجال تخصصها، فقالت إن مقره نيويورك بكينيا وهي لا تريد الحياة هناك، فابستمت ولم أعلق وفهمت صمتي، فضحكت وغيرنا الموضوع. تحدثنا عن آخر أفلام فيليني، وعن المخرج الياباني كيروساوا، وتأخر الوقت، وجاء الجرسون بالحساب فأبت أن تتركني أدفع، وقالت إن قيامها بالدفع أمر يتعلق بحقوق المرأة، وشرحت لي كيف أن هذه هي الموضة الجديدة في كندا، وأن النساء الآن يرفضن قيام الرجال بالدفع نيابة عنهن، فابستمت وقلت ربما يجب أن أذهب للحياة في كندا إذا كان الأمر هكذا، فسرحت وقالت يا ريت، ولم لا؟ ففطرت إليها وابستمت، وقلت «انظر المرجع السابق». وقالت اعتبر العشاء هديتي بمناسبة سفرك، وخرجنا من المطعم وسرنا طويلاً في مساء خريف باريس اللطيف، حتى وصلنا ليا ب منزلتي. وتلعثنا مرة أخرى، وسألته إن كانت تحب أن تصعد لنا ناول مشروب أخير، فأومات وصعدنا.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تنفرد فيها ببعضنا ببعض منذ

سهرت في شقتها وقالت لي في اليوم التالي إنها أرادت أن أقضي الليلة معها. كانت مرتبكة، وكنت غير فاهم بالضبط لما هي بصدده. دخلت إلى الحمام لتغسل وجهها وعادت وجلست على الأريكة ويديها معقودتين على ركبتيها. ذهبت لإعداد الشاي وتركها جالسة، الساعة تشارف على الثانية صباحاً، وأنا مرهق ولكن حواسي كلها مستيقظة. كانت هنا، في بيتي، معي. تعلم أنني أحبها وأني أريدها، أنت بمحض إرادتها. وهي التي قالت إنها أرادتني، وإني أقرب إنسان إلى قلبها. في الروايات، كثيراً ما نرى المرأة تقول شيئاً ثم تفعل عكسه، وهي نفسها قد اعترفت لي خلال مناقشنا السابقة بأن ذلك من عادات المرأة وأن على الرجل العاقل أن «يقراء» المرأة ولا يركز فقط على ما تقوله، لأنها لا تستطيع أن تقول كل ما تريده، وأحياناً لا تعرف أن كانت تريده. سألتها، وقتها، ألا يصبح ذلك اعتداء على إرادة المرأة أن - مثلاً - يقبلها رجل دون أن يستأذنها. فضحكت وقالت باستهزاء: يستأذنها؟ أكيد أننا لن نخرج سوياً، إياك أن تستأذن امرأة في هذا الأمر أبداً، ماذا تنتظر منها أن تقول؟ نعم، من فضلك قبلني؟ قلت، ولكن وما الحال إذا كانت المرأة لا تريد؟ قالت وهل أنت أعمى؟ ألا يمكنك أن ترى ما إذا كانت تريد أم لا؟ إذاً، هل أضيع وقتي في هذه المناقشات حول أنني أحبها وأنها تحبني وتكابر؟ أليس من الأفضل أن أذهب الآن وأقبلها؟ أعددت الشاي، وقلت لنفسي وأنا أحمله عائداً إلى الأريكة التي تجلس عليها إنني لن أقبلها دون أن تأذن لي هي بوضوح، ولتقل إتي أعمى مثلما شاءت.

عندما عدت للأريكة وجدتها مستغرقة في النوم. وضعت الشاي

على المتضدة ووقفت أرقبها لحظات. نأسرني. هذه هي الكلمة. وكنت أظن أن قلبي لن يخفق ثانية هكذا. وأني لن ينقطع نفسي وأنا أنظر لامرأة مرة أخرى. ولكن ها هي، نأسرني وتأخذ أنفاسي بعيداً عني. وأشعر أنني إن لمستها ستحترق أصابعي، وإن احتضنتها سأذوب. وقفت أنظر إليها، وأصدرت بعض الصوضاء فاستيقظت، واعتذرت، وقالت إنها بدأت نهارها منذ الخامسة صباحاً ولم تنم جيداً في الطائرة. نظرت لساعتها ووجدتها الثانية، فقالت إنها يجب أن تعود إلى فندقها لتناول قسطاً من الراحة قبل أن تلحق بطايرتها التي تقلع في الحادية عشر ظهر الغد، سألتها أين الفندق؟ فقالت إنه قرب المطار. فقلت لا يمكن أن تعود إلى هناك في هذا الوقت، وعرضت عليها المبيت في منزلي. فترددت، وقالت لا أريد أن أثقل عليك. فقلت لها ألا تكون سخيفة وأنه بالتأكيد يمكنها النوم في سلام هنا حتى التاسعة صباحاً وبعدها يمكن أن أوصلها إلى المطار. ابتسمت وشكرتني وقالت إنها ستنام على الأريكة. عرضت عليها أن تنام في فراشي وأنا أنام أنا على الأريكة فرفضت بإصرار، وهكذا. توجهت أنا لفراشي في غرفة نومي، وتركت لها الصالة لتنام فيها.

بعد حوالي نصف الساعة، وأنا يقط في الفراش، كنت ما زلت أسمع صوت ثقلها على الأريكة في الخارج. قمت، وناديت: «ماري أن؟ لماذا ما زلت مستيقظة؟». قالت: «أريكتك ليست مريحة في النوم إطلاقاً يا سيد غالب». وبعد لحظة رأيتها أمامي، بملابس النوم، وقالت:

- معذرة، سوف أذهب إلى الفندق، فلا أستطيع النوم على هذه الأريكة.

- قلت لك أن تنامي هنا، سأنام أنا على الأريكة.

- مستحيل، لن آتي إلى منزلك هكذا بدون دعوة وأطردك من فراشك، سأذهب.

- لا يمكن أن تذهبي الآن، هل أنت مجنونة؟ الساعة الثانية والنصف، كيف تذهبين وحدك لفندق ناء بجوار المطار، ومتى تصلين، وأمامك غداً رحلة عبر الأطلنطي.

- ليس هناك حل آخر.

- بل هناك حل آخر، تعالي نامي هنا وسأنام في الخارج.

- مستحيل أن أدعك تغادر فراشك.

- بسيطة، تعالي نامي هنا في الفراش، كل منا يأخذ نصفاً.

....

- أنا جاد، لا تخافني.

- أنا لست خائفة، أنا فقط لا أريد أن أضايقتك.

- لن أضايق.

- هل أنت متأكد؟

- نعم.



وهكذا جاءت ماري آن ونامت في فراشي. استلقت إلى جوارتي، ونظرت إليّ وقالت: «أنا أسفة، ولكنني حقاً متعبة، هل أنت متأكد أنك ستكون على ما يرام؟»، قلت، وأنا أغالب قلبي الذي يهفو لاحتضانها، «أنا على أشد ما يكون المرء على ما يرام»، ولم أستطع منع يدي من أن تلمس جبهتها وبداية شعرها، وأضفت: «لديك تكوني هنا دائماً»، وشعرت بخف ما أقوله فصمت وسحب يدي من على وجتها. أغمضت عينيها، وبعد دقيقتين كانت قد استغرقت في نوم عميق. استلقيت على ظهري وأنا حريص أن أظل بعيداً عنها قدر الإمكان، واستندرت لأنام على جاتبي وأظل أنظر إليها، وظلمت هكذا حتى غلبني النوم.

(أذكر أنني حين قصصت هذه القصة على صديقة لي بعد ذلك بسنوات، لم تصدقني في بداية الأمر، ثم سألتني إن كنت طبعياً، ولما أجبت بأنني أعتقد أنني طبعياً، قالت إنه لا يوجد رجل طبعياً يمكنه أن ينام بجوار امرأة في فراش واحد ولا يلمسها، فما بالك بما إذا كان يحبها؟ وحاولت أن أشرح لها إن الدنيا ليست بالعافية، وإني أريدها بمعنى أنني أريد أن تعطيني نفسها بإرادتها وأن ترغب في ذلك، لا أن أخذها بالقوة، فمطت شفيتها ولم تعلق. هل ما زالت تظن أنني غير طبعياً؟).

في الصباح، كانت ماري آن متعشة ومبسمة. وجدتها قد استيقظت قبلي واستحمت وأخذت تسرح شعرها الكستنائي الطويل وتشرب القهوة حين خرجت من غرفتي. تبادلنا التحية وقالت إن

هناك قهوة لي في البراد، وكرواسان وجبة وبعض العتب في الطبق بجواره. أعجبتني هذه الحالة الزوجية، هذه الحميمية البسيطة، هذا الاعتقاد. بعد قليل كنا في الطريق إلى المطار. في السيارة، قالت فجأة إنها تريد أن تشكرني. أو مأت. صمتت. ثم أضافت إن الليلة الفائتة جعلتها تشعر بأمان معي لم تشعره من قبل، وأن ذلك يعني الكثير لها. نظرت إليها وأنا غير فاهم لما ترمي إليه بالضبط، ثم أعدت التركيز على الطريق وقدت السيارة في صمت. وعندما وصلت إلى فندقها بجوار المطار، أوقفت السيارة وقلت إنني سأتركها هناك وأعود إلى باريس وسألتها عما إذا كانت تريد شيئاً. تلعثت، وأبطأت قليلاً وهي تخرج حقيبة يدها الكبيرة من السيارة، وقالت: «لماذا لا تضع السيارة في المرآب وتأتي معي للفندق؟ سأخذ حقبتني ونذهب للمطار؟ لن تستغرق الإجراءات سوى عشر دقائق وبعدما يمكننا الذهاب لتناول قهوة أخرى في صالة المطار حتى موعد الطائرة». كنت أريد أن أجعل هذا الوداع قصيراً، بل لم أكن أريد هذا الوداع أصلاً، وكنت أتمزق من داخلي رغم الصلاة التي تبدو عليّ. لم أكن أريد أن أفارقها، فقلت حسناً. قدت السيارة للمرآب، وعدت مسرعاً لها.

لم تأخذ الإجراءات أكثر من عشر دقائق فعلاً. نظرت إليّ وقالت: «أرايت؟ هيا بنا نتناول القهوة»، قالتها ووضعت ذراعها في ذراعي دون النظر وسارت بجوارتي تتحدث عن المطار وتعلق على المسافرين. وأنا أذوب في داخلي من ألم يعتصرني. وأعلم أن هذه هي النهاية وأني أفقدها وأني لن أراها مرة أخرى، وأشعر بالأسى أنني فقدت المرأتين اللتين أحبتهما بسبب أو بدون سبب.

فجأة توقفت ونظرت إليها وقلت: «ماري آن، يجب أن أذهب الآن، لا أستطيع البقاء أكثر». صمتت، وكأنها لم تكن تتوقع رجوعي، وكأننا لسنا في مطار وكأنني لست هنا كي أودعها وكأنها ليست مسافرة إلى كندا وأنا للقاهرة بعد عدة شهور. قالت: «ماذا تعني؟ هذا هو إذا؟ تلك هي النهاية؟». أومأت، وقلت: «أخشى أن الأمر هو ذلك بعينه». ألفت بنفسها بين ذراعي، ووقفت متفاجئة ومتصلبة. ها هي، المرأة التي طالما حلمت بأن أحضنها، بين ذراعي، ولكنني بوغت ولم أحضنها، ووقفت مرتبكة، فتراجعت، وثبتت قليلاً حتى صارت في مستوى رأسي، وقبلتني على شفتي. جاءت القبلية سريعة، وجافة، ثم ركضت باتجاه بوابة السفر، ورحلت أنا باتجاه المرائب.

• • •

أين هؤلاء الحمقى؟ هل انفجروا هم أيضاً؟ الساعة الآن السادسة. نقد الماء منذ أربع ساعات، وحل الظلام لليلة ثانية، وما زالوا لم يجدوني؟ مبنى القنصلية ليس بهذه الضخامة! الموضوع كله دورين من الحجر والأسمنت. هذا ليس مفاعل تشرنوبل، فأين هم بحق المسيح؟ عطش يجرح حلقي، وسيطرني على جسدي تنهاوى. إن كانوا يظنون أنهم سيقتلوني هكذا فهم واهمون. لا داليا ولا الأمن ولا الجماعات الأصولية ولا أحد. أنا لن أموت هنا. سأنتظر. ولن يقهر العطش ولا الجوع ولا الإعياء روحي. ما زال أمامي بقية حياتي لأحيائها، وما زال لدي أشياء لأراها وأشياء أقولها وحب لم يأخذه أحد. سوف أخرج من هنا عليكم اللعنة، سأخرج.

• • •

حين وقفت في المحكمة أمام المنصة، ووقفت داليا الشناوي بجوارتي وكلانا نتحدث للقاضي عن قضية أشرف فهمي، شعرت بالدوار. كأنني رأيت هذا المشهد من قبل. كأنني أكمل دائرة وأنهي مشواراً بدأت منذ عمر طويل. داليا وأشرف وأنا، وكلمات كثيرة نقولها بهدف شرح وجهة نظرنا، أو تبرير موقفنا، أو إقناع الطرف الآخر بأن بتغير، أو بأن يتفهم ظروفنا ويدعنا في حالنا. والآن، مثلما في السابق، أحاول الدفاع عن حياتي ضد داليا التي تقوم بتدميرها. لكنني الآن، عكس الحال في السابق، لا أستطيع الحديث معها مباشرة، بل أخطبها من خلال القاضي، ذلك الرجل المشهور بتعاطفه مع الجماعات الأصولية والذي «تصادف» تكليفه بقضية الاحتساب. قال لي أشرف قبل يده المحاكمة إنه مذهول مما وصلت إليه داليا، وإنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن يصل بها الحال إلى رفع قضية احتساب تطالب فيها بتكفيره، هي، بنت الأصول والعقل والمجتمع الراقي الليبرالي الذي حكم مصر مجتمعاً ودولة لعقود. وقلت له إنني أخالفه الرأي، وإني لست متفاجئة، وإن هذا هو التطور الطبيعي للأمور.

— كيف يا سيدي؟

— داليا اختارت من زمن طريق السيطرة على الذات، وجعلت من هذه السيطرة مفتاح لحياتها كلها. لو اخترنا لداليا شعاراً انتخابياً لكان أفضل شعار هو «داليا ضد الفوضى». السيطرة تعني ضرورة وجود قواعد تحكم سلوك البشر، والسؤال هو من أين تأتي هذه القواعد.

- ولكن أي جماعة بشرية، أي بشر، يحكم سلوكه قواعد، فما الذي يجعل من ذلك مشكلة؟ ما علاقة ذلك بالأصولية التي تبنتها داليا فجأة؟

- ليس فجأة، داليا طول عمرها أصولية، سواء كان أصوليتها مصدرها التقاليد - أيام كنا في الجامعة - أو الدين الآن.

- وكيف نتقل من هذا الموقف الفلسفي لرفع قضية عليّ لاعتباري كافراً؟

- فإكر المقال اللي كتبته ونشرته لي بعنوان «النوم مع الإرهاب»؟ - لا، مش فأكره.

- طيب، بما إنك لم تقرأه فأسأله لك. أديني ياسليك لغاية ما دور القضية يجي. في أي حركة سياسية عقائدية، يبدأ الأمر بسيطرة مجموعة من المعتدلين وبعد كده بيطلع جبل أكثر تطرفاً بكثير، يدعو لاستخدام العنف بحجة فشل الأساليب السياسية في تحقيق أهداف الحركة، ويستخدم ذلك أيضاً لتقوية نفوذه داخل الحركة ككل. وغالباً ما ترى القيادات التقليدية في نشأة هذا التيار فرصة لتخويف الحكومة من عواقب اضطهادهم هم المعتدلين، مع إحساس زائف بالثقة أنه لا يمكنهم أن يفقدوا سيطرتهم على الحركة. لكن الحقيقة أنهم يفقدون هذه السيطرة، وأن من يحمل السلاح وينفذ الأوامر في هدوء وطاعة عمياء في البداية لا يلت أن يشعر بقوته، ويفرض نفوذه ورويته شيئاً فشيئاً حتى تنقلب الآية وتصبح القيادات المعتدلة مجرد واجهة لتطرف وإرهاب العنف الذي تمارسه القيادات الميدانية.

- وإيه علاقة ده بداليا؟ وبالقضية دي اللي هاتوديني في داعية؟

- ده جزء من نوم المعتدلين - اللي زي داليا - مع الإرهاب. داليا بتقوم بده كجزء من التزامها بنشاط الحركة السياسي، غالباً بدفع من العناصر الأكثر تطرفاً. لكنها في النهاية بتخدم تيار العنف والإرهاب داخل الحركة، حتى إذا كانت فأكرة إن اللي بتعمله هو مجرد محاولة إجبارك وبقية المثقفين على احترام العقيدة الإسلامية.

كيف تعيش داليا مع هذه الأفعال؟ عندما تغفلوا بنفسها، ماذا تقول لنفسها؟ كيف تبرر مساهمتها في ذلك القتل؟ أم إنها أصبحت تؤمن - منذ أيام باريس - أن بعض القتل ضرورة؟

• • •

لن يفيد الغضب ولا اليأس. لن يخرجني من هذا القبر المظلم والخائق والصامت وغير المفهوم. لن يوقف معدتي والصداق وشقوق العطش الجارحة في حلقي. لن يوقف الدوار الذي يصيبني. لن يأتي بعمال الإنقاذ. دحك من الغضب ومن اليأس. سيأتي الضوء بعد ساعات، لن أموت الآن. حتى بدون الماء والطعام أستطيع أن أظل يومين آخرين. أظن ذلك. سأحاول ذلك على كل حال. فهذا الموت لا يعجبني، ولن أموت هنا هكذا. يجب أن أتحي الغضب جانباً وأبحث عن حل ما. في الصباح، عندما يأتي الضوء. الآن يجب أن أدخر هذه القوة وأنام قليلاً.

• • •

لم يكن هناك بد من التمويل الأجنبي، ومن تحمل عبء السفر الأمريكي والسفراء الأوربيين. وعلى عكس ما يردد المتشددون، فإني لا أحب ذلك ولا أستسيغه، وبالفعل لا أتربح من ورائه مثلما ادعى بعض الحفراء. ولكن ماذا ينتظر هؤلاء المتشددون؟ من أين أتى بعشرة ملايين جنيه سنوياً لإدارة مكتب ضخم كهذا يقدم المساعدة القانونية ويدافع عن الحقوق السياسية للمواطنين على مدى ما يقرب من الثلاثين عاماً؟ هل تبيع أثرياء مصر للمكتب ورقضت؟ هل قام أحد بوقف ريع أملاكه بعد وفاته لهذا الغرض وامتنعت؟ بل هل قام أحد ممن استفادوا بخدشات المكتب بالتبرع له بعد خروجه من محتشم؟ لم يحدث أي من ذلك، فماذا أفعل؟

ذات يوم اقترح أحد تلامذتي الذين انضموا حديثاً للمكتب أن نقوم بحملة لجمع التبرعات لإحلال التمويل الشعبي محل التمويل الأجنبي. وقال إن حملة «جنيه سنوياً من كل مواطن» يمكن أن تفي بنفقات تشغيل المكتب. قال التلميذ التابع إن الجوانب القانونية الخاصة بحملة التبرعات يمكن معالجتها، وأعد مشروعاً متكاملًا لإدارة الحملة. قلت له أن يبدأ، أو يهمل، وأن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مجتمعة ستجعل من المستحيل نجاح الحملة. وتناقشنا مطولاً، ولم أرد أن أكون قمعياً ولا مثيلاً لهم، فاتفقت معه على أن يبدأ هذه الحملة في حي واحد من أحياء القاهرة من اختياره، كحجربة، ونحكم بناء عليها. ووقع اختيارنا على قسم قصر النيل باعتباره يجمع بين أحياء تمثل طبقات المجتمع وفنائه كلها، من يولاقي أبو العلا إلى الزمالك. مائة وأربعة وثلاثون

جنيهاً. هذه هي حصيلة أسبوع كامل من حملة جمع التبرعات، تكلفت سبعة مائة مائة مكافآت للشباب المشارك، غير نفقات الانتقال والملصقات والدعاية. مائة وأربعة وثلاثون جنيهاً، منها خمسين جنيهاً دفعها مشارك واحد كنت أدعو الله ألا يكون الشاب صاحب فكرة الحملة.

الإجابة إذاً هي لا، لم يتبرع أحد الأثرياء بشيء، ولم يقيم الشعب المهضومة حقوقه بالتبرع للمكتب من أجل الدفاع عن هذه الحقوق. من أين إذاً كنت أتى بالتمويل؟ لقد بدأت هذا المكتب ضد التيار، وضد مصلحتي الشخصية، ودخلت في مواجهات مع أجهزة الأمن بسببه، ومع الدولة نفسها أحياناً ممثلة في وزراء ورؤساء هيئات، بل وفي مواجهة مع الرئيس السادات نفسه، في بداية عمل المكتب عام ١٩٧٧ في أعقاب مظاهرات الخبز، وتعرضت بسبب هذا المكتب لمشاكل جملة مع إدارة الجامعة، تأخرت ترقيتي في أعقابها، وقدمت وقتي وعلمي وخبرتي لهذا المكتب بدلاً من أن يكون لي مكتباً للقضايا المدنية أو التجارية أو قضايا التحكيم الدولي والتي كنت من أكثر الناس تأهلاً لمعالجتها بحكم تعليمي وكانت تدر عليّ مآلاً أكثر من أن أستطيع إنفاقه في حياة واحدة. صحيح أنني حققت شهرة ومركزاً دولياً مرموقاً بسبب المكتب الذي أنشأته ونوعية القضايا التي تخصصت فيها. لا أنكر ذلك. ولكن هذا أتى على حساب حياتي الشخصية، والتي ما كانت لتأثر سلباً لو سلكت الطريق التجاري، مع تحقيقي أيضاً لمركز ممتاز. بنيت هذا المكتب بأيامي وحياتي كلها، هذا هو إسهامي الرئيسي في إعادة بناء هذا الوطن، أو

في وقف انهياره، أو في إبطاء انهياره، هو وبعض الكتب التي ربما لم يقرأها غير تلاميذي. لم يكن هناك من سبيل آخر لإنشاء المكتب وتشغيله غير التمويل الأجنبي، فلا يحاسبني أحد على ذلك، وخاصة هؤلاء الذين يقتاتون على موائد الأجنبي صباح مساء لمصالحهم الشخصية وليس لمصلحة عامة.

كم كنت أود، كم كنت أحلم أن يكون التمويل باكتساب عام، أو بحملة تبرعات مستمرة، من البسطاء وعامة الشعب، من وقف أو هبة من أحد رأى فائدة العمل الذي نقوم به لقريب أو حبيب وأوصى للمكتب بجزء من ميراثه، أو منحة من نادي القضاة تقديرًا للدور الذي يقوم به المكتب، أو هبة من الدولة تعبيرًا عنها عن فهمها لأهمية دور المجتمع المدني في حماية حقوق الإنسان. لا شيء من هذا تم. صمت مطبق من الجميع. كنت أريد، إن حدث أي من ذلك، أن أنشئ مجلس إدارة للمكتب يضم في صفوفه أناس ممن تبرعوا وممن استفادوا من عمل المكتب، وتكون هناك تقارير أداء سنوية، ومحاسبة لإدارة المكتب من جمهوره وداعميه. ولكن بدلًا من كل ذلك، وجدت نفسي مضطرًا لأن أقدم تقارير الأداء للصناديق الأمريكية والأوربية التي تمول عمل المكتب، وفواتير وإيصالات دفع وسداد، والسفير الأمريكي والسفراء الأوربيين يتصرفون باعتبارهم ممثلين «الجهة المانحة»، يلتزمون حدود اللياقة ولكنها لا تغير من طبيعة العلاقة بين من يدفع ومن يتلقى. ويعلم الله كم احتملت من السخافات، وكم ناضلت وناورت من أجل الحفاظ على استقلال العمل وعلى أجندته الوطنية، بعيدًا عن أجندات هذه الجهات الخاصة.

ولكني كنت أعلم أنني أناضل وحدي وعلي جبهتين: الدولة من ناحية، والجهات المانحة من ناحية أخرى. وفي خضم النضال والمناورة تختلط الأمور، ويصبح من غير الواضح ما إذا كانت خطوتك تخدعك أنت أم تخدم غيرك. حتى صرت أعتقد أن الخطوة نفسها - أي خطوة - ليست مهمة. وأن الأهم هو قدرة الطرف الآخر على استخدامها لمصلحته. وهنا لا بد من الإقرار بأن الجهات الأجنبية المانحة كانت دائمًا الأقدر، يليها أجهزة الأمن، وأنتي كنت في نهاية الأمر، أضعف الحلقات وأكثرها تعرضًا للاستخدام من قبلهما معًا.

لماذا هذا الحماس من جانب الأمريكيين والأوربيين للقضايا المتعلقة بحقوق الأقباط؟ حماس وجدته أنا شخصيًا مبالغًا فيه. أحيانًا يبدو الأمر وكأنهم يودون أن يكون هناك تمييز ديني أكثر مما هو قائم فعليًا، ويسرعون في أغلب الأحيان لافتراض أن العامل الديني يفسر حالة التمييز التي نتحدث عنها، ويصرّ بعضهم على أن هناك حالة «اضطهاد» للأقباط، وعندما أحاول إقناعهم أن ما يجري هو نتيجة غياب ضمانات قانونية ودستورية لتطبيق مبدأ المساواة، وفي أسوأ الأحوال ممارسات تمييزية على أساس الدين ولكن ليس بأي حال من الأحوال حالة من الاضطهاد الديني ينظرون لي بشك. ويقول بعضهم عبارات تبدي التفهم «الحساسية موقفي». وكأنني مضطر لقول هذا بدافع الملامة السياسية. ويشيرون لضعف أو غياب تمثيل الأقباط في الوظائف العليا للدولة وأجهزتها الحساسة، وعدم المساواة في الترقيات في الجامعات وغير ذلك مما أحفظه

عن ظهر قلب. وعياً أحاول إفهامهم أن هذا هو نوع من التمييز على أساس الدين ولكنه ليس اضطهاداً دينياً، وألا أحد يمنع المسيحيين مثلاً من ممارسة شعائرتهم الدينية أو يجبرهم على ترك ديانتهم، فيشيرون لمشاكل بناء الكنائس وللضغط الاجتماعي على البعض لتغيير الدين خاصة في حالات الزواج المختلط.

لماذا يزايدون عليّ؟ كيف يمكن أن يزايدوا عليّ أنا، بل وعلي الكنيسة؟ هل هذا بدافع الحرص على المساواة فعلاً؟ وهل يفترض أن أكون من الساذجة كي أصدق هذا؟ وإن كان الأمر هكذا، فلماذا تخفي برامج المساعدات وينصب التمويل حين يتعلق الأمر بالدفاع عن أشكال أخرى من المساواة؟ ولماذا لا يقرنون هذا الحماس الفياض للمساواة وهذا الدعم السخي بضغط حقيقي على الحكومة كي تتخذ إجراءات قانونية ودستورية تضمن المساواة وتنزع قبيل الأزمة؟ حين أثير هذا السؤال مع السفير الأمريكي أو السفراء الأوروبيين، يستبعدون الفكرة تماماً ويتحججون بأسباب وأهية. هل من الصعب دفع الحكومة لتشكيل لجنة قومية مستقلة ومحترمة للنظر في كافة جوانب المواطنة ووضع توصيات لخطة خمسية لدعم المواطنة؟ سألت العميد أحمد كمال هذا السؤال في إحدى جلسائنا العديدة فأبستم وقال «خليك واقعي يا دكتور، الكلام ده ما ينفعش عندنا».

ثم تقع فتاة في هوى شاب، أحدهما مسيحي والآخر مسلم، أو يغير رجل مسيحي ديانته ليحصل على الطلاق من زوجته المسيحية

ويحتفظ بحضانة الأطفال، ثم تغير المرأة ديانتها كي تحول دون حصوله على حضانة الأطفال. وبعد نهاية النزاع، أو الزواج، يعود أحدهما أو كلاهما لدينه الذي لم يتركه في الواقع قط، وربما يرغبان في الزواج من جديد، أو يموت أحد والديهم ويدخلان في قضية ميراث مع الإخوة، ويرغب أحدهما أو كلاهما في تغيير الدين مرة أخرى في البطاقة الشخصية، ويقول الشخص إن مصلحة الأحوال المدنية رفضت بإيعاز من الأمن، ويرفض ضابط أمن الدولة تسهيل الأمر وينظر لي بريبة وهو ينطق اسمي المسيحي بالكامل، وأستنجد بالعميد أحمد كمال دون جدوى، ويبدى السفير الأمريكي حماسه الزائدة للدفاع عن «هذه الحالة الصارخة من الاضطهاد»، ثم يدخل بعض أعضاء الكونجرس على الخط ويصدرون بياناً، فتعند الحكومة أكثر، وتتدخل الكنيسة، والأزهر، والرجل الذي يبيع الفول على ناصية الشارع الذي يقطن فيه الشاب أو الفتاة، ويتطوع رجل عتيق نفسه خطيباً لمسجد أعلي في الحي بأن يدلي بملوه في الموضوع، ويصرخ أقباط متدينون في المجالس الخاصة محذرين من كارثة آتية، ويقول مسلمون ملتحمون في ندوة بنادي الصيد إن هذه بلد إسلامية «واللي مش عاجبه يسبيها ويمشي»، ثم يقوم موتور بإلقاء طويتين على زجاج كنيسة في عتمة الليل ويهرب، إن حالفنا الحظ، وإن لم يحالفنا، يشبك عدد من المسلمين والمسيحيين بالأيدي وقد تحرق محال تجارية أو تُقتل مواشي أو بشر، وتعرب الكنيسة عن غضبها، ويزداد احتقان الأقباط وربما تقوم مظاهرة صغيرة أمام الكنيسة التي تعرضت للاعتداء أو في القرية أو الحي محل الاشتباكات، ويصدر أعضاء

الكونجرس بياناً آخر يقول إن «التدهور الجاري في مصر» يؤكد ما قالوه من قبل من وجود اضطهاد، فتعند الحكومة أكثر وتتوقع على نفسها وترفض اتخاذ أي إجراء تحت الضغط، وينهمر علينا سيل مقالات وأغانٍ عن الوحدة الوطنية والسيح الواحد وثورة ١٩١٩، ثم تعلن الشرطة القبض على مختل عقلياً هاجم الكنيسة، وفجأة يسافر الفتى أو الفتاة أو كلاهما إلى الخارج في ظروف غامضة، دون تسوية للنقطة القانونية التي كانت مصدر المشكلة، ويقول العميد أحمد كمال إن المشكلة تم احتواؤها ولا داعي لإثارتها من جديد حول مسائل قانونية لن تحل، ويقول لك سفير أوربي ما سبق وقاله من أن المشكلة تكمن في حالة الاضطهاد السائدة وأن على المجتمع المدني أن يواجه هذه الحالة في أساسها. فلين تقف أنت وسط كل هذا؟ وكيف تضمن، كمحام يقود مكتباً للدفاع عن حقوق الإنسان، ألا يتم استغلال ما تقوم به لأغراض تتنافى كلية وما تهدف لتحقيقه؟

• • •

جاء الضوء. لكنني لا أستطيع القيام من مكاني. الضوء يجرح مقنني حين أفتح عيني. أعرف أنني لن أموت هنا، فلماذا لا تذهب هذه الانتفاض عني؟ وهن يهبط على حواسي وعلى جسمي وعلى عيني. أغمضهما وأفتحهما. ضوء جارج كالعطش في حلقي. قلت سأبحث عن حل حين يجيء الضوء، وها هو جاء. لكن الضوء جارج، وأنا لا أستطيع الوقوف.

• • •

لماذا عدت إلى مصر؟ مسألتي كل من قابلته بعد عودتي. وفي السؤال ظل لوم واستغراب، ثم عدم اقتناع بما أسوقه من أسباب، بل وتشكك أحياناً في صدق ما أقول، واستمرار للسؤال وكأنهم يقولون لي: دعك من هذا الهراء وقل لنا السبب الحقيقي. ويسألني البعض صراحة: ألم يكن باستطاعتك البحث عن وظيفة والبقاء في باريس؟ وحين أقول إن الجامعة عرضت عليّ البقاء والتدريس فيها يكون السؤال: السربون نفسها؟ وأقول نعم، فبدأ نظرة الشك أو الشفقة: «يا حرام. ذه باين عليه عيب». ومن كثرة السؤال بدأت أشك في إجاباتي أنا نفسي. وراجعت نفسي عشرات بل مئات المرات. لماذا عدت إلى مصر وقد كان باستطاعتك البقاء في فرنسا؟ ولكن لماذا أظل في فرنسا؟ الآن بها شوارع مرصوفة وأشياء مرتبة وهواء نقي؟ كلا، لأن بها حياة منظمة، مفهومة، ومجال لك كي تنمو وتصح أستاذاً أفضل، إنساناً أفضل.

حين قلت لأحد زملائي بالجامعة إتني لا أفهم سؤاله عن سبب عودتي لمصر، وكأنني يفترض بي ألا أعود، نظر لي مطولاً وقال: إن لم تكن تفهم سبب سؤالي فعلاً، فاذهب لميدان الجيزة وقف هناك لمدة ساعة. وإن لم تفهم بعد ذلك، فامش من الميدان حتى تنق الهرم. وإن وصلت سالمًا، فاهبط النفق حتى المنتصف، ستجد على يسارك بالوعة مفتوحة في قاع النفق بالضبط بجوار العمود الذي يحمل جسم النفق من المنتصف، هذه البالوعة المفتوحة في وسط الطريق، والتي تفاجئ سبل السيارات الذي لا يتقطع، موجودة هنا منذ ثلاثين عامًا على الأقل، ثلاثين عامًا. الأمر جلي، ولا يحتاج

لذكوراء كي تفهمه، والناس ليست جاهلة بمصلحتها، ورغم الغضب والصراخ والاحتجاج على «محاولات تشويه سمعة مصر»، فإن الناس أجمعين تعلم أين انتهى بنا الحال. لذا يستهزئ معظمهم أي فرصة من أجل الانتقال للحياة في الخارج، بما في ذلك هؤلاء الذين ينفقون معظم وقتهم في شرح مدى جودة الأحوال. قتل لي، لماذا عدت إذا؟ حقيقة؟

عدت لأنني من هنا. لأنني لا أهتم بامتحان الثانوية العامة إلا هنا، ولا تهمني الأخبار المحلية إلا هنا. ولا يمس قلبي تغير معالم شارع، أو مبنى، أو بناء جسر أو حفر نفق، إلا هنا. ولا أحلم إلا هنا. عدت، لأنني لا أستطيع في أي بلد آخر أن أرى الشارع الذي ذهبت فيه للمدرسة، أو المكان الذي قابلت فيه صديق العمر لأول مرة، أو أن أتذكر الفيلم العربي الذي شاهدته وأنا طفل، أو الأغنية التي استمعت إليها وأنا جالس على المقعد الخلفي لسيارتنا بين أبي وأمي وأنا في السادسة. عدت لأن هنا هو المكان الوحيد الذي سيفتقدني إن ذهبت، لأن هنا هو المكان الذي أشعر فيه أن لوجودي معنى، أنني يجب عليّ أن أفعل شيئاً فيه وله كي يصير أفضل ولو قليلاً، أن لي فيه جمهور. عدت، لأن هنا هو المكان الوحيد الذي لا يفترض أن أبرر فيه سبب وجودي. عدت لأنني أشعر أن هذا المكان لي، أن مصر ملك شخصي لي.

ولكنني منذ عدت أجد نفسي مجبراً على تبرير وجودي. ومنذ عدت وأنا أدرك أن أحداً لن يفتقدني إن رحلت. ومنذ عدت وأنا

أكتشف يوماً بعد يوم أن وجودي هنا كعدمه، وأني لا أستطيع أن أجعل هذا المكان أفضل، ولو قليلاً. لا أستطيع أن أفعل شيئاً لامتحان الثانوية العامة، ولا للبرج القبيح الغريب المهجور والواقف كشاهد على العيث أمام نادي الجزيرة، ولا حتى لاختفاء الرصيف واستحالة المشي في الشارع أمام بيتي. منذ عودتي وأنا لا أجد أي دليل على أن هذا المكان لي، أو أن لي فيه جمهور، بل على العكس، الجمهور ضدي. أما الشارع، والمدرسة، والفيلم والأغنية، فقد ذهبوا، ولم يبق إلا صورتهم في مخيلتي أحملها معي كهم شخصي صغير، ماض لا يهم أحداً ولا معنى له في نهاية الأمر. ماذا بهم إن كنت قد ذهبت للسعيدية الثانوية ما دام لم يبق منها سوى الاسم وبعض ملامح المبنى القديم، وتغير كل شيء آخر فيها إلى حد أنني لا يمكنني التعرف عليها لو رأيتها دون الالفة التي تذكر اسمها؟ وماذا بهم فيلم وأغنية انقطعت صلتها بالأفلام والأغاني اليوم؟ انقطعت الصلة، انقطع الحبل السري الذي يربط الأشياء بماضيها، وانفردت. وتقلصت الأرحام التي أنجبت الأشياء وصارت قطعة مكرمة من الأحشاء العقيمة. لا دور لها إلا في ذاكرة من يريد أن يتذكر. هنا كان هذا وهناك كان ذاك، ثم ماذا؟ ومن يهمه هذا الكلام؟ تلك هي الحقيقة التي عليك أن تواجهها يا نشأت: لم يعد لك مكان هنا. وربما لم يكن لك مكان هنا منذ البداية. أنا، وغيري من أبناء هذا الجيل، آخر السلسلة، انقطعت بعدنا، وظهرت سلسلة جديدة يعلم الله كم تطول حلقاتها. أما نحن فقد صرنا، مثل بيوت الحلمية القديمة الفخمة المهدامة، آثار على ما مضى، شهود على ما انقضى، لا أكثر.



هل كان هذا خطأ ارتكبت؟ أم هو نتيجة تغيير مجرى التاريخ في هذا البلد؟ كأن الجيل الذي كان في واجهة المجتمع لم يستطع أن يستدير مع انحناء مباغتة في الطريق، وأكمل المسير للأمام حتى وقع من على حافة الجبل أو ارتطم بحائط وظل هناك مشلولاً بلا دور، في حين استدار بقية المجتمع مع الطريق واستقر في المنحى الجديد الذي اتخذه.

ولكن، حتى لو كان من الممكن أن ألتف بالسرعة اللازمة مع انحناء الطريق المفاجئة، هل كنت لأفعل ذلك؟ هل أريد ذلك؟ هل لو استطعت - كنت سأريد أن أصبح جزءاً من هذا التخلّف الفكري الضارب في طول عقلية البلاد وعرضها؟ هل كنت أريد أن أكون جزءاً من أي من هذا الذي يجري من حولي؟ هل كنت أريد أن أصبح جزءاً من نخبة القضاء مثلاً؟ أنزاور وأنشاور وأتصادق مع هؤلاء القضاة الذين لا أريد الكتابة عنهم سوءاً ومن ثم لن أكتب عنهم؟ أو أن أكون جزءاً من نخبة فكرية لا تميز بين أفعالها وعقلها، بين خبرها ورأيها، بين أملها وما تراه؟ وهل من الممكن أن أكون فاعلاً في هذا المجتمع دون أن أكون جزءاً منه؟ لا أعتقد. لا أعتقد إطلاقاً. ولقد حاولت، حاولت أن أتواصل مع هذه النخب، قطعاً حاولت. ولم أتمكن. لم أستطع أن أحتمل الغثيان الذي كان يعتريني، كما أدرك الآخرون أنني لا أستطيع احتمالهم. ومهما حاولت، كان من الجلي لهم أنهم لا يفهمون نصف ما أقول، ولا يعجبهم أن يكون هناك رفيق جالس وسطهم يراقبهم ويشند ما يقولون أو يريهم ثغراته وعدم انساقه، أو حتى يصمت ويحكم على صواب ما يقولون. وأنا أعذرهم، فمن

يريد ذلك الرفيق. ورغم وحشة الوحدة، فقد صارت أعذب من هذه الصحبة. لقد اخترت أن أكون على الهامش، أن أقيم خلف جدران بيتي وأكتب، ولا يصح أن أشتكي الآن.

اخترت أن أظل هنا، وإن كنت غير فاعل، وإن كنت هامشياً. اخترت أن أظل واقفاً وسط الخرائب، كشاهد، لا لأحد غير نفسي أو المستقبل. سأقول يوماً ما، ربما عند مماتي، ربما الآن، تحت هذه الأنقاض، وفي هذه الأوراق، إنني اخترت أن أعود لوطن تركني ومضى، واخترت أن أظل فيه واقفاً كقصر من قصور الحلمة القديمة، مهجوراً وبلا فائدة، سوى أن يطل بشموخه على واقع تدهور وتداعي، ليذكر أحد العابرين - ربما - بما كان، وبما يمكن أن يكون، ولأن القصر لن يكون أحد قصور الحلمة إن نقل إلى فرنسا، لن يكون نفسه دون حياة الحلمة القديمة التي انقضت - مثلما أصبح واضحاً لي الآن - دون رجعة.

• • •

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
**RAYAHEEN**